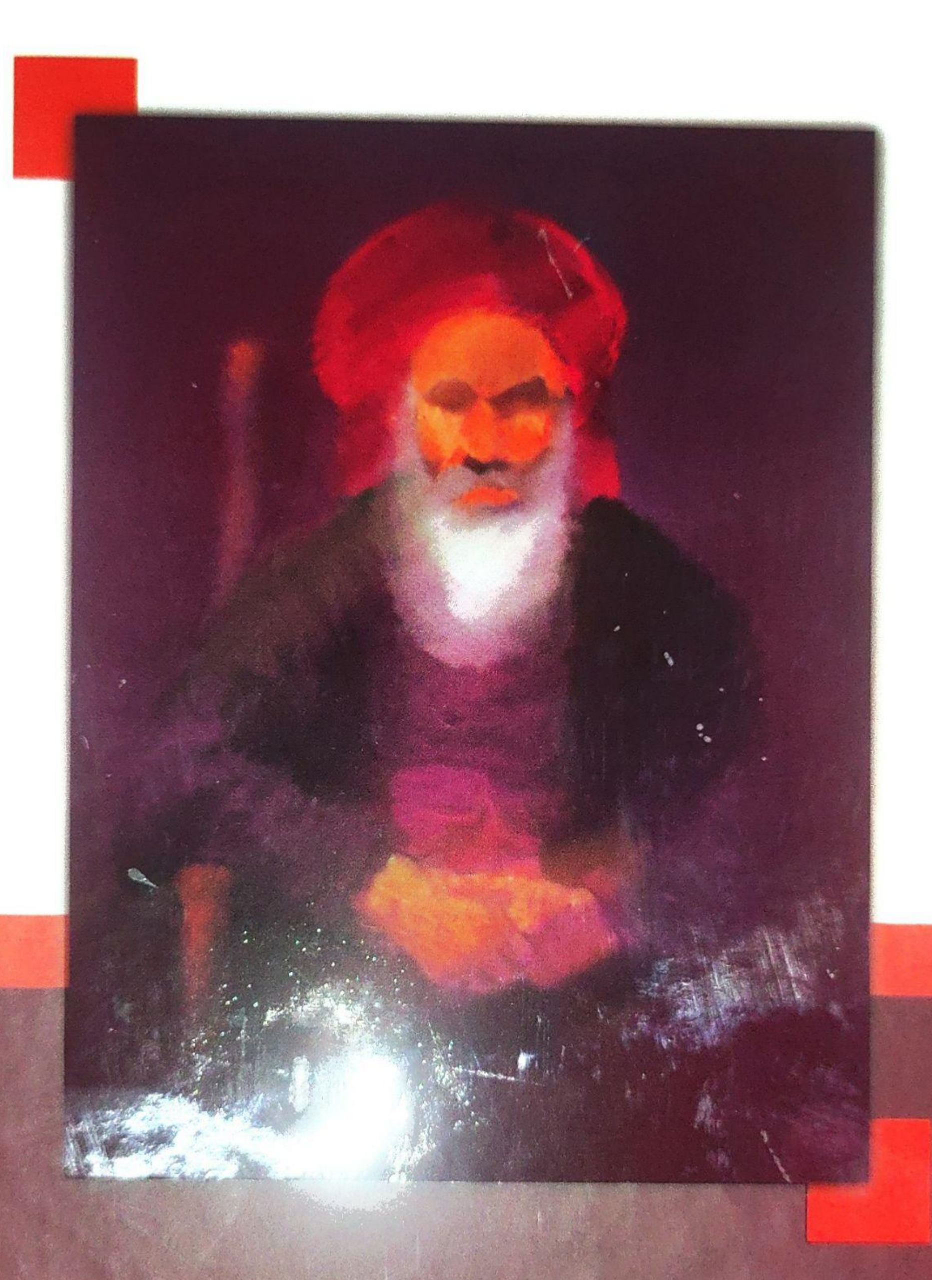
# مُعاويــة بن أبي سُفيــان

## من الجزيرة العربيّة إلى الإمبراطوريّة



ر. ستيفن هامفريز

ترجمه عن الإنكليزية:

هشام شاميّة



# معاوية بن أبي سفيان

## من الجزيرة العربيّة إلى الإمبراطوريّة


تأليف:

ر. ستيفن هامفريز

ترجمه عن الإنكليزية:

هشام شاميّة

# معاوية بن أبي سفيان

## من الجزيرة العربيّة إلى الإمبراطوريّة

# Muʿawiya ibn Abi Sufyan

## From Arabia to Empire

تأليف: ر. ستيفن هامفريز

ترجمة: هشام شامية

إخراج الكتاب وتصميم غلافه: القسم الفني، التقويم اللغوي: محمد وليد فليون

**الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت: 2022**

العراق/ تورنتو - كندا

The Academic Center for Research

TORONTO -CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية.

Library and Archives Canada

ISBN : 978-1-990131-30-1

naseer.alkaabi@uokufa.edu.iq

---





إلى سيمبر ومايكل وبراين



خريطة الدّولة الأمويَّة

## مقدمة و شكر وتقدير

يُعدّ معاوية بن أبي سفيان شخصيّة ذات أهمّيّة حاسمة في المرحلة التّكوينيّة للخلافة والإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة. لكن حتّى في _ طوفان _ الدّراسات التي تناولت القرن الإسلاميّ الأوّل؛ **لم يحظ معاوية باهتمام يُذكر على نحو يدعو إلى الدّهشة!** وقد كان آخر باحث كرّس اهتماماً وثيقاً له ولعصره (هنري لامنس) المتعلّم، لكن غريب الأطوار! كان ذلك منذ ما يقرب من قرن من الزّمان، وحتّى (لامنس) عاشق الأمويّين كما كان، لم يخصّص أبداً دراسة مُفرَدة (في موضوع واحد) كاملة لمؤسّس السّلالة، وتشير المقالة الرّائعة والمُختصَرة التي كتبها (مارتن هيندز) في الآونة الأخيرة في «موسوعة الإسلام» (والتي نُشرت عام 1991) إلى أنّه كان من الممكن أن يكون كاتبَ السّيرة الذّاتيّة المثاليَّ لمعاوية، لكنّ وفاته المبكرة حرمتنا من هذا الاحتمال.

وأسباب هذا الإهمال _ وربّما تكون الكلمة الأفضل التّقلّبات _ كثيرة، ويجب أن يتّضح بعضها في الصّفحات الآتية، ومع ذلك، **كان معاوية وما يزال رجلاً تصعب معرفته**، ومن الصّعب كذلك التّأكّد ممّا نعرفه حقّاً عنه؛ وحتّى فهم ما نعرفه (أو نعتقد في أنّنا نعرفه).

زيادة على ذلك، أصبح الحديث عن عدد كبير من المشكلات والاتّجاهات في بدايات الإسلام؛ والتي تبدو غامضة أو سيّئة التّشكيل خلال حياة معاوية أسهلَ بكثير في سياق العقود التي أعقبت وفاته.

وآمل أن يساعد هذا الكتاب في تجديد الاهتمام بهذا الرّجل الرّائع، لكنّه ليس كتاباً للمختصّين الإسلاميّين الأول، بل هو مُوجّه للقرّاء الذين بدؤوا للتّوّ في الانخراط في دراسة التّاريخ الإسلاميّ، سواء أكانوا من المسلمين في المهجر الذين يرغبون في معرفة المزيد عن تراثهم التّاريخيّ، أم من العلماء والمعلّمين الذين يعملون في المجالات ذات الصّلة (على سبيل المثال: أواخر العصور القديمة أو بيزنطة) الذين يحتاجون إلى معرفة شيء عن الإسلام المبكر.

عندما بدأتُ الكتابة وضعت في المقام الأوّل من الحسبان مراعاة أحوال تلك الجماهير، والحفاظ على الحدّ الأدنى من الحواشي السّفليّة واستخدامها لشرح المُصطلَحات غير الشّائعة بدلاً من تحديد المصادر الأصليّة والمراجع العلميّة التي تستند إليها تصريحاتي، وقد فضّلت عند الاستشهاد بمصادرَ أصليّة المصادرَ المتوافرة في التّرجمة الإنجليزيّة حين يكون ذلك ممكناً، والفرنسيّة والإيطاليّة أيضاً، فقد تابعت التّرجمات المُتاحة عن كثب، لكن قمت في بعض الحالات بتعديلها لزيادة الوضوح والتّوحيد في الأسلوب، وحاولت التّحقّق من التّرجمات المنشورة مقابل النّصوص الأصليّة بالنّسبة

إلى المصادر العربيّة؛ ولكن لسوء الحظّ، لا يمكنني القيام بذلك إلّا على نحو محدود مع النّصوص اليونانيّة، وليس مع النّصوص السّريانيّة أو الأرمنيّة إطلاقاً.

إنَّ الببليوغرافيا في نهاية الكتاب انتقائيّة للغاية، وزيادة على الأعمال المهمّة للدّراسات الحديثة، فإنّها تسرد المصادر الأصليّة مع التّرجمات حيثما وُجدت.

وبصرف النّظر عن الأمور الفنّيّة، يجب أن أعترف بأنّ عَرضي لمعاوية يفترض مستوى من الوضوح والبساطة لا تبرّره المصادر؛ لأنَّها مصادر _ أثريّة كانت أم مكتوبة _ مليئة بالثّغرات والغموض والتّناقضات، ويمكن أن تكون كلّ فقرة في هذا الكتاب تقريباً موضوعاً لمقالة مهمّة أو حتّى دراسة مُفرَدة، مُزيّنة بعدد من الهوامش كما يرغب المرء، وقد حاولت الابتعاد عن مثل هذه المُناقَشات؛ لأنّ تضمينها سيجعل من شبه المستحيل قراءة الكتاب! ومع ذلك، فأنا على دراية جيّدة بها، وتمثّل البيانات الواردة في هذا الكتاب قصارى جهودي لحلّها، وربما يكتب مؤلّفون آخرون كتاباً مختلفاً تماماً.

وتوجد، على وجه التّحديد، مسألتان ينبغي ذكرهما:

أوّلاً: لا يزال معاوية شخصيّة مثيرة **للجدل بشدّة**، ومن السّهل جدّاً

التّحدّث عنه من حيث الفِكَرُ الأيديولوجيّة واللّاهوتيّة التي تطوّرت بعد قرن أو أكثر من وفاته، لقد حاولت الاقتراب قدر الإمكان من منظور معاصر ـ أواخر القرن السّابع ـ حول حياته؛ وحين أناقش كيف فكّرَتْ به الأجيال اللّاحقة، أحاول أن أوضّح أنّ هذا هو ما أقوم به.

ثانياً: صوّرَتْ المصادرُ حول سيرة حياة معاوية مع التّخيّلات اللّاحقة والتّشويهات الأيديولوجيّة والثّغرات حالاتٍ من سوء الفهم التي كان ينبغي التّعامل معها على **نحو نقديّ** لتكون مفيدة، وفي أيّ حال من الأحوال، لم تكن المصادر محض اختراع، فهي تقدّم سرديّات وبيانات «مُوثّقة» لها صلة ملموسة بأشخاص حقيقيّين وأحداث حقيقيّة.

ولقد سعيت جاهداً لاستخدام هذه المصادر بعناية فائقة لما يمكنها وما لا يمكنها إخبارنا به، وأنا مقتنع في التّحليل النّهائيّ بأنّه يمكننا ـ ضمن حدود صارمة ـ أن نجد «**معاوية تاريخيّاً**» وقد بذلت قصارى جهدي لتقديمه هنا، ويستحقّ معاوية إلى حدّ كبير عناء معرفته.

وقد جهّزت مُسوّدة هذا الكتاب أثناء إقامتي في المركز الأمريكيّ للأبحاث الشّرقيّة (ACOR ـ أكور) في عمّان ـ الأردن خلال خريف عام 2004 م، ويجب أن أشكر مدير المركز آنذاك (بيير بيكاي) وطاقمه على الموارد الاستثنائيّة والأجواء العلميّة التي قدّموها. كما إنّني مدين لـ(ACOR) ومجلس مراكز الأبحاث الأمريكيّة في الخارج (CAORC)

لتقدّيم دعم الزّمالة الذي لم يسمح بالإقامة في عمّان فحسب، بل أيضاً بالرّحلات المُكثّفة في سوريا وجنوب شرق تركيّا؛ كذلك قام (دين ديفيد مارشال) من جامعة كاليفورنيا، سانتا باربرا، بترتيب إجازة تفرّغ خلال هذه المدّة.

كذلك منح الدّعم للبحث الأوّليّ الذي يقوم عليه هذا المشروع؛ الذي تمّ إجراؤه عامي 2000-2001 من قِبل زمالة رئيس جامعة كاليفورنيا في العلوم الإنسانيّة، وهي زمالة (فريدريش سولمسن) من مركز جامعة ويسكونسن للبحوث في العلوم الإنسانيّة، وتعيين منصب أستاذ زائر في مدرسة الدّراسات العليا في العلوم الاجتماعيّة، بالفرنسيّة: (École des hautes études en sciences sociales _ EHESS) في باريس وجائزة تبادل علميّ من المركز الوطنيّ للبحث العلميّ بالفرنسيّة: (Centre national de la recherche scientifique CNRS).

وأنا مدين لـ(بول بوير) مدير مركز العلوم الإنسانيّة في جامعة واشنطن آنذاك، ولـ (بابر جوهانسن) الذي كان مديراً للدّراسات في (EHESS) بالامتنان العميق والصّداقة على ما يبذلونه من جهود أصالة عن نفسي.

وقد اقترحت (باتريشيا كرون) محرّرة السّلسلة التي ظهر فيها هذا الكتاب الموضوع لي، ولطالما كانت نصيحتها الصّريحة، ولكن البنّاءة دوماً، ونقدُها لا يُقدّران بثمن طوال الوقت، كما أفادت المخطوطة من قراءة متأنّية لـ (مايكل

موروني).

لقد أعطى العديد من الزّملاء بسخاء من وقتهم ومعرفتهم، وعلى الرّغم من أنّني لا أستطيع ذكرهم جميعاً، إلّا أنّي أودّ الإشارة بوجه خاصّ إلى كلّ من بابير يوهانسن، تشيس ف. روبنسون، كلايف فوس، آلان والمسلي، دينيس جينيكاند، وإغناثيو آرسي.

وأقول باختصار: لقد تلقّيت أفضل مشورة ممكنة، أتمنّى أن أكون قد أفدت منها، لكن لا يمكنني الهروب من المسؤوليّة عن الأخطاء والنّواقص المتبقّية، وكما هي الحال دوماً، تظلّ زوجتي (جيل) الدّاعم الأكثر التزاماً وصدقاً لعملي.

# الفصل الأول
# مشكلة معاوية

يُعدُّ معاوية بن أبي سفيان من بين جميع الخلفاء الأول بالتّأكيد الأكثر مراوغة وغموضاً! إنّه مراوغ! لأنّنا لا نعرف سوى القليل جدّاً حتّى عن الحقائق العامّة عن سيرته؛ بما في ذلك ما يقرب من العشرين عاماً التي كان فيها زعيماً للمجتمع الإسلاميّ وإمبراطوريّته الشّاسعة بلا منازع، ونعرف أقلّ من ذلك عن أهدافه ومعتقداته الدّاخليّة. وهو غامض لأنّ المسلمين لم يعرفوا قطُّ ماذا يفعلون به، فقد كان في حياته رمزاً للنّزاعات ومشاعر القلق التي ابتُليت بها جماعة المؤمنين، **وهي كذلك حتّى يومنا هذا**. وعلى أيّ حال، فإنّ معاوية شخصيّة حاسمة في تاريخ الإسلام، ومن دونه يبدو التّطوّران السّياسيّ والدّينيّ للإسلام المُبْكِر مُبهَماً؛ ولا يمكن فهمُه، وزيادة على ذلك، مهما كان ما نفكّر فيه كحاكم ورجل (وهي مسألة تختلف الآراء بشأنها على نحو حادّ، وإن بجمل مُلطّفة). فقد كان عبقريّاً سياسيّاً في وقت لم يكن باستطاعة أيّ شيء أقلّ من ذلك أن ينقذ الإمبراطوريّة الإسلاميّة من التّفكّك.

تنقسم حياة معاوية وسيرته إلى **ثلاث مراحل** متساوية في الطّول تقريباً:

- ما يقرب من ثلاثين عاماً من الطّفولة إلى أوائل سنّ الرّشد، مرّت

ضمن الهياكل العائليّة والدّينيّة التّقليديّة لقبيلة قريش العربيّة.

- خمسة وعشرون عاماً قضاها بوصفه عضواً في النّخبتين السّياسيّة والعسكريَّة الإسلاميّتين المهيمنتين حديثاً.
- خمسة وعشرون عاماً يناضل من أجل تولّي زمام السّلطة العليا، ثمّ تولّاها رئيساً للإمبراطوريّة الإسلاميّة.

ولا يمكننا أن نقول عن المرحلة الأولى إلّا القليل، فقد كان موجوداً هناك ببساطة، أمّا في المرحلة الثّانية، سيّما سنيّه العشرين من عمله حاكماً في سوريّا في عهد الخليفتين عمر بن الخطاب (634-644) وعثمان بن عفّان (644–656) فإنّ المصادر تنقل عدداً من المزاعم والقصص حوله، بعضها صحيح بلا شكّ _ على الأقلّ من حيث المضمون. ولدينا بالنّسبة للمرحلة الثّالثة كتلة ضخمة من المعلومات (**لم يصل إلينا أيّ منها بأيّ شيء يشبه شكله الأصليّ**) عن حربه الأهليّة مع عليّ، ولكن فقط بضع لحظات مُميّزة من خلافته التي استمرّت عشرين عاماً، وأمّا من حيث السّياسات والأحداث الملموسة، فقد قيل لنا الكثير عن وُلاة معاوية في العراق، ولكنّه أكثر ممّا قيل لنا عنه.

ونحن نعلم _ على سبيل المثال _ أنّ معاوية أرسل على الأقلّ حملة عسكريّة كبيرة واحدة كلّ عام إلى الأناضول البيزنطيّة أو على طول ساحل بحر إيجة، إذ يمثّل هذا التزاماً كبيراً بتوفير الموارد، وكان بالتّأكيد أكثر ما يهتمُّ به، لأنَّه إذا نجح في الاستيلاء على القسطنطينيّة وإنهاء الحكم

البيزنطيّ، فسيكون الخليفة لكلّ من قيصر ومحمّد _ كلاهما إمبراطور عالميّ ووصيّ على الوحي الأخير. بيد أنّ المصادر العربيّة لا تخبرنا شيئاً تقريباً عن هذه الحملات باستثناء أسماء قاداتها، ولا نعرف إلى أين ذهبوا أو ما هي أهدافهم المباشرة أو طويلة المدى، **لذلك يجب أن ننتقل إلى المصادر اليونانيّة (والسّريانيّة أحياناً)** التي تحمّل شعبها وطأة هذه الغارات، لكن حتّى هذه الرّوايات هي روايات مُقتضَبة ومربكة! وفي كثير من الأحيان متناقضة، وكُتبت _ مثل سائر النّصوص العربيّة _ على الأقلّ بعد قرن من حياة معاوية، وكانت مصادر معلوماتها في أحسن الأحوال غامضة.

كما إنّنا لا نعرف الكثير عن كيفيّة إدارة معاوية للشّؤون في قاعدته الرّئيسة؛ سوريّا، فقد **أتت به القوّات العربيّة السّوريّة إلى السّلطة**، وأبقته هناك، لكن كيف تعامل معها؟

يخبرنا الكُتّاب المسلمون بدرجة أقلّ عن كيفيّة تعامله مع الأكثريّة العظمى من رعاياه، الذين لم يكونوا مسلمين بل مسيحيّين ويهوداً وزرادشتيّين، وكلّ ما نعرفه يجب استخلاصه من مراجع متفرّقة في النّصوص السّريانيّة واليونانيّة، فقد كان معاوية معروفاً بين الكُتّاب السّريان بالاستقرار والعدالة والتّسامح، لكنّهم قدّموا القليل من الحقائق _ إن وُجدَت _ لدعم هذا الحكم.

أخيراً، بذل معاوية كلّ ما بوسعه _ أو هكذا أخبرنا الكُتّاب المسلمون _ لإخفاء فِكَرِه ودوافعه ومشاعره، فقد اشتهر بحنكته السّياسيّة المتجسّدة في صفة «الحِلم» وهي الكلمة التي من الأفضل فهمها أنّها «الصّبر على المساءة» وقد عقد معاوية مُشاوَرات واسعة النّطاق، وأصغى بإمعان، لكنّه لم يرفع يده، ويمكن أن يكون بليغاً، لكنّه يعتمد على الفطنة والسّخرية بدلاً من الخطاب المؤثّر المنسوب إلى خصمه عليّ بن أبي طالب. ولا يعرف أصدقاؤه ولا أعداؤه تماماً ما كان يفكّر فيه، حتّى فات الأوان لفعل أيّ شيء حيال ذلك.

**معاوية في عيون المسلمين اللّاحقين:**

أسهم الاحتياطيّ المحسوب لمعاوية _ بلا شكّ _ في مكانته الغامضة في المخيّلة الإسلاميّة، لكنّ هذه ليست سوى البداية. فالمشكلة الحقيقيّة هي أنّه لا يتناسب بدقّة مع التّصنيفات والقواعد الأخلاقيّة التي ابتكرها المسلمون لاحقاً لتقييم المكانة الدّينيّة لشخص ما _ في الواقع لقد أفسدهم _ ومن ثمّ لم يتمكّنوا أبداً من تحديد ما يجب أن يفعلوه به. ويجب الاعتراف بأنّه لم يكن هناك ازدواجيّة بالنّسبة إلى التجمّعَين الدّينيَّين والسّياسيَّين العريضَين؛ الخوارج والشّيعة، وقد كان معاوية بالنّسبة لهم رمزاً للشّرّ المُطلَق، ورجلاً عَمِلَ عن علم وسخرية لتدمير العهد الجديد الذي أقامه محمّد، ولإعادة العالم إلى الهمجيّة الغبيّة للجاهليّة؛ أي زمن ما قبل الإسلام.

لقد أدانه الخلفاء العبّاسيّون الذين أطاحوا بالسّلالة الأمويّة التي وضعها في السّلطة، وفعلوا كلّ ما في وسعهم لتشويه ذاكرتها، وتشويه نسله الأوّل علانية.

يقول أبو العبّاس السفّاح (749-754)، أوّل عبّاسيّ حدّد المسار في خطاب تولّيه الحكم في الكوفة:

تَبّاً تَبّاً لبني حَربٍ بن أميَّة وبني مروان![1] آثروا في مُدَّتهم وعصرهم العاجلةَ على الآجلة، والدَّار الفانية على الدَّار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنامَ، وانتهكوا المحارم، وغَشَوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وبسُنَّتهم في البلاد التي بها استلذّوا تُسربَل الأوزار، وتُجلبب الآصار، ومرحوا في أَعِنَّةِ المعاصي، وركضوا في ميادين الغَيّ جهلاً باستدراجِ الله، وَأَمْناً لمكرِ الله، فأتاهم بَأسُ الله بَياتاً وهُمْ نائِمون، فأصبحوا أحاديثَ، ومُزِّقوا كُلَّ مُمَزَّقٍ، فَبُعْداً للقومِ الظَّالمين![2]

وقد تكرّر القدح والذّمّ من هذا النّوع أكثر من مرّة في عهود خلفاء السّفّاح المباشرين؛ وخطّط الخليفتان المأمون (813-833) والمعتضد (892-902) لحملات عامّة مُمنهَجة لتشويه سمعة معاوية والعشيرة الأمويّة بأكملها، لا بوصفهم بالمنافقين والفاسدين والطّغاة الدّمويّين فحسب، بل حتّى بالمرتدّين، وذلك بعد مدّة طويلة من احتمال تهديد

(1) فرعا البيت الأموي، انظر ص 34-35.

(2) الطّبريّ، السّابع والعشرون، ص 155-156.

معاوية والأمويّين للسّلطة العبّاسيّة، ولم يمضِ أيّ خليفة قُدُماً في المشروع، لأنَّ التّداعيات السّياسيّة لم تكن مُتوقّعة، ولا شكَّ في أنَّ المراسيم غير المنشورة للمأمون والمعتضد كانت تتقصّد الأمويّين بقدر ما كانت ترمي إلى إعادة تنشيط الدّعم لسلالتهم المضطربة. ومع ذلك، اعتقد الخليفتان بوضوح في أنَّ الأمويّين سيكونون رموزاً ذوات مصداقيّة وتأثير للبديل الفاسد والملحد للحكم العبّاسيّ مهما كانت عيوبه.

إنَّ التّهم الواردة في هذه الوثائق تلخّصُ بدقّةٍ أكثرَ الانتقادات إلحاحاً وأهمّيّة لمعاوية بوصفه شخصاً وحاكماً، ويكشف مرسوم المعتضد (نسخة معدّلة من مرسوم المأمون) الآتي:

لعن الله الأمويّين شفاهاً من خلال رسوله وبطريقة الكتاب المُقدّس، فقال: «... وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً»[1] (ولا اختلاف بين أحد في أنّه أراد بها بني أميّة). ولمّا رأى النّبيّ أبا سفيان يركب حماراً مع معاوية وابنُه يزيد يسوق به قال: لعن الله القائد، والرّاكب والسّائق!

وقد دعا رسول الله بمعاوية (لنسخ آيات الوحي التي نزلت حديثاً كما تلاها النّبيّ) لكنّه رفض ذلك لأنّه كان يأكل، فقال النّبيّ: لا أشبع الله

(1) سورة الإسراء من الآية (60).

بطنه. فبقي لا يشبع! ونتيجة لذلك كان معاوية جائعاً على الدّوام، وقال: والله ما أترك الطّعام شبعاً، ولكن إعياء!. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يطلعُ من هذا الفَجِّ رجل من أمّتي يُحشر على غير مِلَّتي. فطلع معاوية.

وهناك رواية في أنّ رسول الله قال: إذا رأيتم مُعاويةَ على منبري فاقتلوهُ.

ثمّ هناك الحديث المَرفوع[1] الشّهير الذي يعود إلى النّبيّ: إنَّ معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها؛ ينادي: يا حنّان يا منّان. يُعطى الجواب، «الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»[2].

وهناك أيضاً خوضه للحرب ضدَّ أفضل وأقدم وأحسن المسلمين، عليّ بن أبي طالب من خلال ادّعائه الكاذب، وطعنه في حقّ عليّ الشّرعيّ؛ لقد حارب أنصار عليّ بضلاله وغوايته، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه، وهو «أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ»[3] وجحود دينه... حاول معاوية إغواء أهل الغباوة، ويموّه على أهل الجهالة بمكره وغِيّه... مُؤثِراً العاجلة، كافراً

---

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: الحديث المرفوع واحد من أسماء أنواع الأحاديث النّبويّة، وهو ما نُسب إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من قول أو فعل. ويأتي الحديث المرفوع في المرتبة الثّانية من أنواع الأحاديث النّبويّة.]

(2) سورة الأنعام من الآية (91).

(3) سورة التّوبة من الآية (32).

بالآجلة، خارجاً من رِبقة الإسلام، مستحلاً للدّم الحرام، حتّى سَفَكَ في فتنته وعلى سبيل ضلالته ما لا يُحصى عدده من خيار المسلمين.

ثمَّ ما أوجب الله له به اللّعنة، قَتْلُهُ مَنْ قَتَلَ صَبْراً[1] من خيار الصّحابة والتّابعين وأهل الفضل والدّيانة مثل: عمرو بن الحمق وحجر بن عديّ، فيمن قتل من أمثالهم.

وزيادة على ذلك، هناك حال معاوية المزدرية لدين الله، ويتجلّى ذلك من خلال دعوته عباد الله إعطاء البيعة لابنه يزيد وليّ عهده، ذلك المتكبّر الخِمّير، صاحب الدّيوك والفهود والقرود، وأخذه البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسّطوة والوعيد والإخافة والتّهديد والرّهبة، وهو يعلم سفهه ويطّلع على خبثه ورَهَقه، ويعاين سكره وفجوره وكفره.[2]

أمّا بالنّسبة للسُّنّة الذين لم يكونوا جزءاً من المؤسّسة العبّاسيّة (وشكّلوا، في النّهاية أكثريّة المسلمين) فيجب أن تكون الأحكام أكثر دقّة،[3] حتّى

---

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: قَتْلُ الصّبر: يُقال: صبرْتَ القتيلَ على القتل. إذا حبسْتَه عليه لتقتله. وكلّ من قُتل في غير حرب، ولا غفلة، ولا غدر فهو مقتول صبراً.]

(2) الطّبريّ، المجلّد الثّامن والثّلاثون، ص 53-58.

(3) كما يتضح من خلال الطبري (ت 923)، والبلاذري (ت 892)، وابن عساكر (ت 1176)، فقد بدت مسألة مكانة معاوية الدينية مقنعة حتى في وقت متأخر من الجدل الحماسي للمقريزي في أوائل القرن الخامس عشر، كتاب « the Book of Contention and Strife concerning the Relations between the Banu Umayya and the Banu Hashim» (ترجمة كليفورد إدموند بوزورث، 1980).

إنّ الخليفة العبّاسيّ المنصور (754-775) احترم فطنة معاوية السّياسيّة ومواهبه بعدّه مؤسّس إمبراطوريّة؛ ولكن المنصور اشتُهر بعد ذلك بأنّه صعب المراس وغير عاطفيّ.

وأخيراً لم يكن معاوية عند **السُّنّة صاحباً للنّبيّ فحسب، بل كان أيضاً ناسخاً للقرآن ومن المجموعة الصّغيرة التي وثّق محمّد في تلقّيها إملاء الآيات التي تلقّاها**. وبصرف النّظر عن ذلك، كان بين محمّد ومعاوية قرابة رحم بعيدة، فقد ارتبط معاوية _ مثل جميع أسلافه الأربع على عرش الخلافة: أبو بكر[1]، عمر، عثمان، علي _ في حالته مع محمّد بالزّواج وذلك من خلال أخته أمّ حبيبة، التي تزوّجها الرّسول بعد أن احتلّ مكّة عام (630). وكان الخليفة الثّاني عمر بن الخطّاب قد عيّنه حاكماً لسوريّا (نحو عام 639) وثبّته في ذلك المنصب الخليفة الثّالث عثمان، وقد أظهر معاوية مواهبه الإداريّة والسّياسيّة والعسكريّة الهائلة لمدّة عشرين عاماً بحلول الوقت الذي أصبح فيه خليفة، وأعاد السّلام والاستقرار إلى مجتمع مسلم عذّبته خمس سنين من الحرب الأهليّة.

ونجد على الجانب الآخر من الكرّاسة، أنّ **الذّاكرة التّاريخيّة السّنّيّة** تذكر أنّ عشيرة معاوية عارضت محمّداً بشدّة، وضايقت أتباعه خلال سنيّهم المكّيّة، وقادت الحرب لطرده من المدينة، وكان والد معاوية، أبو

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: أبو بكر كنيته. واسمه: عبد الله بن أبي قحافة.]

سفيان، زعيم المُعارَضة خلال السّنين ما بين معركة بدر سنة (624) ودخول محمّد مكّة سنة (630). وعلى الرّغم من أنَّ معاوية انضمَّ في آخر الأمر إلى قضيّة الرّسول، إلّا أنَّ أكثرهم اعتقدوا في أنّه لم يفعل ذلك إلّا بعد دخول الرّسول إلى مكّة عام (630) وهو تحوّلُ مصلحة إن وُجد حقّاً. **وقد كان محمّد _ لحسن حظّ الأمويّين _ رجلاً سعى إلى المُصالحَة مع أعدائه بمُجرّد أن اعترفوا بمكانته نبيّاً**، وزيادة على ذلك، فقد كان محمّد يفيد من المَوهبة أينما وجدها، ومن هنا جاء قراره باستخدام معاوية ناسخاً لآيات الوحي الجديد الذي تلقّاه وأملاه؛ وتقول الرّوايات إنَّ معاوية كان واحداً من ثمانية عشر فقط (سبعة عشر رجلاً وامرأة واحدة) من أفراد قبيلة قريش المتعلّمين. ولم يكن زواج محمّد من أمّ حبيبة عن حبّ، بل كان تحالفاً سياسيّاً مع العشيرة الأمويّة التي لا تزال كبيرة وذات نفوذ، وقد يوحي تعيين عمر لمعاوية بعد وفاة محمّد حاكماً لسوريّا بأنَّ الخليفة الجليل وجده موثوقاً به. ومع ذلك، لم يصل المنصبُ إليه إلّا بعد وفاة ثلاثة مُعيّنين سابقين في تتابع سريع خلال وباء الطّاعون، وهو ما جعله أعلى قائد عسكريّ في فلسطين.

ويمكن القول باختصار: يمثّل تعيينه حلاً مُخصّصاً لأزمة قيادة عاجلة، وقد بقي معاوية في منصبه في عهد عثمان؛ ويعود هذا _ جزئيّاً _ إلى أنَّ هذا الخليفة ابن عمّ معاوية من الدّرجة الثّانية، فقد حاول _ عثمان _ تعزيز سلطته على الأقاليم من خلال تعيين أعضاء من عشيرته حكّاماً. أخيراً،

رأى الإجماع السّنّيّ أنّه إذ أعاد معاوية السّلام للمسلمين، فقد كان بطلاً رئيساً في الحرب الأهليّة التي حطّمت المجتمع أوّلاً، وقد كان معاوية في الواقع أثار عمداً المرحلة الثّانية من هذا الصّراع برفضه الاعتراف بعليّ خليفة شرعيّاً للنّبيّ ما لم يسلّم عليٌّ قتلة عثمان إليه من أجل القصاص.

جميع هذه الخيوط منسوجة بشكل جيّد معاً في قصّتين قصيرتين لكنّهما مُميّزتان في كتاب «أنساب الأشراف» وهو خلاصة تاريخيّة وسيرة ذاتيّة ضخمة ألّفها أحمد بن يحيى البلاذريّ (ت 892م) تقريباً في الوقت ذاته الذي صدر فيه مرسوم الخليفة المعتضد. وتؤكّد إحدى القصّتين _ التي تذكر كلامَ ناقدٍ ورعٍ _ على دنيويّة معاوية وعدم اكتراثه بالدّين؛ وتشرح القصّة الأخرى المنسوبة إلى معاوية نفسه ببضع كلمات مُقتضَبة سببَ فوزه في ذلك اليوم على عليّ.

وكما سنرى، فإنّه كثيراً ما تكون الأحكام المتعلّقة بسلوك وشخصيّة معاوية أكثر تعقيداً ولكنَّ هذين التّقريرين بمباشرتهما وبساطتهما، يُعدّان مكاناً جيّداً للبدء.

قال معاوية لابن الكوّاء اليشكريّ: نشدتك اللّهَ كيف تَعلَمُني؟ فقال: أمَا إذ نشدتني الله فإنّي أعلمك واسع الدّنيا ضيّق الآخرة، قريب الرّشا[1]

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: الرَّشا بفتح الرّاء: حبل الدّلو في البئر. والرِّشا بكسر الرّاء جمع رِشوة.]

بعيد المدى، تجعل الظّلمة نوراً والنّور ظلمة.[1]

قال معاوية: أُعِنتُ على عَليّ بكِتْمَانِي سِرّي ونَشرِهِ أسرارَهُ، وبطاعةِ أهل الشَّام لي ومعصية أصحابِهِ لهُ، وبذلِي مالي وإمساكِهِ إيَّاهُ.[2]

وقد ذهبت الازدواجيّة السُّنّيّة حول معاوية إلى أبعد من عمله السّياسيّ المريب في بعض الأحيان، فقد كانت أيضاً مسألة ثقافة؛ وقد كان المجتمع الإسلاميّ بحلول القرن التّاسع، **يقدّر التّقوى والمعرفة الدّينيّة قبل كلّ شيء ويعدّهما مقياساً لقبول سلوك النّاس وتقييمه** (على الرّغم من وجود مساحة كبيرة للشّعر وأدب البلاط والخطابين العلميّ والفلسفيّ) وقد كان معاوية في هذا السّياق إشكالاً! وكان في التّقوى الرّسميّة والسّلوك الشّخصيّ مقبولاً بما فيه الكفاية (على الأقلّ لم يُثر أيَّ فضيحة عامّة) لكن لم يُنظر إليه أبداً بوصفه متعلّماً دينيّاً أو حتّى ملتزماً بقضيّة؛ وكثير التَّفكير بما يتجاوز المستوى السّطحيّ

لقد آمن بالله، وكان محقّاً علانية في احتفالاته لا أكثر، وقد عدّه كثيرون غير مبال بالإسلام، ولحظ بعضهم منه تعاطفاً مؤيّداً للمسيحيّين على نحو مثير للرّيبة، وكان شغفه كبيراً بالفولكلور والشّعر في الجزيرة العربيّة

---

(1) البلاذريّ، «أنساب الأشراف»، LDV، 6-7.

(2) البلاذريّ، «أنساب الأشراف»، LDV، 7.

القديمة، وهي الثّقافة التي كان يعرفها حين كان صبيّاً قبل مجيء الإسلام، وكان الخليفة الأخير إلى جانب مروان بن الحكم (684-685) الذي بلغ سنَّ المراهقة قبل أن تطرح دعوة محمّد كلَّ شيء للتّشكيك، ومن ثمَّ فهو يمثّل الجسر البشريّ بين النّظام القديم للفضيلة الرّجوليّة (المروءة) والتّضامن القبليّ (العصبيّة) والنّظام الجديد للإسلام.

## المصادر لسيرة حياة معاوية: كيف نعرف ما ندّعي معرفته؟

ليست هناك من حاجة لمُراجَعة تفصيليّة لمصادر سيرة حياة معاوية في كتاب من هذا النّوع، لكن من المهمّ الوصول إلى تصوّر حول ما نفعله وما لا نعرفه! ومن الأفضل البناء من المُستنَدات الأصليّة _ اليوميّات والخطابات وسجلاّت الضّرائب والمراسيم والنّقوش وما إلى ذلك _ جنباً إلى جنب مع الآثار والأعمال الفنّيّة والعملات المعدنيّة وما أشبهها. وللأسف، لم يأتِ إلينا سوى القليل جدّاً من هذا النّوع؛ وتوجد كمّيّة كبيرة من العملات الفضّيّة والبرونزيّة التي سُكّت في عهد معاوية، لكنّها لا تحمل اسمه، وهي تستخدم التّصاميم البيزنطيّة والفارسيّة من عصر ما قبل الفتح، وهناك عدد قليل من البرديّات اليونانيّة والقبطيّة من مصر ومن نيسانا في النّقب؛ لكن لم تصلنا أيّ وثائق مكتوبة من أيّ نوع في شكلها الأصليّ من المُحافَظتين الرّئيستين في سوريّا (دمشق وحمص) أو العراق أو إيران، ونحن نعلم أنَّ مثل هذه الوثائق أُنتجت بغزارة؛ لأنَّ المصادر الأدبيّة تشير إليها باستمرار،

ولكن نادراً ما تقدّم نسخاً أو حتّى مُلخّصات عنها، **والأسوأ من ذلك، أنَّ الوثائق القليلة التي يزعمون أنّهم أعادوا استنساخها مشكوك في صحّتها!**

أمّا بالنّسبة للمعالم الأثريّة، فمن الواضح أنَّ معاوية لم يكن بانياً عظيماً، وما بناه قد اختفى في الغالب، وقد كان يوجد سدّ بالقرب من بلدة الطّائف في الحجاز، يشهد عليه أحد النّقشين للبقاء من عهده، ويأتي النّقش الثّاني من حمّام (حمّام جدارا)، بالقرب من طبريّا الذي بناه أحد ولاة معاوية نيابة عنه، وتشير اكتشافات العملات المعدنيّة والأدلّة الأسلوبيّة إلى أنّ مُجمّعاً سكنيّاً (خربة الكرك) على بحر الجليل (بحيرة طبريّا) إلى الجنوب مباشرة من طبريّا؛ ربّما تمَّ بناؤه ليستخدمه معاوية من حين لآخر، ويقال: إنّه أقام قصراً في دمشق إلى الجنوب مباشرة من السّياج الجداريّ الضّخم، الذي أصبح فيما بعد المسجد الأمويّ؛ (موقع هذا القصر الآن هو في سوق صاغة الفضّة، والذي يعود بشكله الحاليّ إلى أواخر العصر العثمانيّ) وقد شُيّد هذا «القصر» من الطّوب والخشب فقط، لكنّه فشل في إثارة إعجاب السّفير البيزنطيّ الذي جاء إلى هناك في سبعينيّات القرن السّادس عشر؛ حيث قال: أمّا أعلاه فللعصافير، وأمّا أسفله فللفئران.[1]

أخيراً، كان يوجد مسجد خشبيّ في جبل الهيكل في أورشليم، حيث

(1) فينبار باري فلود، «The Great Mosque of Damascus» (2001)، ص 147.

يوجد المسجد الأقصى الآن على وجه التّقريب، ولكن من المُحتمَل أنَّ الخليفة عمر قد بناه بعد مدّة وجيزة من استسلام أورشليم للمسلمين (نحو سنة 638) وقد أثار هذا المسجد تعليقاً متعالياً ومُقتضَباً فقط من الحاجّ الفرنجيّ (أركولف) حيث قال عن عمر: الذي لم يكن وطنه الجزء الأكثر زراعة وازدهاراً في العالم.

**وقد أشار (جيريمي جونز) خلال زيارته الأراضي المُقدّسة في عام (682) إلى أنَّه لدينا القليل جدّاً من الأدلّة الأثريّة من أوائل الإسلام قبل عام (690) ويجادل في أنّه من غير المُحتمَل أن نكتشف المزيد.**[1]

وحتّى لو لم نتّفق مع الأسباب التي دفعت (جونز) لتفسير هذه الفجوة، فإنّ ما يبدو أنّ سِجِلّ معاوية قد أكّد تشاؤمه؛ وبالنّسبة للرّجل الذي حكم إمبراطوريّة تمتدّ من تونس إلى الحدود الشّماليّة الشّرقيّة لإيران؛ فإنّ ذلك يمثّل مجموعة ضئيلة من المحسوبيّة على نحو مدهش! ربّما كان على العراق أن يظهر أكثر من سوريّا، ومن الممكن على سبيل المثال، أن يكون زياد بن أبيه الذي خدم لعدّة سنين نائباً لمعاوية في الشّرق، قد أقام المسجدين الجامعين المهيبين في البصرة والكوفة، وكلاهما، كما قيل لنا، شُيّدا من الآجرّ، وكان لهما سقوف مُسطّحة عالية محمولة على أعمدة طويلة

---

(1) جونز، «Archaeology and the History of Early Islam: The First Seventy Years»، JESHO، 46 (2003)، ص 411-436.

من الحجر الجيريّ، وتمّ تزيينهما بسخاء. وعلى كلّ حال، كان زياد _ كما سنرى لاحقاً _ يتمتّع بحرّيّة هائلة في العمل، ويجب أن يكون قد استخدم عائدات الإقليم الخاصّة به لبناء هذين النّصُبين، ولا يوجد سبب للاعتقاد في أنّ معاوية كان له أيّ تدخّل في ذلك.

ونحن نضطرّ في ظلّ نقص المصادر الأثريّة والوثائقيّة إلى الاعتماد على المؤلّفات الأدبيّة _ حوليّات، وأدب رؤيويّ، وعظات، وشعر، ومُختارات خطب _ كتبها مسلمون ومسيحيّون بلغات مختلفة (العربيّة واليونانيّة واللّاتينيّة والسّريانيّة والأرمنيّة وحتّى الجورجيّة) وقد تبدو هذه المُؤلّفات كبيرة الحجم، ولكنّها مليئة بالمشكلات، ذلك أنّ **ثلاثة نصوص فقط** معاصرة أو شبه معاصرة لمعاوية هي:

**النّصّ الأوّل:** حوليّة أرمنيّة منسوبة إلى الأسقف (سيبيوس) ربّما كُتبت في سبعينيّات القرن السّادس التي تنتهي في بداية خلافة معاوية، وعند (سيبيوس) أشياء مثيرة للاهتمام ليقولها عن ظهور الإسلام؛ من مثل الفتوحات العربيّة الأولى، والصّراع الثّلاثيّ الأركان خلال أربعينيّات وخمسينيّات القرن السّادس بين البيزنطيين والعرب والعشائر الأرمنيّة للسّيطرة على المُرتفَعات الأرمنيّة. ومع ذلك، فإنّه في أيّام معاوية، كانت أرمينيا منطقة حدوديّة نائية بعيدة عن مركز السّلطة الإسلاميّة، ومن ثمّ كان لدينا مُجرّد لمحات عن السّياسات الدّاخليّة المُعقّدة للإسلام.

**النّصّ الثّاني**: حوليّة قصيرة كتبها الرّاهب النّسطوريّ (جون بار بينكاي) نحو عام (690) في مدينة سنجار في بلاد ما بين النّهرين (وهي أيضاً مكان على الحافّة)؛ ويصوّر الفصل الأخير منها ظهور الإسلام، وإنّ رأي (جون) تجاه مؤسّس الإسلام وتعاليمه **رأي استرضائيّ** على نحو مثير للدّهشة! ويقدّم شهادة متوهّجة عن السّلام والتّسامح اللّذين جاء بهما معاوية، ومع ذلك، فهو مهتمّ بالدّروس الدّينيّة والأخلاقيّة التي يلقّنها التّاريخ أكثر من اهتمامه بالنّاس والأحداث؛ وهناك الكثير من الوعظ والقليل من التّفاصيل.

**النّصّ الثّالث**: بضع صفحات ممّا يُسمّى «الحوليّة المارونيّة» التي تنتهي في عام (664) تسهم في تقديم لمحات محيّرة عن **علاقات معاوية** مع مسيحييّ سوريّا إلى جانب تفاصيل الحروب البيزنطيّة وإشارة مُقتضَبة إلى فشل الإصلاح النّقديّ. وتُختتم شهادة القرن السّابع (أي المعاصرة) حول عهد معاوية بمرجعين عابرين: بضعة أسطر حول المسجد الأقصى الأوّل في القدس من الحاجّ الفرنجيّ (أركولف) (نحو سنة 682) وجملة في سيرة حياة قدّيس (محفوظة في مخطوطة جورجيّة)؛ يبدو أنّ نسختها اليونانيّة الأصليّة تعود إلى نحو عام (692).

ينتج عن أوائل القرن الثّامن باللّغة السّريانيّة زوج من قوائم الملوك، واحدة من عام (705) والثّانية من عام (724) وتتناول القائمة الأولى

فقط من التّاريخ الإسلاميّ عهد محمّد وخلفائه حتّى تصل إلى معاوية، حين تصبح أكثر دقّة؛ وعلى النّقيض من ذلك، تتوافق القائمة الثّانية على نحو وثيق مع التّواريخ الإسلاميّة للخلافة المبكرة؛ وقد تكون ترجمة من أصل عربيّ، وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنّه بحلول بداية حكم هشام (724-743) كان المسلمون قد طوّروا تسلسلاً زمنيّاً مُوحّداً للخلافة.

ويأتي النّصّ الأكثر أهمّيّة من مكان مدهش _ **حوليّة لاتينيّة مُقتضَبة** تمَّ تأليفها في إسبانيا خلال منتصف القرن الثّامن (تُعرف عادة بـ:«Hispano_Arab Chronicle») التي تغطّي ما يصل إلى عام (724). ومن الواضح أنّها اختصار لحوليّة أطول فُقدت الآن، وكانت قد كُتبت في مكان ما من شرق البحر الأبيض المتوسّط، وأفضل تقدير هو فلسطين؛ لأنّها تتحدّث عن شؤون المسلمين أكثر من الشّؤون البيزنطيّة، وتتّخذ وجهة نظر مؤيّدة للأمويّة على نحو ملحوظ في السّياسة الإسلاميّة، وأينما كُتبت، فقد كانت مواتية بشكل ملحوظ للإسلام والمسلمين _ لكنَّ الكتابات المسيحيّة الأولى حول الإسلام والفتوحات العربيّة كثيراً ما تظهر آراء مُعقّدة تجاه الدّين الجديد؛ فقد يصاب أولئك الكُتّاب بالحيرة والارتباك، لكنّهم ليسوا دوماً عدائيّين بأيّ حال من الأحوال.

لم أقل شيئاً حتّى هذه اللّحظة عن الكتابات المعاصرة باللّغتين العربيّة

واليونانيّة؛ ذلك لأنّه لا يوجد أيّ منها! أو على الأقلّ لا شيء وصل إلينا في أيّ شكل يشبه شكله الأصليّ، وبالنّسبة إلى اليونانيّة، فقد خسر واحد من أعظم التّقاليد التّاريخيّة صوته بين عامي (630) و(800) فقد لحظ أحد المفسّرين أنَّ التّاريخ الرّومانيّ كان من المُفترض أن يكون تاريخ الانتصار الإمبراطوريّ، وأنَّ هناك القليل من الانتصارات التي تمَّ تسجيلها بعد سنة (630)، ولا يوجد لدينا روايات بيزنطيّة عن التّغيّرات الهائلة التي طغت على إمبراطوريّتهم وحوّلتها في القرنين السّابع والثّامن إلّا في «Short History of the Patriarch Nicephorus» (828)، و_ الأكثر أهمّيّة بالنّسبة إلى موضوعنا _ « Chronography of Theophanes Confessor» (814)، وقد استند كلا الرّجُلين إلى مصادر سابقة لهذه الحقبة، لكن تمَّ إذابة هذه المصادر تماماً في نصوصها بحيث يصعب معرفة ماهيّتها، ويوجد استثناء واحد بالغ الأهمّيّة: فمن الواضح أنَّ (ثيوفانيس) أو (تيوفان) المعرّف يشترك في مصدر مُشترك مع كاتبَين آخرَين مستقلّين تماماً هما (أغابيوس المنبجيّ) نحو سنة (940) وهو أسقف لأفاميا يكتب باللّغة العربيّة؛ والحوليّة السّريانيّة لرجل كنيسة مومو فيزي (ديونيسيوس التّلمحريّ) (ت سنة 828) ولم ينج عمل (ديونيسيوس) في شكله الأصليّ أيضاً، ونحن نعرف ذلك من خلال الاستشهادات الطّويلة لاثنتين من الحوليّات المتأخّرة هما حولية (ميخائيل السّريانيّ) (سنة 1199) وحوليّة سريانيّة مجهولة من سنة (1234) كان

مصدرها المُشترك على الأرجح مُنجِّماً مسيحيّاً متعدّد اللّغات في بلاط الخليفة المهديّ هو (ثيوفيلوس الرّهاويّ) (ت نحو سنة 780) وقد كتب (ثيوفيلوس) تاريخاً باللّغة السّريانيّة يركّز على التّاريخ السّياسيّ للإسلام والعلاقات البيزنطيّة الإسلاميّة، بدءاً من نحو سنة (600) إلى سنة (754) وقد تُرجم تاريخه بعد وفاته بمدّة وجيزة إلى اللّغة اليونانيّة (ربّما في دير فلسطينيّ) وأُضيفت معلومات جديدة تغطّي المدّة حتّى سنة (780)، وكتب (ثيوفيلوس) بعد نحو قرن من حكم معاوية، ولكن إذا كانت روايته تمثّل خطّاً تاريخيّاً مسيحيّاً سريانيّاً مستقلاًّ، فسيكون لدينا مُراجَعة قيّمة للتّقاليد الإسلاميّة الموالية المحفوظة في المصادر العربيّة؛ ومع ذلك، قد يكون (ثيوفيلوس) استند إلى المصادر العربيّة الإسلاميّة في جزء كبير من روايته، لكنّه رغم ذلك، يساعدنا في معرفة مكان التّقاليد العربيّة في مُنتصَف القرن الثّامن؛ فإذا استخدم مصادر عربيّة من سوريّا بدلّا من العراق، فسيكون لدينا أيضاً نافذةٌ على وجهة نظر يتمّ قمعها بالكامل تقريباً في المصادر الإسلاميّة الموجودة.

ماذا يخبرنا الكُتّاب المسلمون عن معاوية؟[1] يجب أن أقضي بعض الوقت في هذه المسألة! لأنَّ الكتابات الإسلاميّة تشكّل صورتَنا عن معاوية، وإنّ المادّة العربيّة ضخمة، لكنّها _ في شكلها الحاليّ _ متأخّرة

---

(1) للحصول على مناقشات مفصلة حول التأريخ الإسلامي المبكر، انظر البيبليوغرافيا تحت: Humphreys (2)، Donner and Robinson _ لكن لا يوجد نهاية لها.

جدّاً، فقد تمّ تأليف أقدم الأعمال التي لدينا بعد نحو قرنين من حياة معاوية، وكان التّقليد التّاريخيّ العربيّ في زمن وفاة معاوية في عام (680) أي بعد نصف قرن من محمّد؛ لا يزال شفاهيّاً بأكثريّة كبيرة؛ فقد تمّ تذكّر النّاس والأحداث، لكن لم يتمّ تسجيلها. وزيادة على ذلك، فإنّه كثيراً ما يتمّ تذكّرهم بطرق أدّت إلى القصّة الأفضل، إذ سجّل المنعطف البلاغيّ الذّكيّ أقوى المسائل ضدّ المعارضين الشّخصيّين والقبليّين واللّاهوتيّين للرّاوي، ولم تُعطَ الأمانة دوماً للحقائق المرصودة والأعلى قيمة (على الرّغم من أنّها قد تكون كذلك في بعض الأحيان) ولم توجد في حياة معاوية سيطرة مركزيّة أو رسميّة على هذا التّقليد ولا حتّى رواية رئيسة مُتّفَق عليها بوجه عامّ، فقد كان لكلّ تجمّع قبليّ، ولكلّ دائرة دينيّة، ولكلّ مجلسٍ حاكمٍ طرائقهم الخاصّة في الحديث عن العقود السّتّة المضطربة من سنة (622) إلى سنة (680) التي شهدت صعوداً مُظفّراً للإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة، ومن ثمّ الصّراع الدّاخليّ المرير الذي مزّقها إلى أشلاء.

وقد بدأ عدد من العلماء في الجيل الذي أعقب معاوية مُحاوَلة جمع وتنظيم دوّامة الرّوايات والقصص _ المتغيّرة باستمرار _ وكان الدّافع وراء جهودهم موت الجيل الذي رأى هذه الأشياء بصورة مباشرة، وممّا لا شكَّ فيه أيضاً من خلال فوضى واضطرابات الحرب الأهليّة الثّانية (680 –692) التي هدّدت بتدمير ذكريات واضحة عن بدايات

الإسلام، ولقد حاول أولئك العلماء تحديد الأحداث والشّخصيّات الرّئيسة للعقود السّتّة الأولى (طبعاً، بداية بالنّبيّ) وبناءَ روايات متماسكة وأصيلة حول هذه الأحداث والأشخاص، وكان بإمكانهم التّحدّث إلى شهود العيان النّاجين من الفتوحات، والحرب الأهليّة الأولى (656-661) وعهد معاوية بوصفه خليفة (660-680) لكن كان عليهم إيجاد معنى لهذه القصص على قدر استطاعتهم، **وقد أعادوا تشكيل الموادّ التي جمعوها وفقاً لولاءاتهم ومُعتقداتهم السّياسيّة والدّينيّة بشكل رئيس؛ وذلك من خلال التّركيز على أشياء مُعيّنة وإهمال أخرى والجمعِ بين القصص التي كانت في الأصل منفصلة تماماً وما إلى ذلك؛ وقد قرّر هؤلاء العلماء أيّ أحداث قليلة كانت مهمّة حقّاً ويجب تذكّرها، وأيّها مكتوب عليه النّسيان من بين عدد لا يُحصى من الأحداث التي وقعت، وقد قرّروا أيّ الأشخاص يجب أن تعرفهم الأجيال اللّاحقة وأيّهم لا يهمّ!** وعلى الرّغم من ذلك، إذا كان عملهم قد وصل إلينا في شكله الأصليّ، فلن نكون في وضع صعب للغاية، لكنَّ ذلك لم يحدث _ بل ما حدث كان عكس ذلك تماماً. فقد جُمعت أكمل الرّوايات حول معاوية وزمنه في الكتاب الحوليّ الكبير لأبي جعفر الطّبريّ (ت سنة 923) و_ بدرجة متساوية تقريباً من حيث الحجم الكبير _ سير أعلام نبلاء الإسلام الذي جمعه أحمد بن يحيى البلاذريّ (ت سنة 892) وقد أمضى الرّجلان حياتيهما المهنيّتين في بغداد، ويستند كلاهما بشكل شبه كامل

إلى التّقاليد التّاريخيّة للعراق والمدينة، (ومع ذلك، أدرج البلاذريُّ بعض الموادّ السّوريّة _ المعلومات الإداريّة والعسكريّة _ في عمله الرّئيس الآخر «فتوح البلدان» وهو مسح شامل للفتوحات العربيّة)؛ حيث تميل التّقاليد العراقيّة والمدنيّة بوجه عامّ إلى تفضيل عليّ والعبّاسيّين، ومعاداة الأمويّين؛ على أنه وُجدت استثناءات مهمّة؛ يُحسب لهما أنَّ كلا العالِمَين يحاولان تضمين آراء متباينة.

وبعد ذلك بوقت طويل، قام العالِم الدّمشقيّ ابن عساكر (ت سنة 1176) بتضمين سيرة طويلة جدّاً لمعاوية في مجموعة سيرته الضّخمة عن أعيان وعلماء مدينته الأمّ، وإنَّ طريقة ابن عساكر في تنظيم هذه السّيرة تجعل من الصّعب جدّاً على المؤرّخ الحديث استخدامها! لكنّه يحافظ على عناصر من التّقاليد السّوريّة التي كانت تنظر إلى معاوية على نحو أفضل بكثير من العراقيّين، ولم يلتقط هؤلاء العلماء الثّلاثة قصصهم من الهواء جنباً إلى جنب مع كتّاب آخرين من القرن التّاسع وأوائل القرن العاشر (على سبيل المثال: الدّينوريّ واليعقوبيّ والمسعوديّ) الذين كتبوا كتب تاريخ مهمّة ولكنّها مُختصَرة، وكان مصدرهم المباشر مجموعة كبيرة من الكتابات التي جُمعت بين عامي (780) و (840) وكان عند الطّبريّ وزملائه المؤرّخين طرقهم وبرامجهم الخاصّة، والتي _ وفقاً لها _ سينتقون ويختارون الأشياء التي يريدون نقلها أو تجاهلها، ومع ذلك، فإنّ اقتباساتهم أو إعادة صوغهم، يمكننا _ بقدر ما _ التّحقّق منها، وهي دقيقة بشكل معقول.

لا يمكننا أن نكون واثقين تماماً من كيفيّة كتابة «جيل القرن الثامن أعمالَه، ومع ذلك، فمن المؤكّد أنّ أفراده نظروا إلى المصادر بوصفها ـ مادّة بلاستيكيّة ـ يمكن صوغها في العديد من الأشكال، ولم ينظروا إليها بوصفها مجموعة من النّصوص الثّابتة التي اضطرّوا إلى نسخها أكثر أو أقلّ حرفيّاً؛ وكلّما اقتربنا من زمن حياة معاوية (الذي يرجع إلى بدايات الإسلام) كلّما أصبحت قاعدتنا أقلّ أماناً. ومن الواضح أنَّ أعمال الجيل الأوّل من الجمع والتّحرير التّاريخيّ الجادّ بين سنتي (680) و(720) خضعت لإعادة تشكيل بالجملة في القرنين الثّامن وأوائل القرن التّاسع، ويمكن أن تشير الأبحاث الأكثر دقّة فقط إلى العناصر التي قد تعود إلى المجموعات الأولى التي كُتبت نحو سنة (700).

وعلى الرّغم من أنَّ عمليّة خلق النّظام من الفوضى بدأت خلال الحرب الأهليّة الثّانية؛ أي خلال العقد الذي تلا وفاة معاوية، إلّا أنّها لم تتبلور حتّى أواخر العصر الأمويّ وأوائل العصر العبّاسيّ، ويمكننا تمييز خلافة هشام (724-743) بأنّها اللّحظة التي تشكّلت فيها أخيراً رواية سرديّة عظيمة لأصول الإسلام والخلافة المبكرة، ومع ذلك، **تمزّقت هذه النّسخة الأمويّة وأُعيد تركيبها تحت حكمِ العبّاسيّين الأول** (تقريباً من سنة 750 إلى سنة 809).

وقد صاغ جيل القرن الثّامن النّصوص التي استخدمها الطّبريّ

ومعاصروه والتي نقرؤها الآن داخل إطار ظهور السّرد العبّاسيّ الكبير، إذ لا تتقيّد جميعها بالتّوجه العبّاسيّ _ الأمر عكس ذلك تماماً _ لكنّها كُتبت كُلّها استجابة لها.

وتوجد صعوبة في العثور على معاوية الحقيقيّ! ويمكننا تحديد بعض الحقائق الثّابتة حول مسيرته العامّة، وكثيراً ما تكون التّواريخ والتّفاصيل محلَّ جدل في المصادر، لكنَّ مثل هذه الخلافات ليست مفاجئة، سيّما بالنّسبة للمراحل السّابقة من سيرته، إذ كان على الذّاكرة والرّوايات الشّفاهيّة أن تحلَّ محلَّ الوثائق الرّسميّة والتّقويم الثّابت، ويبدو أنَّ هناك بعض الأعمال الرّسميّة (على سبيل المثال، التّعيينات في المناصب) أو الأحداث الحاسمة التي تَذكّرها الجميع على الرّغم من أنَّ الأماكن والأحوال والأوقات المُحدّدة أصبحت ضبابيّة (على سبيل المثال، لم يتمكّن الطّبريّ من تحديد تاريخ مواجهة بَحريّة حاسمة «معركة ذات الصّواري» وقد استقرَّ خطأً على سنة 651-652 بدلاً من السّنة الصّحيحة 655) وتتجسّد بطريقة مماثلة العديد من النّقاشات حول شخصيّة معاوية، ودوافعه، والتزامه الدّينيّ وما إلى ذلك؛ تتجسّد في حوادث أو نزاعات رئيسة مُعيّنة، مثلاً: صُلح الحديبيّة، أو معركة صفّين، أو اعتقال وإعدام حجر بن عديّ. ويبدو لي من غير المُحتمَل كلّيّاً أن تكون الأحداث ذاتها مُستنبَطة من أصل كاذب على الرّغم من أنَّ جميع أنواع القصص والأقوال وجذاذات من الشّعر مُثبتة عليها، وبدلاً من ذلك، أصبحت هذه الأحداث مسائل

**محوريّة للنّقاش** ورواية القصص والخطب والشّعر؛ لأنّها الحوادث التي كانت خير تمثيل لحياة معاوية وسيرته على وجه التّحديد، وقد لا نكتشف أبداً ما حدث حقّاً _ ليس بالتّفصيل _ غير أنّه يمكننا تحديد الأطراف المَعنيّة والقضايا المطروحة، على سبيل المثال، ماذا حدث في معركة صفّين في صيف سنة (657) فنحن لا نعرف على وجه اليقين _ فكلّ جزء من الشّهادات التي في حوزتنا **قابل للاتّهام** _ لكن نستطيع القول: إنَّ معاوية كان قادراً على استغلال نتائج القضيّة برمّتها لصالحه، وأنَّ سلطة عليّ انهارت تدريجيّاً.

لكن على مستوى مختلف، ماذا عن مئات القصص حول شخصيّة معاوية؟

تكاد هذه القصص لا تكون مُؤرّخة أو موضوعة في سياق أوسع، ومن يدري إن كانت واحدة منها قد حدثت حقّاً؟ ومع ذلك، فإنَّ الصّورة التي يرسمونها مُفعَمة بالحيويّة على نحو ملحوظ ومن قطعة واحدة، وتبدو متّسقة تماماً مع نجاحه الملحوظ بصفته حاكماً.

ومن المنطقيّ الاعتقاد في أنَّ هذه القصص لا تخبرنا بشيء عن الآراء المتحيّزة للأجيال اللّاحقة فحسب، بل أيضاً عن كيفيّة ظهور معاوية لمعاصريه، كما إنّها تسمح لنا برؤية الحكمة السّياسيّة التي كان يُعتقد

في أنّها تتجسّد في فنّ الحكم اليوميّ الذي مكّنه من التّغلّب على العديد من العقبات والاحتفاظ بالسّلطة لمدّة طويلة. وأخيراً، تظهر لنا هذه القصص رجلاً يتمتّع بصفات إنسانيّة ونقاط ضعف _ شهيّة واسعة للطّعام وللجنس (وإن كان ذلك بالضّبط أكبر إلى حدّ ما) ومعرفة وحبّ عميق للشّعر الجاهليّ (ما قبل الإسلام) والحاليّ، وذوق لمُطابَقة الدّهاء مع مسؤوليه وخصومه (الذين هزموه في بعض الأحيان) والتّفاني _ ربّما الكثير جدّاً لابنه يزيد.

ويَظهَرُ معاوية في سنيّه الأخيرة برغبة في أن تتحكّم به زوجته، وكرم منه تجاه المتوسّلين وأصحاب الالتماسات، ونتيجة تدّين معّين، إن لم يكن تقوى عميقة؛ يظهر بوصفه رجلاً يجسّدُ فضائل الجاهليّة، ولكن ليس له مكانة خاصّة في تقوى المسلمين، إنّه يحترم الإسلام، ولكن ليس هذا ما يحرّكه.

## سيرة معاوية: مُخطّط كرونولوجيّ

تُوصف القصّة بأيّ شيء إلّا الوضوح! لذا قد يكون من الأفضل أن تبدأ بمُوجز حول «الحقائق الثّابتة» المراوغة لسيرة معاوية، وهناك العديد من مسائل عدم اليقين حتّى في هذا التّسلسل الزّمنيّ للعناصر الرّئيسة، والذي يمثّل ما تمَّ الاتّفاق عليه بوجه عامّ، ومهما كان هذا الأمر هشّاً، إلّا أنّه سيساعدنا على البدء.

جدول رقم 1:

| التّسلسل الزّمنيّ | سيرة معاوية |
|---|---|
| 607-595 | مولود في مكّة، ابن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شَمس، وزوجته هند بنت عُتبة بن عبد شَمس (الذي يصبح قريبها من الدّرجة الأولى حين نحرّكه إلى زوجها درجة واحدة). |
| 630-628 | يقبل الإسلام عن طيب خاطر أو غير ذلك في زمن ما بين صلح الحديبيّة ودخول محمّد مكّة. |
| 638-634 | خدم في جيش المسلمين في سوريّا بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح وعمرو بن العاص وأخيه الأكبر يزيد بن أبي سفيان. |
| 639-638 | وفاة كبار القادة (بطاعون عمواس) بمن فيهم يزيد المُسمّى قائداً ووالياً في الأردن (الجليل الحديث وشرق الأردن)، سوريّا باستثناء حمص (الحدود الشّماليّة في ذلك الزّمن) أو سوريّا باستثناء فلسطين. |
| 640 | احتلال قيساريّة، آخر معقل بيزنطيّ على السّاحل السّوريّ الفلسطينيّ والعاصمة القديمة لمُقاطَعة فلسطين الأولى بعد حصار طويل من قِبل القوّات تحت قيادة معاوية. |
| 644 | اغتيال الخليفة عمر وخلافة عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة ابن العمّ الثّاني لمعاوية. يؤكّد عثمان أنَّ معاوية كان والياً في سوريّا (دمشق والأردن) ويتمّ في غضون سنتين أو ثلاث سنين دمج جميع الأقاليم/ المناطق العسكريّة السّوريّة الأربع (الأجناد) تحت سلطته. |

| التسلسل الزمني | سيرة معاوية |
| --- | --- |
| 649-648 | أسّس أوّل أسطول إسلاميّ عربيّ، واستخدمه لغزو قبرص وفرض الجزية على الجزيرة. |
| 655 | معركة ذات الصّواري أو فينيقيّة قبالة السّاحل الجنوبيّ الغربيّ لتركيّا الحديثة؛ يقضي أسطول المسلمين تحت قيادة معاوية على نظيره البيزنطيّ، ويؤسّس تفوّقاً بحريّاً إسلاميّاً في شرق البحر المتوسّط وبحر إيجة. |
| 656 | تمرّد القوّات المصريّة والكوفيّة على الخليفة عثمان الذي استُشهد جرّاء اقتحام مهاجمين لمنزله، وأعلن المتمرّدون المدعومون من خصوم عثمان في المدينة عليّاً بن أبي طالب (ابن عمّ النّبيّ) خليفة. |
| 656 | معركة الجمل (قرب البصرة) بين عليّ وثلاثة من الصّحابة الذين رفضوا مُبايعة عليّ على الخلافة، هم عائشة (أرملة النّبيّ وابنة الخليفة الأوّل أبي بكر) ونسيبها طلحة بن عبيد الله، والزّبير بن العوّام (ابن عمّ النّبيّ من جهة أمّه، وابن أخته من زوجة الرّسول الأولى خديجة)؛ قتل طلحة والزّبير وإعادة عائشة إلى المدينة في عزلة. يقف معاوية الذي ما يزال حاكماً لسوريّا بعيداً عن هذا الصّراع لكنّه يرفض قسم الولاء لعليّ. |
| 657 | تدهور الحال بين عليّ ومعاوية إلى صراع مفتوح، معركة صفّين؛ نتيجة غير حاسمة أعقبتها مُفاوَضات عقيمة لحلّ الصّراع. |
| 660 | أعلن خليفة في القدس من قِبل قوّاته. |

| سيرة معاوية | التسلسل الزمني |
|---|---|
| اغتيال عليّ على يد متعصّب دينيّ (معاوية غير متورّط)، وأصبح معاوية المطالب الوحيد بالخلافة، ثمَّ حثَّ الابن الأكبر لعليّ والخليفة المفترض «الحسن» على الاعتزال. | 661 |
| عيّن المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة. | 661 |
| تعيين زياد بن سُميّة (أو ابن أبيه) والياً على البصرة. | 665 |
| موت المغيرة بن شعبة، وتعيين زياد حاكماً على الكوفة والبصرة (في الواقع، والياً على العراق وإيران). | 668 |
| اعتقال وإعدام حجر بن عديّ المؤيّد للعلويّين، وهو ناشط في الكوفة، وموت زياد بن سُميّة والي البصرة والكوفة سنة 673. | 671 |
| بلغت الحملات ضدَّ بيزنطة ذروتها في حصار بحريّ للقسطنطينيّة ولكن تمّ حلّه من دون تحقيق أيّ أهداف رئيسة. | 788-674 |
| تعيين نجل زياد عبيد الله حاكماً على البصرة، وهو المنصب الذي سيشغله (مع مهارات متفاوتة ونجاح) لمدّة عشر سنين. | 675 |
| تعيين يزيد بن معاوية وليَّ عهد للخلافة. | 676 |
| وفاة معاوية (الذي حُدّد عمره من قبل جهات مختلفة بـ73 و75 و78 و80 و83 و85 سنة) في دمشق، ثمّ خلافة ابنه يزيد. | 680 |

# الفصل الثاني
# العقود الثلاثة الأولى
# (632-600)

## الوسط المكّي:

وُلد معاوية نحو عام (600) في مدينة مكّة التي تقع على بعد اثنين وسبعين كيلومتراً تقريباً شرق ساحل البحر الأحمر في حوض واسع عند سفوح سلسلة من التّلال؛ يمكن للمرء من خلالها النّفاذ إلى الهضبة الدّاخليّة لشبه الجزيرة العربيّة.

وقد كانت مكّة في كثير من الأمور والأشياء غير سارّة إلى أبعد الحدود! فقد كان الجوُّ حارّاً جدّاً في أشهر الصيف، ولا تدعم إمداداتها للمياه الزّراعة أو البساتين؛ وكانت مثل هذه المياه تأتي من عدد قليل من الآبار المتناثرة. ومن السّخرية أنّها تعرّضت من التّلال المجاورة لفيضانات متقطّعة، ولكنّها شديدة للغاية. ومن **الأمور الغامضة بعض الشّيء السّؤال عن كيف ومتى أصبحت مكّة مركزاً للاستيطان الدّائم،** لكن من المُحتمَل أنّه لم يحدث حتّى أواخر القرن الخامس الميلاديّ،

ووفقاً لتقاليد المسلمين، استمدّت مكّة دخلها من مصدرين، الأوّل تجارة القوافل مع روابط باليمن في الجنوب، وسوريّا ومصر في الشّمال، والثّاني عملها بوصفها مركزاً للحجّ إلى البيت الحرام _ الكعبة _ ويجادل العلماء المعاصرون بشدّة في نطاق وطبيعة هذين الأمرين، إذ يصوّر بعضهم مكّة أنّها مزيج من فينيسيا [البندقيّة] وسانتياغو ودي كومبوستيلا؛ ويقرّ آخرون بوجود سوق إقليميّة صغيرة ومزار محلّيّ فقط. ومن جهتي وعلى سبيل الجدل، سألتزم بتوخّي الحذر في تفسير تقاليد المسلمين؛ لأنّ هذا يكفي لشرح من كان معاوية ومن أين أتى.

سيطرت على مكّة قبيلة واحدة (قريش) والتي استقرّت هناك خلال القرن الخامس، **وكان السّكّان الآخرون عبيداً أو زبائن أو تحت حماية أفراد القبيلة.** وكانت مثل قريش مثل جميع القبائل العربيّة، فقد كانت مُكوّنة من عدّة مجموعات أصغر، وربّما كانت في الأصل مزيجاً من العشائر المنفصلة التي استقرّت في مكّة وحولها خلال القرن الخامس، ومع ذلك، فإنّه بحلول أوائل القرن السّادس، أصبحت هذه العشائر تنظر إلى نفسها فروعاً لسلالة نبيلة واحدة، والتي ادّعت وجود سلف مُشترك بعيد؛ أي فِهْر، وقد تفاوتت عشائر قريش في هذا الوقت تبايناً كبيراً في الحجم والثّروة والجاه، وكانت إحدى التّجمّعات الرّئيسة أبناء بيت عبد مناف الذين تشعّبوا إلى عشيرتين متنافستين، هاشم، وعبد شمس، وكان لهاشم _ أو على الأقلّ بعض فروعها _ عمل مهمّ في

سدانة الكعبة وفي توفير المياه للحجّاج الزّائرين. ووفقاً للتّقاليد، وُلد النّبيّ محمّد في هذه العشيرة في عام (570) وعلى الرّغم من أنَّ العديد من بني هاشم كانوا يعملون في التّجارة بين مكّة وسوريّا (بمن في ذلك محمّد نفسه في سنيّه الأولى) إلّا أنّ العشيرة ككلّ كانت تعيسة الحظّ نوعاً ما؛ إذ يمكن لها أن تدّعي النّسب النّبيل ولكنّ تأثيرها محدود في شؤون مكّة فقط.

وكان بنو عبد شمس مختلفين تماماً، حيث يصوّرهم التّقليد عشيرة من أغنى وأقوى العشائر في مكّة. **وينتمي والد معاوية _ أبو سفيان _ إلى عائلة مرموقة داخل هذه العشيرة، هي بنو أميّة الذين استمدّوا ثروتهم من التّجارة البرّيّة إلى سوريا، وكانت والدته _ هند بنت عتبة _ امرأة قويّة الإرادة وأحياناً شرسة، وكانت أيضاً من عبد شمس.** وعلى الرّغم من أنّ الأمويّين لم يكن لهم عمل مباشر في شعائر العبادة والحجّ المرتبطة بالكعبة، إلّا أنّهم أفادوا بالتّأكيد من وجودها، وعادة ما تكون مراكز الحجّ حُرُماً محميّة ومُحصّنة إلى حدّ كبير من الهجوم أو الحرب؛ على الأقلّ من أولئك الذين تكون مقدّسة عندهم، وتجذب الكثير من النّاس خلال موسم الحجّ، الأمر الذي يجعلها أماكن جيّدة ليتجمّع فيها التّجّار؛ فعادة ما تكون مراكز الأضرحة في جميع أنحاء العالم أماكن ذات نشاطات تجاريّة.

وتوضّح الأدلّة الأثريّة أنّ السّلع الفاخرة للعالم الخارجيّ قد عبرت غرب المنطقة العربيّة لقرون عديدة، وقد سلكت التّجارة المربحة في القرون السّابقة بين الهند أو شرق أفريقيّا وبين حوض البحر الأبيض المتوسّط سلسلة مُعقّدة من الطّرق من خلال المنطقة العربيّة، ومرّت هذه التّجارة بحلول القرن الأوّل قبل الميلاد من خلال البحر الأحمر، ووصلت من هناك برّاً إلى سوريّا عن طريق البتراء، أو بدلاً من ذلك، وصلت إلى الخليج الفارسيّ وتوجّهت برّاً إلى سوريّا عن طريق تدمر، وإنّ الأدلّة على هذه التّجارة في أواخر القرن السّادس شحيحة، وقد تمّ التّشكيك في مُشارَكة مكّة، وكانت التّجارة إلى الهند.وشرق أفريقيّا من خلال البحر الأحمر والتي كانت تدعم البتراء ذات يوم (مثل مكّة، كانت البتراء خارج الطّريق الرّئيسة وتتمتّع بجوّ صعب) قد تضاءلت بدرجة كبيرة بحلول القرن الرّابع؛ مع أنّها لم تختفِ أبداً. وقد يكون جزء كبير من تجارة التّجّار المكّيّين (كما تقترح باتريشيا كرون) تجارة إقليميّة في السّلع الأساسيّة، مثل: الجلود والأقمشة الخشنة، وقد **شهد أواخر القرن السّادس وأوائل القرن السّابع أوقاتاً مضطربة في عالم شرق البحر الأبيض المتوسّط**، لكنّ التجارة بين اليمن وسوريّا استمرّت إلى حدّ ما، وكان التّجّار المكّيّون على اتّصال منتظم بكلا الطّرفين، حتّى لو لم يكونوا وسطاء رئيسين.[1] وكانت الأمور خلال

(1) إنّ الرأي السّائد ذات مرّة بأنّ مكّة كانت فينيسيا البحر الأحمر صدر لأوّل مرة من خلال هنري لامنس، لكن تمّ دَحْض تفسيره من قِبل باتريشيا كرون، «Meccan

العقد الأوّل أو نحو ذلك من حياة معاوية، تسير على الأرجح كما كانت منذ عقود.

وتزداد أهمّيّة مكّة أكثر بوصفها مركز عبادة في دائرة الضّوء، ويذكر القرآن أنّ ثلاث إلهات تشكّل جزءاً من العبادة المكّيّة _ اللّات والعُزَى ومناة _ وغيرها من الآلهة (على سبيل المثال، هُبل) مذكورة في أماكن أخرى، وهذه الآلهة مُوثّقة جيّداً في بانثيون السّهول السّوريّة وشمال غرب المنطقة العربيّة من القرن الأوّل قبل الميلاد في البتراء وتدمر والعديد من الأماكن الأخرى، وكان للصّور المشغولة بإتقان عمل ضئيل في العبادة العربيّة التّقليديّة؛ حتّى في المراكز المتأثّرة بشدّة بالثّقافة الرّومانيّة والهلنستيّة، مثل البتراء، وكانت الكتل الحجريّة مع عيون وأفواه منحوتة بشكل تخطيطيّ أحياناً، كافية لتمييز حضور المعبود، كما إنّه ليس من الواضح ما إذا كانت «الإلهات» الثّلاث ما زالت تُعدّ إلهات بالمفهوم الكامل بحلول الزّمن الذي وُلد فيه معاوية (انظر هوتنج)، وقد كان التّوحيد بأشكاله المسيحيّة واليهوديّة المختلفة مألوفاً في أكثر مناطق شبه الجزيرة العربيّة وبالتّأكيد في الحجاز، وتشير القراءة المتأنّية للقرآن إلى أنّ اللّات والعُزَى ومناة ربّما يُنظر إليها أنّها ملائكة أو نوع آخر من الكائنات الإلهيّة الثّانويّة.

---

«Trade and the Rise of Islam»، على الرّغم من أنّ استنتاجاتها الخاصّة لا تزال مثيرة للجدل، أمّا نقد روبرت سيمون فهو نقد أكثر محدوديّة، لكنّه لا يزال نقداً مهماً فيما يتعلّق بلامنس، «Meccan Trade and Islam».

ويشير التّحليل النّهائيّ، إلى أنّ مكّة حتّى لو لم تكن أورشليم أو روما، إلّا أنّ التّقاليد المتعلّقة بقدّسيّة الكعبة قويّة جدّاً ومنتشرة بحيث لا يمكن تجاهلها، ويمكننا أن نكون على ثقة بأنّ مكّة كانت على الأقل مركزاً إقليميّاً للحجّ؛ وقد تبالغ المصادر في أمور من هذا النّوع لكنّها لا تختلق.[1]

استمرّت الحياة خلال العقدين الأوّلين من حياة معاوية كما عرفها هو ووالداه كما كانت دوماً، ولم يحدث أيّ تأثير كبير حتّى حين بدأ قريبه البعيد محمّد الذي يكبره بثلاثين عاماً تقريباً في التّصريح علناً نحو عام (614) بأنّه كان يتلقّى وحياً من الإله الواحد الحقيقيّ، متحدّياً نظام قريش الدّينيّ بأكمله، وشاجباً ثروة وغطرسة العائلات الرّائدة في المدينة. وكان الأعضاء القياديّون في عشيرة محمّد _ بنو هاشم _ منقسمين بجدّيّة حول رسالته، وجاء عدد قليل جدّاً من أتباعه الأول من تلك المجموعة، وقد تعهّد عمّه أبو طالب، كما تقضي القوانين القبيليّة القديمة بحمايته من الأذى أو هجوم أفراد من عشائر قريش الأخرى، لكن حتّى هو لم يقبله نبيّاً، وقد أثار محمّد خلال سنيّه المكّيّة حتّى عام (622) جلبة وتسبّب في الكثير من الاضطراب، لكنّه لم يكتسب سوى عدد قليل من الأتباع (أقلّ من 200 بمن في ذلك النّساء والأطفال) وذلك وفقاً للرّوايات

---

(1) يقترح كل من هوتنج («The Idea of Idolatry and the Emergence of Islam») وكرون، من دون توضيح كامل، بعض الاستنتاجات المتطرّفة، لكن نقدهم للآراء التقليديّة مقنع.

الإسلاميّة. ويمكن القول باختصار: إنّه لم يشكّل أيَّ خطر على النّظام القائم.

وقد تبّرأت منه عشيرة هاشم بصفة أساسيّة بعد وفاة زوجته خديجة وعمّه أبي طالب عام (619) ولم يكن أيّ من أعضائها القياديّين على استعداد لحمايته من أعدائه أو السّعي للثأر له إن قُتل، وقد كان من دون حماية زعماء عشيرته هدفاً معقولاً لأيّ مهاجم، وقد هرب وأتباعه سرّاً في عام (622) إلى واحة يثرب الواقعة على بعد نحو (400) كيلومتر إلى الشّمال، ومنذ ذلك الحين، سيّما بعد عام (624) بدأت الأمور تتغيّر، لكنّها على ما يبدو عادت إلى طبيعتها في عام (622) إلى مكّة وقريش.

## سياسات علم الأنساب: سبب أهمّيّة سلالة معاوية

يجب لفهم من كان معاوية، وكيف تولّى السّلطة، وكيف حكم؛ أن نفهم النّسب والهياكل القبليّة للمنطقة العربيّة القديمة، لأنّ ادّعاءه الخلافة نشأ داخل هذه الهياكل، وقد بدأ صعوده إلى السّلطة بوصفه ممثّلاً للعشيرة الأمويّة حيث طالبوا بالقصاص من قتلة قريبهم عثمان، وقد خلفه رجال من هذه العشيرة كخليفة حتّى النّهاية العنيفة للسّلالة في سنة (750) ومع ذلك، فإنّ هذا البيان يحجب بقدر ما يكشف! لأنّ العائلات والعشائر في المنطقة العربيّة القديمة كانت (كما هي اليوم) كيانات مُعقّدة، وكانت علاقاتهم مع بعضهم بعضاً (وما تزال) أكثر تعقيداً.

كان المجتمع في المنطقة العربيّة زمن شباب معاوية مُنظّماً في سلالات أنساب متميّزة؛ حيث عرّف أعضاء كلّ سلالة أنفسهم بأنّهم يدّعون النّسب من سلف مُشترَك، والذي كان عادة (لكن ليس دوماً) ذكراً على الرّغم من أنَّ السّلالات يتمّ تتبّعها دوماً من خلال سلسلة نسب الذّكور، وقد تمّ تضمين السّلالات ذات الصّلة الوثيقة داخل سلالة أكبر مدّعية وجود سلف مُشترَك بعيد، وجُمعت هذه السّلالات الأكبر معاً في صورة واحدة أكبر مدّعية وجود سلف مُشترَك أكثر بُعداً عاش في زمن يتجاوز الذّاكرة تقريباً. وبناء على ذلك، يمكن للفرد تحديد علاقته بالعشرات أو حتّى المئات من الآخرين؛ وستكشف مُحادَثة قصيرة بين رجلين حول

أسلاف كلّ منهما بسرعة ما إذا كان ينبغي أن يعدّوا أنفسهم حلفاء أو خصوماً أو أعداء بالدّم أو غير ذي صلة بحياة بعضهم بعضاً.

ومن المألوف التّمييز بين المستويات المختلفة لهذه السّلالات بمُصطلَحات مثل: «أهل البيت» أو «قافلة» أو «العشيرة» أو «القبيلة» **لكن ليس لهذه الكلمات معانٍ مُحدّدة أو متّسقة بوضوح**، ولا ينطبق هذا أيضاً على الكلمات العربيّة التي استخدمها علماء الأنساب في العصور الوسطى أو رجال القبائل العربيّة. وكما لحظ المؤرّخ العظيم ابن خلدون (ت عام 1406) منذ زمن بعيد، فإنّ القرابة تُحدّد بالعرف والمصلحة السّياسيّة أكثر من رابطة الدّم، وتعتمد العضويّة في سلالة مُعيّنة على فنّ التّذكّر والنّسيان بقدر ما تعتمد على الحقيقة الموضوعيّة، إلّا أنّ عدداً قليلاً من السّلالات الأكبر والأعرق كانت مستتبّة ومستقرّة، وتندمج الأصغر منها معاً باستمرار، فتختفي ثمّ تعاود الظّهور مع تغييرات غير متوقّعة في أسماء الأسلاف الذين سُمّوا بأسمائهم. ومع ذلك، فإنّ القرابة والنّسب كانا الفئتين اللّتين قسّمت بها قبائل المنطقة العربيّة القديمة (مثل قبائل العصر الحديث) نفسها إلى وحدات سياسيّة واجتماعيّة.[1]

وقد تبدو التّعميمات من مثل هذا النّوع معقولة، لكنّها مُوجَزة على نحو رهيب، غير أنّ أحداث سيرة معاوية، والدّوافع والمقاصد التي دفعته

---

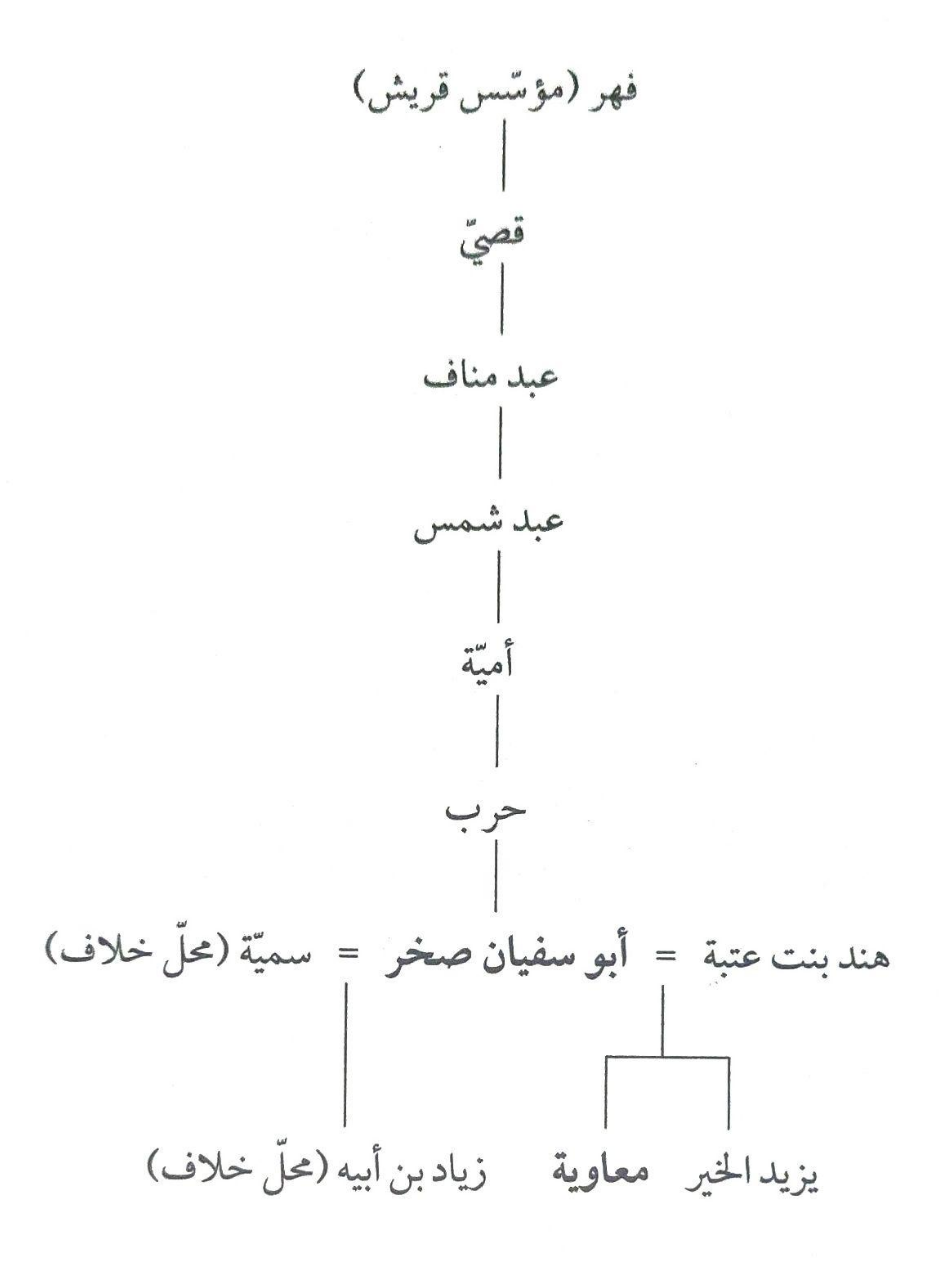
(1) انظر الملاحظة في «Contemporary Bedouin society»: إيمريس بيترز.

مُشفّرة بوضوح في سلسلة نسبه، وهذه السّلسلة هي المفتاح لفهم الكثير ممّا فعله ولماذا فعله، ويمكننا أن نبدأ من خلال تتبّع سلسلة أسلاف معاوية خمسة أجيال إلى جدّه الأكبر عبد شمس، الذي كان المؤسّس المُفترض لأكبر سلالة متماسكة سياسيّاً ينتمي إليها معاوية.

كانت الدّرجة الأدنى والأكثر تماسكاً هي الأسرة المباشرة، أبناء أب واحد وزوجاتهم وأطفالهم، وكان المؤسّس في حال معاوية أبا سفيان، صخراً بن حرب، وأهمّ أولاده ابناه يزيد ومعاوية، وابنته أمّ حبيبة، وهم وذرّيّاتهم معروفون ببني حرب (والد أبي سفيان) أو السّفيانيّين، ولم يبق ليزيد من سلالته أحد على قيد الحياة، لكنّ معاوية ترك عدّة أشخاص، وخلفه أحدهم (يزيد آخر) بوصفه خليفة.

وعلى الرّغم من الثّورات السّياسيّة وتقلّبات الزّمن، إلّا أنّ السّفيانيّين احتفظوا بمكانة مرموقة في المجتمع السّوريّ لمدّة (200) عام، حيث قدّموا اسم (السّفيانيّ) لشخصيّة رؤيويّة غامضة في الفولكلور الإسلاميّ.

**جدول رقم 2: سلالة معاوية**



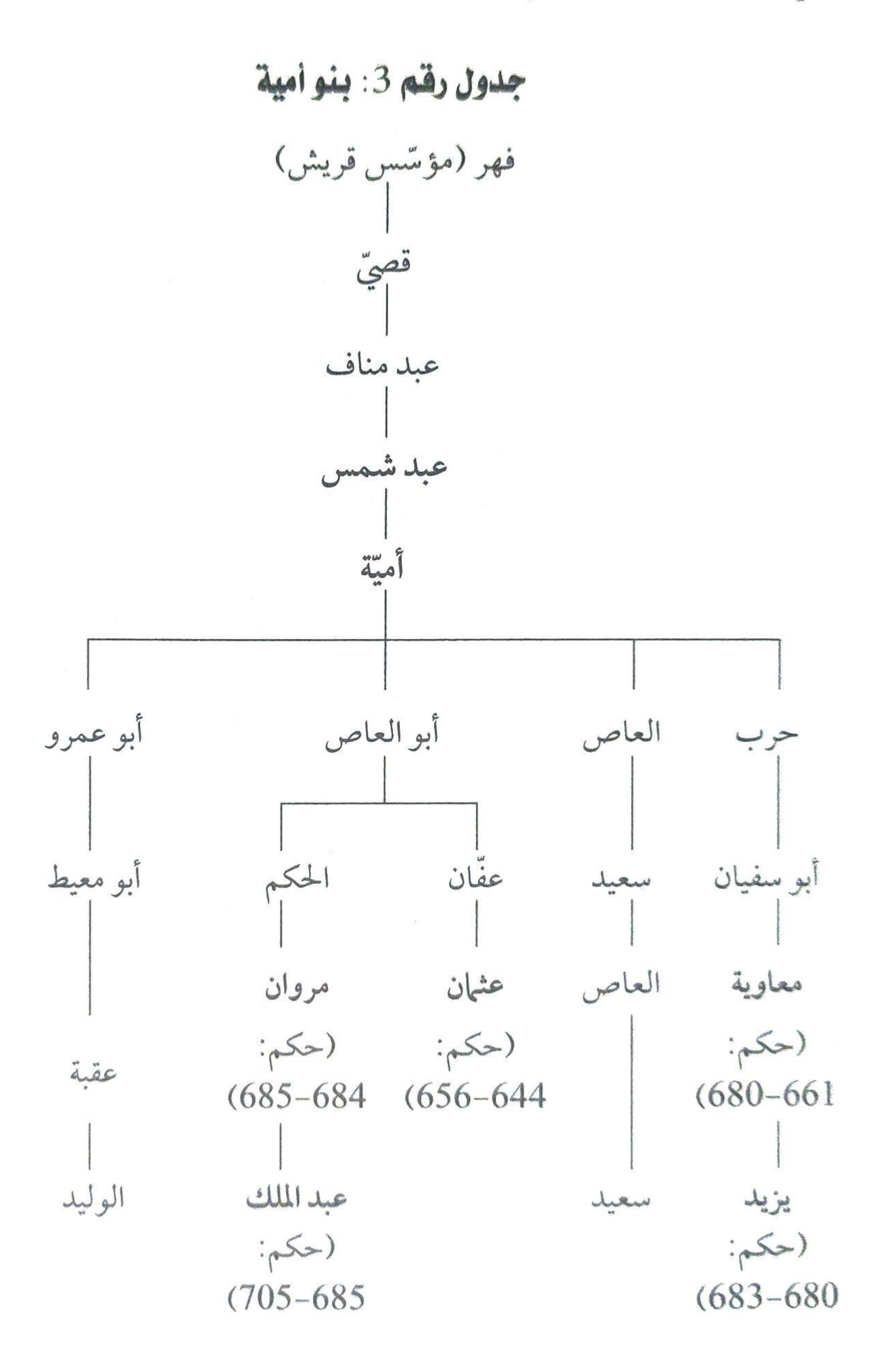

وتجسِّدُ أمّ حبيبة العمل المهمّ _ ولكن الغامض _ للبنات، فقد تزوّجت من النّبيّ محمّد في نحو عام (628) وهذا ما وفّر لها صلة سياسيّة مهمّة بينه وبين أسرتها، وظلّت الابنة كاملة العضويّة في عائلتها؛ بمعنى أنّها كانت دوماً ابنة والدها من كونها زوجة زوجها، لكنّها عاشت في منزل زوجها، وسيتمُّ احتساب أيّ أطفال أنجبتهم منه (على الرّغم من عدم وجود أيّ

أطفال في حالة أمّ حبيبة) جزءاً من سلالته، وقد تكون الرّوابط الأسريّة على الجانب الأنثويّ من خلال أمّ أو زوجة أو ابنة مهمّة جدّاً في شبكة العائلة من التّحالفات السّياسيّة والاجتماعيّة، لكنَّ هذه الرّوابط تلاشت بعد جيل؛ وكان النّسب الأبويّ في المقابل جزءاً ثابتاً من هويّة الشّخص.

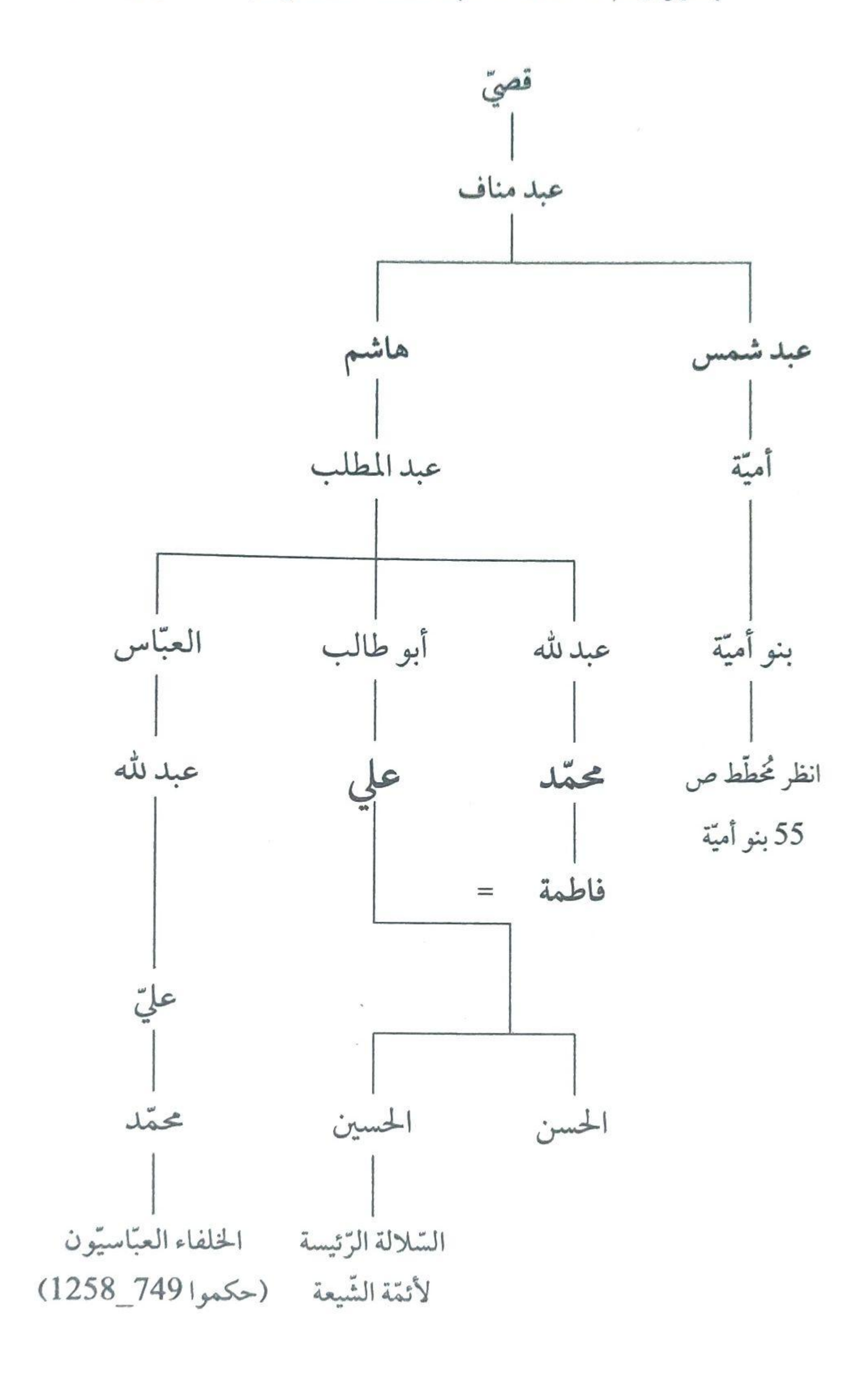
وعادة ما يعطي جدُّ أبي سفيان (أميّة الجدّ الأكبر لمعاوية) اسمه للمجموعة التّالية على درجات، بنو أميّة أو الأمويّين. (انظر الجدول، بنو أميّة، ص 55).

**ولا تشتمل هذه المجموعة على أبي سفيان ونسله فحسب، بل تشتمل أيضاً على سلالة ثانية كان لها عمل مركزيّ في التّاريخ الإسلاميّ المبكر**؛ هي أبناء أبي العاص بن أميّة (كان أبو العاص أخا حرب) وكان لأبي العاص حفيدان صارا خليفتين، هما الخليفة الثّالث عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة، الذي أدّى اغتياله إلى اندلاع الحرب الأهليّة الأولى وانقسام المجتمع الإسلاميّ حتّى يومنا هذا، ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة (الخليفة 684-685) الذي أعاد تأسيس السّلطة الأمويّة، واحتفظ أحفاده تحت اسم بني مروان أو المروانيّين بالخلافة حتّى عهد مروان الثّاني بن محمّد (744-750) واستولى المروانيّون الباقون على السّلطة في إسبانيا حتّى بعد كارثة (749-750) وحكموا هناك لما يقرب من ثلاثة قرون (من 756 حتّى 1030) وكما يظهر الرّسم البيانيّ، كان معاوية ابن العمّ

الثّاني لعثمان ومروان الثّاني.



**جدول رقم 4: سلالات عبد مناف: عشائر عبد شمس وهاشم**



ويمكن في بعض الحالات نقل اسم النّسب جيلاً ذهاباً وإياباً، ويُطلق على الأمويّين أحياناً اسم بني عبد شمس والد أميّة؛ **لأنّ هذا الاسم يرمز إلى انقسام سياسيّ حاسم في قبيلة قريش.** وعبد شمس أخو هاشم، وهاشم هو سلف السّلالة التي أنجبت النّبيّ محمّداً، وإنّ ادّعاء بني هاشم بقداسة خاصّة تجاوز النّبيّ، فقد كان ابن عمّه الأوّل عليّ بن أبي طالب الخليفة الرّابع والمؤسّس غير المُتوقّع للإسلام الشّيعيّ؛ في حين أنتجت سلالةٌ أخرى الخلفاءَ العبّاسيّين الذين حملوا اللّقب (إن لم يكن دوماً السّلطة) من سنة (749) إلى سنة (1258) وفي فرعهم الظّل في القاهرة حتّى عام (1517).

إنَّ تاريخ بني هاشم هو إلى حدّ كبير تاريخ الإسلام في العصور الوسطى.

وقد كان نسل بني هاشم بدءاً من إعلان محمّد أنّهُ نبيّ خصوماً أشدّاء، وأعداء ألدّاء أحياناً لأحفاد عبد شمس! ويُرجِع التّقليدُ هذا التّنافسَ إلى عصور ما قبل الإسلام حين تنافس بنو عبد شمس وبنو هاشم على الصّدارة في مكّة، وأصبح بنو هاشم بعد مجيء الإسلام **السّلالة المُقدّسة** لا محالة، بينما كان بنو عبد شمس موصومين _ على نحو لا يمكن إصلاحه _ بأنّهم أعداء الله ورسوله.

يربط عبدُ مناف، والد هاشم وعبدِ شمس بين السّلالتين؛ ومنه يعود

النّسب إلى فهر الجدّ شبه الأسطوريّ ومؤسّس قبيلة قريش. ومن المألوف في الأعراف القبليّة ـ مثل ما هي الحال في قصص سفر التكوين لإبراهيم ولوط أو يعقوب وعيسو ـ أن تُنسب النّزاعات بين شعبين يدّعيان نسباً مُشتركاً إلى الخلافات بين الإخوة أو أبناء العمومة أحياناً في الماضي البعيد، وتناسب عمليّة فصل الطّرق بين ابني عبد مناف ـ عبد شمس وهاشم ـ هذا الشّكل.

كان الأمويّون عائلة واحدة فقط في علاقتهم ببني هاشم، وكانوا يتألّفون من أربع سلالات متميّزة، أنجبت اثنتان منها خلفاء هم بنو حرب أو السّفيانيّون (معاوية وابنه يزيد) وبنو أبي العاص (عثمان وابن عمّه مروان ونسل مروان حتّى نهاية السّلالة). ويمكنهم بالطّريقة المعتادة للأنساب وثيقةِ الصّلة من التّعاون ضدَّ الغرباء؛ ولكن كان هناك بعض التّنافس الدّاخليّ، سيّما بين المروانيّين والسّفيانيّين، وربّما كان هذا التّنافس موجوداً دوماً (كان فقط في طبيعة الأشياء) لكنّه أصبح أكثر وضوحاً حين يكون هناك شيء كبير على المحكّ! فعلى سبيل المثال، عندما كان لكلتا السّلالتين متنافسون على الخلافة؛ ويظهر طابع هذا التّنافس بطريقة لطيفة في عدد قليل من القصص التي رواها البلاذريّ (ت سنة 892) يعود تاريخها إلى السّنين التي كان فيها معاوية خليفة؛ حيث يقول البلاذريّ:

زوّج معاويةُ ابنتهُ رملة من عمرو بن عُثمان بن عفّان، فَسَمِعتُ مروان بن

الحكم يقول لهُ وقد عادَهُ: إنَّما وَلِيَ معاويةُ الخلافةَ بذكرِ أبيكَ [الخليفة المقتول، عُثمان] فما يمنعك من النُّهوضِ لطلب حقِّك؟ فنحن [بنو أبي العاص، الذي ينتمي إليه المروانيّون والعثمانيّون] أكثرُ من آل حربٍ [جدّ معاوية لأبيه] عدداً، منّا فُلانٌ وفُلانٌ، وحجَّ عمرو بن عُثمان وخرجتْ إلى أبيها فقال لها: مالكِ؟ أطلّقك زوجك؟ قالت: الكلبُ أَضَنُّ بشحْمَتِهِ.[1] وحدَّثَتْهُ حديثَ مروانَ واستكثارَه آل أبي العاصِ واستقلالَه آلَ حربٍ. فكتب معاويةُ إلى مروان.

وذَكَرَ مروانُ يوماً لمعاويةَ كثرةَ عدد آلِ أبي العاص وقلّةَ عدد آل حرب، فتمثّل معاوية يقول:

تفاخرني بكثرتها قُرَيطٌ وقبلَك طالت الحجلَ الصّقورُ
فإنْ أكُ في عِدادِكُم قليلاً فإنّي في عدوّكُم كثيرُ
بُغاثُ الطّير أكثرها فراخاً وأمّ الصّقر مُقلّات نُزُورُ[2]

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: الكلب أضنّ بشحمته. مثل يُضرب لمن لا يفعل ما يقول.]

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، LDV، 44، 121-122؛ كيستر، 35-36 القصيدة الثّانية، المنسوبة إلى مؤلّفين مختلفين، تمّ اقتباسها على نطاق واسع في المُختارات الأدبيّة.

[إضافة المقوّم اللّغويّ: قُريط: تصغير قِرط. وهو ما يُوضع في أذن المرأة من حليّ. يريد معاوية بذلك التّقليل من شأن آل أبي العاص. ثمّ يخبر بأنّ الحجل على كثرتها هي مصيدة الصّقور وفريسة لها على قلّة عدد الصّقور.

والبُغاث جمع بِغثان. وهو طائر صغير لونه لون الغبار طويل العنق، لكنّه بطيء الطّيران؛ ولا يصيد. يُقال: إنّ البُغاث بأرضنا يستنسر. وهو مثل له ثلاثة معان

ولأنّ الأمويّين وبني هاشم زعموا وجود سلف مُشترَك في عبد مناف، فقد استغلّ الأمويّون _ بين حين وآخر _ هذا الارتباط لتأكيد قرابتهم للنّبيّ، **غير أنّ ذلك يفتقر إلى الإقناع،** فلقد كانت أشدّ الصّراعات مرارة ودمويّة في الإسلام المبكر تلك التي بين هاتين السّلالتين المرتبطتين: بين معاوية وعليّ في المقام الأوّل، وعلى نطاق أوسع بين الأمويّين والعلويّين و(فيما بَعْد) العبّاسيّين. وقد تمّ _ في واحدة من المُفارَقات المحبوبة جدّاً من المؤرّخين _ استبدال الصّراع بين عبد شمس وهاشم بآخرَ دمويٍّ بالقدر ذاته، بل وأكثر استدامة بين فرعين من العائلة الهاشميّة _ أحفاد عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب (العلويّين) وعمّه العبّاس بن عبد المطّلب (العبّاسيّين)!

وبقدر ما قد يبدو الأمر مُعقّداً، فإنّ من الضّروريّ فهم العالم السّياسيّ الذي نشأ فيه معاوية؛ **فقد كانت السّياسة في ذلك العالم سياسة الأنساب وليس الأفراد،** وكانت السّياسة إلى حدّ كبير، صراعاً من أجل الجاه والصّدارة أكثر بكثير من النّضال المادّيّ، وذلك على الرّغم من أنّ الحالين

---

كلّ بحسب سياقها وسباقها: فالأوّل يُضرب لمَن يبدي قوّة أمام عدوّه ويتظاهر بها وهو في الواقع ضعيف. والثّاني يُضرب للضّعيف يقوى ويستبدّ إذا سنحت فرصة. والثّالث يُضرب لمن يعزّ بجواره الضّعيفُ. يريد معاوية بذلك لفت انتباه المتفاخرين عليه بكثرة أعدادهم إلى أنّ هذا النّوع من الطّير كثير العدد، وأنّ أمّهاته كثيرة التّفريخ؛ لكنّه على كثرة عدده ضعيف؛ أمّا أمّهات الصّقور فإنّها تفرّخ النّزر القليل، لكنّ فراخها تكون نسوراً قويّة.]

لا تستبعد إحداهما الأخرى، ولم تنشأ الضّغائن والمُنافَسات بين قادة جماعة المسلمين بسبب التّمرّد ضدّ عثمان فيما بين السّنتين (655-656) بل يعود إلى أزمة الخلافة بعد وفاة محمّد عام (632) وربّما حتّى السّنين الأخيرة من حياته في المدينة؛ وتشيرُ القراءة المتأنّية للنّصوص التي تصف الأزمة السّياسيّة النّاجمة عن وفاة النّبيّ إلى وجود **ثلاث فصائل** واضحة الملامح داخل قريش: كانت إحداها عشيرة محمّد الهاشميّة التي لم تَتّحِدْ بأيّ حال من الأحوال في دعمه خلال السّنين الأولى من نبوّته، وكان عليّ المرشّح الهاشميّ الوحيد المقبول، لكنّه ما يزال يافعاً _ صغير السّنّ نسبيّاً _ وفقاً للمعايير التّقليديّة، وربّما لم يكن عمره أكثر من ثلاثين عاماً، ولم يكن مستعدّاً تماماً لحمل العبء الهائل لإرث النّبيّ. وكانت الفصيلة الثّانية عشيرة عبد شمس (الأمويّين) ذات الصّلة، لكن من الواضح أنّ مُعارضَتهم العنيفة لمحمّد لمدّة عشرين عاماً **أبعدتهم** عن الحسبان على الرّغم من ثروتهم والفطنة السّياسيّة المنسوبة إليهم تقليديّاً. وكان هناك مجموعة من المتحوّلين الأول من ثلاثة من عشائر قريش الأصغر والأقلّ شهرة: أبو بكر، عمر، الزّبير، طلحة. فلقد زعموا أنّهم النّواة الصّلبة لأنصار محمّد، وكان لهم مصلحة في عدم تهميشهم من قِبل عشيرة هاشم أو عشيرة عبد شمس، ثمّ إنّه قبل بضع سنين فقط في حادثة سيّئة السّمعة، تعرّضت زوجة النّبيّ المُفضّلة (والصّغيرة جدّاً) عائشة _ والتي كانت أيضاً ابنة أبي بكر _ للإذلال حين اتّهمها عليّ المندفع والصّالح علانية

بسوء السّلوك الفاضح، وحثَّ محمّداً على تطليقها، لكنّ محمّداً رفض اتّخاذ هذه الخطوة مطمئنّاً إلى براءتها بوحي أرسلته السّماء، **وقد خلق ذلك استياء عميقاً ودائماً بين أبي بكر (ناهيك عن عائشة) وعليّ**، وكانت قيادة جماعة المسلمين حتّى وفاة عبد الله بن الزّبير عام (692) محلّ خلاف بين هذه المجموعات الثّلاث: جماعة أبي بكر وبني هاشم وبني عبد شمس؛ وتمَّ إقصاء تجمّع أبي بكر من النّزاع في عام (692) إلّا أنّ الصّراع بين هاشم وعبد شمس لم يُحسم نهائيّاً إلّا في عام (749–750) تاركاً فرعي العائلة الهاشميّة يقتتلان فيما بينهم.

لم أقل شيئاً حتّى الآن عن معاوية، **فربّما حتّى الهجرة في عام (622) لا يوجد ما يقال، إذ كان معاوية أصغر سنّاً من أن يشارك مُشارَكة كبيرة في التّوتّرات بين محمّد ورفاقه من رجال قبيلة قريش، وإن كان متورّطاً، فيجب أن نفترض أنّه اتّبع خطى والده وعارض _ مثله _ تحدّي محمّد للنّظام القائم**، وضَمِنَ نفوذ أبي سفيان أن يكون لمعاوية مكانة بارزة ضمن هذا النّظام، وسيكون له مصلحة في الدّفاع عن آفاقه المُرتقَبة. وقد هدّدت دعوة محمّد (على الرّغم من أنّ عدداً قليلاً فقط أخذها على محمل الجدّ) على نحو مباشر المُمارَسات الدّينيّة وطقوس الحجّ العربيّ في الكعبة، وبصرف النّظر عن مشاعر القلق بشأن إهانة الآلهة القديمة، فقد كانت الطّقوس التّقليديّة أساسيّة لكلّ من الاقتصاد المكّيّ والمكانة الاجتماعيّة لقريش بين القبائل المجاورة، وإذا تمّ الاعتراف بمحمّد في نهاية المطاف بأنّهُ نبيّ

حقيقيّ، فسوف يقوم _ على المستوى السّياسيّ _ هو وأتباعه حتماً بإزاحة الأمويّين بوصفهم عشيرة قريش المهيمنة.

وحين تسلّل محمّد وأتباعه خلسة إلى واحة يثرب بعيداً إلى الشّمال، عادت الحال في مكّة مُؤقّتاً إلى طبيعتها، ولكنّ الحال الطّبيعيّة تلك انتهت حين بدأ أتباع محمّد في العام التّالي بمُداهَمة القوافل المتّجهة من وإلى مكّة، واستُبدلت حال عدم اليقين وحلّت الأزمة محلّها في عام (624) حين تمّ إرسال قوّة إغاثة قوامها (950) رجلاً من مكّة لحماية قافلة رئيسة تعرّضت لكمين في منطقة آبار بدر، استحوذت عليها فرقة أصغر بكثير تحت قيادة محمّد شخصيّاً، وعلى مدى السّنين السّتّ التّالية _ كما تخبرنا الرّوايات التّقليديّة _ **تقدّم والد معاوية أبو سفيان وقاد المُقاوَمة المكّيّة ضدّ محمّد**، أمّا الجهود المكّيّة لاستئصال ما نما من مصدر إزعاج إلى تهديد خطير، فقد انتهت إلى تسوية عسكريّة في عام (627)؛ حين فشلت قريش وحلفاؤها في غزو يثرب، وقد كان معاوية بحلول هذا الوقت كبير السّنّ بما يكفي (في مرحلة ما من العشرينيّات من عمره) للاضطلاع بعمل في المعارك والغارات في الصّراع مع محمّد، ولا بدّ من أنّه فعل ذلك، لكنّه لم يكن شخصيّة بارزة، وحتّى والدته، هند، كانت قد اكتسبت سمعة سيّئة أكثر منه، حين انتزعت وأكلت من كبد عمّ محمّد المذبوح حمزة في معركة أُحُد في عام (625).

وبدأ معاوية بعد ذلك الفشل العسكريّ في عام (627) بالخروج من تحت الظّلال _ وإن كان ذلك بطريقة غامضة ومثيرة للجدل _ **وأصبح الصّراع بين محمّد وقريش الآن لعبة انتظار النّهاية**، والتي كان لمحمّد فيها اليد العليا إلى حدّ كبير جدّاً، فحين فقدت قريش هيبتها، جلب محمّد المزيد والمزيد من القبائل البدويّة في غرب المنطقة العربيّة إلى مشروعه الجديد، لقد أنشأ اتّحاداً قبليّاً ضخماً، مرتبطاً بعضه ببعض بالتّعاليم الدّينيّة لزعيم كاريزميّ، وهو أمر لم يكن غير مألوف كلّيّاً في تاريخ القبائل العربيّة؛ مع أنّ مُجازَفة محمّد كانت على نطاق أوسع بعداً واستمرّت لمدّة أطول بكثير، وانهارت هيبة قريش بين قبائل الحجاز؛ إذ من الواضح أنّه لم يعد في قدرة قادتها حتّى تنظيم القوافل أو ضمان الحجّ الذي كان شريان الحياة لقريش، وكان على قريش بوجه عامّ، وعلى الأمويّين بوجه الخصوص، أن يبدؤوا في تقييم آفاقهم المُستقَبليّة.

كانت بداية التّحوّل في عام (628) إذ قاد محمّد في ذلك العام مجموعة كبيرة من أتباعه من يثرب (التي أصبحت تُسمّى فيما بعد المدينة) للحجّ إلى الكعبة، حين قابلته قوّات قريش ومنعته، **وانتهت هذه المُواجَهة بهدنة تفاوضيّة (صُلح الحديبيّة) بدت في الظّاهر انتكاسة مذلّة لمحمّد وأتباعه.** لكنّ محمّداً طالب وحصل على عهد من أتباعه بقبول قراراته هنا؛ وفي أي مكان آخر من دون سؤال أو تَحفُّظ (هذه هي بيعة الرّضوان)، وقد استغلّ الفرصة التي وفّرتها الهدنة لتعزيز موقعه في المدينة، ولكسب قبائل جديدة

لفضيّته، ولإرسال قوّاته إلى مناطق أبعد داخل المنطقة العربيّة لإقناع غير القابل، وبحلول بداية عام (630) كان قد عزل قريشاً تماماً لدرجة أنّه بات قادراً على إملاء شروط عودته المُظفّرة إلى مكّة بوصفه نبيّاً وحاكماً للمدينة بلا منازع، وسرعان ما أصبحت بيعة الرّضوان[1] تُعدّ خطّاً رئيساً للفاصل بين أولئك الذين كانوا مسلمين مخلصين؛ الذين قبلوا محمّداً رسولاً من عند الله حين كانت نتيجة رسالته موضع شكّ، وبين أولئك الذين دخلوا الإسلام لاحقاً بوصفهم منافقين اغتنموا الفرص.[2]

كانت تلك الأحداث في نظر المسلمين اللّاحقين حاسمة بالنّسبة لمعاوية. وتوالت أسئلة من مثل: **هل قبل معاوية الإسلام (ولو في السّرّ**

---

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: بيعة الرّضوان هي المعاهدة المبنيّة على الإيمان التي أبرمها محمّد مع أصحابه تحت شجرة كانت في المكان قُبَيل صلح الحديبية على قتال قريش بسبب أنّها حبست عثمان بن عفان؛ وقد بعثه ليفاوض قريشاً، وكان عدد أفرادها نحواً من (1400) وقد سُمّيت في الأدب الإسلاميّ بيعة الرّضوان لأنّ الوحي نزل على محمّد بقول الله تعالى: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة. «سورة الفتح من الآية 18» ويُشار إلى أنّ روايات وردت بأنّ عمر بن الخطّاب أمر في وقت لاحق بقطع تلك الشّجرة حين بدأت طقوس شبه وثنيّة تتسرّب إلى تصرّفات العامّة عندها.]

(2) إنَّ التحليل الأكثر إثارة للاهتمام للتقليد النصيّ حول الحديبيّة، ومن ثمَّ ما يمكن أن يكون قد حدث هناك بالفعل، موجود في كتاب أندرياس غورك، «The Historical Tradition about al-Hudaybiya»، وفي كتاب موتزكي، «The Biography of Muhammad: The Issue of the Sources» [بريل 2000]، 240-275.

فقط) في زمن الحديبيّة وبيعة الرّضوان أم إنّهُ صمد حتّى آخر دقيقة ممكنة بعد ذلك بعامين حين كان محمّد على وشك الدّخول إلى مكّة منتصراً؟[1] فإذا كان الاحتمال الأوّل، فإنّ تحوّله إلى الإسلام سيكون متأخّراً بعض الشّيء، لكنّه صادق وحقيقيّ، وإذا كان الاحتمال الأخير، فلا يمكن النّظر إليه إلّا بوصفه منافقاً ساخراً لم يقبل الإسلام في قلبه، أو ربّما _ كما أكّدت بعض الأخبار _ أسلم في وقت ما بعد الحديبيّة وقبل دخول محمّد مكّة؛ وفي هذه الحال تكون حالة تحوّله موضع شكّ.

وتوجد _ بصرف النّظر عن الأحكام الأخلاقيّة حول شخصيّة معاوية _ أسئلة قانونيّة مُعيّنة: هل كان معاوية يتمتّع بالمنزلة الرّفيعة بوصفه صّحابيّاً؟[2] أم هل كان طليقاً (الطّليق: أسير أسر يوم فتح مكة وكان _ طبقاً للقوانين العسكرية آن ذلك _ معرّضاً للموت أو الاستعباد) اختار الرّسول إطلاق سراحه؟ وتتضمّن بعض الأحاديث تصريح الرّسول بأنّه لا يمكن لأيّ طليق أن يصلح لخلافته؛ وهي حالٌ تضمّنت اثنين

(1) في هذا الكتاب، أفضّل «القبول» على «التحوّل»، إذ يبدو أنَّ التحوّل يعني تجربة روحيّة عفويّة، مثل: تجربة شاول الطرسوسي على الطريق إلى دمشق، في حين أنَّ القبول يشير إلى أنَّ المرء قد توصّل خطوة بخطوة إلى الاعتقاد بأنَّ الرسالة حقيقيّة، ومن المؤكّد أنَّ حالة القبول تبدو أكثر ملاءمة لرجل من مزاج معاوية.

(2) [إضافة المقوّم اللّغويّ: يُشتقّ مُصطلَح الصّحابيّ من الصّحبة. وتُعرّف الأدبيّات الإسلاميّة الصّحابيّ بأنّه من آمن بالنّبيّ محمّد ولقيه، ومات على الإسلام؛ ويوجد من العلماء من لم يشترط اللّقاء واكتفى بالرّؤية ولو من بعيد.]

من المُدَّعِين الأمويّين، هما معاوية ومروان، ولا يمكن توضيح المراوغة والغموض الكامِنَين في شخصيّة معاوية على نحو أفضل.[1]

اصطفَّ المعلّقون في القرون اللّاحقة في بحثهم الدّؤوب عن الوضوح الأخلاقيّ، حول هذه القضيّة بطرق يمكن التّنبّؤ بها نوعاً ما، وقد نُقلت إلينا أقوى رواية عن ابن عساكر تدعم اهتداء معاوية المُبكر، والتي قَوّلت معاوية ما لم يقُله! حيث يقول على لسان معاوية:

لمّا كان عام الحديبيّة وصدّت قريش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن البيت، ودافعوه بالرّاح [لسدّ طريقه]، وكتبوا [أخيراً] بينهم القضيّة؛ وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمِي هند بنت عتبة، فقالت: إيّاك أن تخالف أباك أو أن تقطع أمراً دونه فيقطع عنك القوت. وكان أبي [أبو سفيان] يومئذ غائباً في سوق حُباشة، قال فأسلمت وأخفيت إسلامي... ودخل رسول الله مكّة عام عمرة القضيّة[2] وأنا مسلم مصدّق به.

(1) للاطلاع على موقف معاوية الديني، انظر إ. حسون في JSAI 22 (1998)، «La conversion de Mu'awiya ibn Abi Sufyan»، 214-242.

(2) حسون، 219.

[إضافة المقوّم اللّغويّ: عمرة القضيّة، أو عمرة القضاء، أو عمرة القصاص، أو عمرة الصّلح؛ كلّها أسماء لمسمّى واحد هو العمرة التي قام بها النّبيّ محمّد في العام التّالي لصلح الحديبية. وسُمّيت عمرة القضاء أو القضيّة لأنّه تمّ التّقاضي بين المسلمين وبين قريش على رجوعهم إلى المدينة _ يثرب _ على أن يأتوا في العام التّالي لزيارة الكعبة. ولم تُسمّ عمرةَ القضاء بسبب أنّ المسلمين قضوا عمرة عن

ويعزّز ابن عساكر هذه الرّواية التي تخدم مصالح الذّات إلى حدّ ما مع رواية أخرى حيث يجلس النّبيّ بين مجموعة من أقرب صحابته (أولئك الذين سيصبحون، بمصادفة سعيدة الخلفاء الأربعة الأول) فيصّر _ ابن عساكر _ ضدّ ادّعاء أبي بكر أنّ معاوية لم يكن من الممكن رؤيته في أيّ مكان؛ يصّر على أنّ معاوية بايع في بيعة الرّضوان مثلما فعل الآخرون، ثمّ يذهب خطوة أبعد إلى الأمام فيقول: وأباحه الله الجنّة كما أباحكم _ أي _ العشرة المبشّرين بالجنّة.[1] فإذا كان هذا التّقرير حقيقيّاً، فلا يمكن تصوّر تأييد أقوى لحال معاوية الدّينيّة، وغنيّ عن القول: إنّهُ تمَّ رفضه تماماً من قِبل الشّيعة والأكثريّة من السّنّة، ولكن مع ذلك، فقد رأى عالم أرثوذوكسيّ شديد الدّقّة مثل ابن عساكر أنّهُ تقرير يستحقّ التّدوين.[2]

وعلى الرّغم من كلّ ذلك، سيحكم المسلمون فيما بعد على تصّرفات

---

عمرة كما يقفز إلى الذهن لأول وهلة؛ بناء على ما يُعرف في الفقه الإسلاميّ بقضاء العبادة الفائتة.]

(1) حسّون، 239-240.

(2) انضمت مجموعة «العشرة المبشرون بالجنة» إلى قضيّة محمّد في وقت مبكر، وخدمته بحماسة وشجاعة وتصميم لا ينضب طوال حياته، بيد أنَّ من الأهمّيّة بمكان ملاحظة أنَّ كلَّ واحد منهم تقريباً كان منخرطاً على نحو وثيق في الصراعات من أجل السّلطة التي مزّقت المجتمع بعد وفاة محمّد، ومن الواضح أنَّ الأحاديث النبويّة المتعلّقة بهذه المجموعة تمثّل جهداً بذلته الأجيال اللاحقة للشفاء من هذه الانقسامات، أو على الأقل لتبرئة الجوهر الداخلي لأصحاب النبي المشاركين بصورة عميقة، وليس من المستغرب أن يشعر بعض أهل الحديث من أصحاب النزعة التصالحيّة بالحاجة إلى تضمين معاوية في هذه المجموعة المختارة.

معاوية في السّنين (628-630) وقد أدرك النّبيّ أنّه يمكن أن يكون رصيداً قيّماً لجماعة المؤمنين؛ **ويعزى ذلك في جزء من المسألة إلى أنّه يمثّل عشيرة مكّيّة رئيسة يجب دمجها في النّظام الجديد، وكذلك في جزء آخر بسبب مواهبه الخاصّة**، وقد كان لمعاوية أهمّيّة ثانويّة في السّنين الأخيرة من حياة النّبيّ وأوائل الخلافة؛ إذ كان يبلغ من العمر ثلاثين عاماً فقط _ وربّما أقلّ _ يوم وفاة النّبيّ، وهو ما يكفي لتولّيه المسؤوليّة وليس القيادة، وقد كان تفاني معاوية في الإسلام لا يزال موضع شكّ! **وكان يُنظر إليه بعين الرّيبة من قِبل الدّائرة المُقرّبة من الصّحابة الأول** (جميعهم من مكّة ومن قبيلة قريش) الذين تولّوا السّلطة بعد وفاة النّبيّ. وعلى حدّ علمنا، كان معاوية واقعيّاً دوماً، إذ كان يعلم جيّداً أنّه لم يكن ولن يكون أبداً عضواً في تلك الدّائرة الدّاخليّة، ولم يكن بإمكانه القيام بعمل مهمّ في النّظام الجديد إلّا إذا كان مستعداً لأن يصبح الخادم المخلص لهذا النّظام، وهذا هو بالضّبط ما شرع في القيام به.

# الفصل الثالث

# إرساء أسس السّلطة : معاوية بوصفه سيّد سوريّا

# (656-632)

## معاوية وفتح سوريّا :

لا يُعرف سوى القليل عن معاوية في السّنين التي أعقبت وفاة محمّد مباشرة في عام (632) وقد ظهر معاوية في عام (636) من الضّباب على نحو طفيف، وذلك حين سُلّمت له قيادة قوّة متقدّمة كان البيزنطيّون قد تعاملوا معها بقسوة بالقرب من دمشق، والتي كانت هزيمتها مُهدِّدة للشّأن الإسلامي في سوريا.[1] وتولّى معاوية قيادة هذه القوّة المُؤلّفة من (3000) رجل أو حتّى أقل في معركة اليرموك الحاسمة في العام ذاته، وقاد قوّاته باقتدار، لكن لم يتمّ ذكره كأحد أبطال المعركة، وقاد شقيقه الأكبر يزيد بعد اليرموك قوّات المسلمين على طول السّاحل اللّبنانيّ، محتلاً صيدا وبيروت وعدّة مدن أخرى، وقد أدّى معاوية بامتياز شديد مهامّه قائداً لطليعة هذه الحملة.

(1) الطبري، الحادي عشر، 81-83، 87-88.

ثمّ انتقل إلى أعمال أكثر وضوحاً؛ إذ وُصف بأنّه أحد الشّهود المسلمين الأربعة الذين وقّعوا مُعاهَدة استلام القدس التي استسلمت في كانون الأوّل عام (637) أو شباط عام (638) بعد حصار دام عامين، وطالب البطريرك صفرونيوس الذي حكم القدس نيابة عن البيزنطيّين بأن يأتي الخليفة عمر إلى سوريّا وأن يتفاوض شخصيّاً على شروط الاستسلام، وقاموا فيما بعد بزيارة القدس معاً؛[1] وقد كان لسقوط القدس أهمّيّة كبرى للمسلمين، أمّا بالنّسبة للبيزنطيّين، فقد كان ذلك بمنزلة نهاية العالم.

يقول ثيوفانيس _ مانجو:

**صوفرونيوس... حصل على وعد بالحصانة لفلسطين بأكملها، دخل عمر إلى المدينة المُقدّسة مرتدياً ثياباً قذرة من وبر الإبل، وسعى إلى هيكل اليهود (الذي بناه سليمان) مظهراً ذريعة شيطانيّة، حتّى يجعله مكاناً لعبادة دينه التّجديفيّ، وبعد رؤية ذلك، قال صفرونيوس: حقّاً هذه رجسة الخراب في مكان مُقدّس، مثل ما قيل من خلال النّبيّ دانيال. وبكثير من الدموع، نَدَبَ المدافع عن التّقوى الشّعب المسيحيّ.**[2]

ويظهر معاوية هنا في صحبة نبيلة، وكان الشّهود الثّلاثة الآخرون من

(1) الطبري الثاني عشر، 192-193.

(2) ثيوفانيس- مانجو، 471.

أبرز القادة المسلمين في سوريّا وفلسطين، وإذا افترضنا أنّ المُعاهَدة حقيقيّة من حيث الجوهر (كما أعتقد) وأنّ معاوية كان مُشارِكاً في هذه الأحداث المصيريّة، فإنّ إدراج اسمه يشهد على مرتبته العالية في الجيوش الإسلاميّة في تلك المنطقة.[1] ويمكننا أن نكتشف بدايات العمل المهمّ الذي ستقوم به القدس في مسيرته اللّاحقة؛ لأنّه ربّما لم يكن بإمكانه التّغاضي عن القوّة الرّمزيّة الهائلة للمدينة لمن حوله (سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيّين أو يهوداً).

وكان الأمر الأكثر أهمّيّة مباشرة لمسيرة معاوية هو أوّل قيادة عسكريّة كبيرة له، **حين دعاه عمر ليحلّ محلّ عمرو بن العاص في حصار قيصريّة ماريتيما** (الآن مدينة صغيرة ولكنّها كانت العاصمة الكبيرة والمثيرة للإعجاب لفلسطين البيزنطيّة). كانت قيصريّة بعد القدس أهمّ مدينة فلسطينيّة ما تزال في أيدي البيزنطيّين، ولأنّها كانت ميناء، فقد توافرت منها منطقة انطلاق لهجمات مضادّة من البحريّة البيزنطيّة القويّة، وقد كان الحصار صعباً، ووفقاً لبعض الرّوايات، كان الحصار مستمرّاً بدرجات متفاوتة من الشّدّة منذ عام (634) ويمكن الافتراض (مع أنّه ليس أكثر من ذلك) أنّ تصميم معاوية لاحقاً على إنشاء قوّة بحريّة يعود أصوله إلى هذا الحصار المرهق؛ فقد رأى في قيصريّة مدى أهمّيّة السّيطرة على البحر؛ لأنّ القوّة البحريّة البيزنطيّة التي لا منازع لها، سمحت للمدينة بالتّعزيز

(1) الطبري الثاني عشر، 192 - 193.

من دون عوائق والصّمود لمدّة طويلة، إلّا أنّها اقتُحمت أخيراً في عام 639-640، ودُمّرت ونُهبت كلّيّاً في واحدة من الحالات القليلة جدّاً خلال الفتوحات في سوريا وفلسطين، وذُبحت حاميتها، وسيق سكّانها الباقون إلى الأسر؛ ذلك ما أخبرنا به المؤرّخون على الرّغم من أنّ الأدلّة الأثريّة لمثل هذا الدّمار الهائل أقلّ وضوحاً بكثير، وسرعان ما أُعيد بناء قيصريّة لكنّها لم تستعد حجمها القديم وأهمّيّتها.[1]

## معاوية يصبح حاكماً:

يتّخذ معاوية الخطوة التّالية من حياته المهنيّة **عن طريق الصّدفة تقريباً!** وذلك من خلال الأهواء غير المتوقّعة لعُصَيّة الطّاعون ووفاة القائد الإسلاميّ الكبير في فتح سوريا أبي عبيدة بن الجراح[2] بعد انتهاء الأعمال العدائيّة مباشرة وفي لحظة الانتصار تقريباً في طاعون عمواس عام (639) القاتلِ الذي عصف بقوّات المسلمين المتمركزة في فلسطين. وما حدث بعد ذلك غير واضح بدقّة، ويذكر المؤرّخون المسلمون الأول أسماء عدّة رجال مختلفين (كلّ واحد منهم مرشّح مُحتمَل) خليفة له، لكنّهم يتّفقون في أنّه في غضون بضعة أشهر، أصبح يزيد بن أبي سفيان حاكماً لسوريّا (أو على الأقلّ للأردن وفلسطين) وبصرف النّظر عن أنّ أصل يزيد المُشتبَه به بوصفه ابن عدوّ الرّسول القديم؛ يبدو أنّهُ كان يحظى باحترام كبير لمهاراته

(1) الطبري، الثاني عشر، 183-185، والبلاذري- حتي، الأول، 216-219.

(2) [إضافة المقوّم اللّغويّ: هذه كنيته، أمّا اسمه فهو: عامر بن عبد الله.]

العسكريّة ونزاهته على حدّ سواء، ومع ذلك، فقد مرض هو الآخر وتوفّي بعد وقت قصير من تولّيه المنصب.[1]

وهكذا تحوّلت مناصب يزيد في هذه المرحلة عام (639) أيّاً كانت إلى شقيقه الأصغر معاوية في وقت لم يكن فيه شخصاً غير ذي أهمّيّة، إلّا أنّه حتّى الآن كان يتولّى قيادات عسكريّة ثانويّة فقط، لكنّ الطّاعون الدّبليّ يقتل بسرعة، ومن المُحتمَل أنّ يزيد عيّن معاوية ليكون خليفته المُؤقّت وهو راقد على فراش الموت، **وكان يجب تأكيد هذا التّعيين من الخليفة عمر الذي كان يعرف كلّ شيء عن خلفيّة معاوية في ظلّ الأحوال العاديّة، وأصرّ عمر على أوراق اعتماد إسلاميّة لا يرقى إليها الشّكّ من كبار قادته وحكّامه، لكنّ الحال في سوريّا كان بحاجة إلى الاستقرار بسرعة**، وعلى الرّغم من أنّ سقوط قيصريّة أنهى العمليّات العسكريّة الرّئيسة في سوريّا وفلسطين، إلّا أنّ هناك حاجة ملحّة لتأمين الحدود الشّماليّة والأراضي السّاحليّة ضدّ الهجمات المضادّة البيزنطيّة وإنشاء نظام عمل إداريّ في الأراضي المُحتلّة حديثاً، ويجب أن يكون القائد الأعلى الجديد شخصاً تعرفه القوّات وتثق به، وقد كان هناك عدد قليل من هؤلاء المُرشّحين؛ لأنّ طاعون عمواس قتل الكثير من رجال الرّتب، وسيتعيّن في الوقت الرّاهن على معاوية القيام بذلك، لقد أثبت أنّهُ قائد عسكريّ مقتدر؛ ونفّذَ على نحو فعّال وولاء المهامّ المُوكَلة إليه كلّها خلال السّنين الخمس من

(1) تدعوه مصادر إسلامية بـ«يزيد الخير».

الحملة السّوريّة، ومع ذلك، ظلّ عمر متشكّكاً في معاوية، وزعمت بعض الرّوايات اللّاحقة أنّه كان ينوي طرده بمُجرّد أن تسمح الأحوال بذلك.

كانت قصّة صعود معاوية السّريع إلى السّلطة في سوريّا قصّة تخطيطيّة للغاية، ويمكن النّظر إليها بدرجة مُعيّنة من الشّكوكيّة، فقد كانت الطّريقة التي سقط بها كلّ واحد من رؤسائه العسكريين **مثل صفّ من قطع الدّومينو!** تبدو مُنظّمة ومريحة للغاية، وكثيراً ما كان المؤرّخون المسلمون الأول مرتبكين _ ويعترفون بالقدر ذاته _ فيما يتعلّق بالقائد الذي كان مسؤولاً خلال تلك السّنين الأولى عن ماذا وأين ومتّى؟ وتمثّل الرّواية المذكورة أعلاه جهودهم بعد عدّة عقود لفهم الانتقال السّياسيّ الفوضويّ من الحكم البيزنطيّ إلى الحكم العربيّ الإسلاميّ في فلسطين وسوريا خلال أواخر ثلاثينيّات القرن السّادس، ربّما كانت أيضاً طريقة خفيّة للقول: إنّ معاوية حصل على حكم سوريّا ليس من خلال الاستحقاق العسكريّ والدّينيّ ولكن عن طريق القَدَر! وقد اتّبعْتُ الرّواية الرّئيسة، وهي منطقيّة على نحو معقول ولا يوجد بديل مقنع.[1]

كانت مدّة ولاية معاوية في المنصب طويلة جدّاً، نحواً من عشرين عاماً، وهي أطول مدّة مُسجّلة لأيّ حاكم خلال حقبة الفتح. وبصرف النّظر عن أيّ مخاوف قد يشعر بها عمر حول معاوية، فقد كان يميل إلى

---

(1) البلاذري _ حتي، الأوّل، 215، 219، والطبري، الثالث عشر، 96-101، 103.

تغيير حكّامه من وقت لآخر، ولم يسمح أبداً لأيّ منهم ببناء قاعدة سلطة مستقلّة؛ لذلك كان معاوية محظوظاً مرّة أخرى حين تعرّض عمر للطّعن حتّى الموت على يد عبد فارسيّ ساخط وذلك في عام (644) وما يبشّر بالخير أنّ الخليفة الجديد عثمان بن عفان (حكم 644-656) كان من أبناء العشيرة الأمويّة، والأفضل من ذلك، أنّ عثمان كان مصمّماً على اكتساب سيطرة إداريّة فعّالة على مناطقه الشّاسعة، ولم يكن لدى «الحكومة المركزيّة» في المدينة أيّ آليّة إداريّة رسميّة للإشراف والسّيطرة على تصرّفات حكّام الأقاليم، كما لم يكن لديها أيّ أدوات للمُراقَبة والإكراه لتحقيق ذلك؛ من مثل نظام استخبارات داخليّ أو فيلق عسكريّ تحت القيادة الشّخصيّة للخليفة. وكانت قوّات الخلافة المبكرة من رجال القبائل العربيّة وقد انتشروا جميعهم تقريباً في الأراضي المحتلّة حديثاً خارج المنطقة العربيّة، وفي ظلّ هذه الأحوال، كانت الأداة الجيّدة الوحيدة المُتاحة لعثمان تعيين رجال محافظين _ كان ولاؤهم له ولسياساته أمراً لا يقبل الشّكّ، وقاده ذلك إلى تفضيل أقاربه، أو حلفاء تقليديّين آخرين للعشيرة الأمويّة _ في مناصب حكّام العراق وإيران ومصر، وقد أثارت سياسة عثمان استياء مريراً لدى عدّة مجموعات من رجال القبائل العربيّة، سيّما أولئك الذين استقرّوا في المخيّمات الشّاسعة في الكوفة والبصرة (في العراق) والفسطاط (مصر)، وقد اعتقد هؤلاء المحاربون بطريقة لا تخلو من العدالة، أنّ ثمار الغزو التي تخصّهم شرعيّاً كانت تُنزع من أجل منفعة المتطفّلين، وطالبوا

بالعودة إلى السّياسات «الإسلاميّة» الحقيقيّة لأبي بكر وعمر.

كانت سياسة عثمان مُبتكَرة إلى حدّ ما، إذ لم يعتمد أبو بكر ولا عمر كلّيّاً على شبكات القرابة لاختيار جنرالاتهم وولاتهم، كان الولاء المُثبت للإسلام أمراً بالغ الأهمّيّة بالنّسبة لهم، والذي لا يمكن عدّه من المسلّمات في السّنين الحرجة التي تلت وفاة محمّد، لقد اختاروا الرّجال الذين كانوا من أشدّ أتباع الإسلام حتّى قبل انتصارات السّنين الأخيرة من حياة محمّد، وأظهروا تفضيلاً ملحوظاً لقبيلتهم قريش، لكن لا يبدو أنّهم فضّلوا أيّ عشيرة مُعيّنة داخلها، وذهبوا خارج حدود التّضامن القبيليّ في تعيين عدد قليل من القادة من أنصار محمّد في المدينة وقبيلة ثقيف التي كانت تربطها علاقات قديمة العهد مع قريش، ولم يكن أبو بكر وعمر ممتنعين عن اتّخاذ قرارات مثيرة للجدل، لكنّهما استندا إلى هيبتهما بوصفهما عضوين في الدّائرة الأكثر قرباً من النّبيّ للحصول على الموافقة، وعلى الرّغم من أنّ سياساتهم مثيرة للجدل، إلّا أنّها أدّت إلى انتصارات حروب الرّدّة العربيّة وغزو العراق وسوريّا ومصر، ولم يقتصر الأمر على حفاظهم على نظام محمّد الجديد، بل رفعوه إلى مستويات لم يحلم بها في حياته.

كان عُثمان _ مثلما سار عليه سلفاه _ رجلاً ذا مكانة عالية في جماعة المسلمين النّاشئة؛ فقد كان من أوائل المتحوّلين إلى الإسلام، وكرّمه الرّسول بتزويجه من ابنتيه (كلتاهما ماتتا في عهد النّبيّ) ويعترف التّقليد

الإسلاميّ باستعداده لإنفاق ثروته الكبيرة من أجل رفاهيّة المجتمع وبتقواه الشّخصيّة العميقة وتواضعه. ومع ذلك، اعتقد الكثيرون في أنّ لديه الكثير ليكون متواضعاً بشأنه؛ وقد كانت لديه طريقة للتّغيّب عن الأزمات الكبرى في سني محمّد في المدينة؛ على سبيل المثال معركتي بدر، وأُحُد، وصلح الحديبيّة، وبيعة الرّضوان، ولم يظهر أيّ براعة عسكريّة أو موهبة سياسيّة، ولم يتّخذ أيَّ عمل مرئيّ في الفتوحات. ولم يكن عثمان في حال تسمح له بشقّ طريقه مع أقرانه في الدّائرة الدّاخليّة للنّبيّ في المدينة أو فرض إرادته على رجال القبائل العرب في المناطق المُحتلّة، ولا تدين له أيٌّ من المجموعتين بأيّ شيء؛ أو كان لديها ما تخشاه منه، **وقد كان السّهم الوحيد في جعبته ولاء أقاربه الأمويّين** الموصومين إلى حدّ ما.

ولحسن الحظّ، كان لسوريا بالفعل حاكم أمويّ يتمتّع بقدرات مُثبَتة، **فقد ترك عثمان لمعاوية بالكامل تقريباً تدبير شؤونه خلال اثني عشر عاماً من خلافته**، ولِمَ لا؟! ففي تناقض صارخ مع العراق أو مصر، كانت سوريّا مستقرّة للغاية وكان الجهاد ضدَّ البيزنطيّين يتقدّم بثبات، وبناء على ذلك، حظي معاوية بفرصة لم تُتح لأيّ حاكم آخر؛ حيث كان بناء جيش فعّال وتأمين قاعدته السّياسيّة فرصة لم يفوّتها، وأثبت معاوية بوصفه حاكماً أنّه قائد عسكريّ مُفعَم بالحيويّة وسعة الخيال؛ ولم يكن معروفاً بشجاعة شخصيّة عظيمة أو براعة في المعركة على الرّغم من أنّ الاتّهامات اللّاحقة بالجبن التي وجّهها خصومه؛ تبدو في غير محلّها، لكنّه كان واسع الحيلة ومبتكراً، وله

رؤية استراتيجيّة حقيقيّة فتمسّك بأهدافه طويلةِ المدى حتّى تحقّقت.

**الحرب ضدَّ بيزنطة:**

كان الالتزام الأساسيّ لمعاوية بوصفه حاكماً لسوريّا مواصلة الحرب ضدَّ بيزنطة، ويجب الاعتراف بأنّ التّقدّم كان على نحو متزايد في أحسن الأحوال، وكان هدف معاوية **تحقيق الاستقرار في حدود سوريّا بدلاً من غزو مناطق جديدة واحتلالها**، ولا شك في أنّ هذه السّياسة تتناقض بصورة صارخة مع تقدّم المسلمين العرب من خلال إيران في العقدين ذاتهما! وفي حين لا أستطيع هنا تقديم مُقارَنة منهجيّة بين الجبهتين الإيرانيّة والأناضوليّة، إلّا أنّ هناك حاجة إلى **بعض الشّرح**، فقد كانت الإمبراطوريّة السّاسانيّة في العراق وإيران أكثر ضعفاً من نظيرتها البيزنطيّة؛ وذلك بسبب الموجة الأولى من فتوحات المسلمين في الهلال الخصيب، وفقدت بيزنطة من دون شكّ أقاليم رئيسة في سوريّا وفلسطين ومصر؛ وقد كانت هذه الأقاليم مكتظّة بالسّكّان و (سيّما فلسطين) ذات قيمة رمزيّة عظيمة، فلقد كانوا جزءاً لا يتجزّأ من الإرث الرّومانيّ الذي يعود إلى أيّام مجد (بومبيوس) و(يوليوس قيصر) و(أغسطس) بيد أنّ بيزنطة ما تزال تمتلك عاصمتها التي لا تُضاهى (القسطنطينيّة) التي لا تُعدّ المركز الإداريّ للإمبراطوريّة البيزنطيّة فحسب، بل أيضاً قلبها الاقتصاديّ بالنّظر إلى موقعها المثاليّ وميناثها الممتاز. ولا يقلّ أهمّيّة عن ذلك، أنّ الإمبراطور لا يزال يحكم

ويحتفظ بالمنصب، إن لم يكن دوماً الشّخص الذي يشغله بهيبته التّقليديّة وسلطته السّياسيّة. وقد كان قسطنطين الثّاني (641-668) وخليفته قسطنطين الرّابع (668-685) _ مهما كانت عيوبها _ إداريّين مبتكرَين ومقاتلَين لا يعرفان الكلل، وبصرف النّظر عن الهزيمة العسكريّة المكرورة والأزمة الشّديدة، فقد حافظا على تماسك النّظام؛ وقد كان عند البيزنطيّين الموارد السّياسيّة والماليّة لمواصلة الكفاح ضدّ العرب على الرّغم من أنّهم كانوا في كثير من الأحيان يفتقرون بشدّة إلى الجنود.

وقد خسر السّاسانيّون في المقابل بحلول عام (637) عاصمتهم قطسيفون (بالقرب من بغداد الحديثة) والعائداتِ الزّراعيّةَ الغنيّة لسواد العراق[1]، والتي دعمت الحكومة المركزيّة لمدّة (400) عام! ودمّرت هذه الخسائر النّظام الملكيّ السّاسانّي، ولم يمتلك (يزدجرد) الثّالث الملكُ الأخيرُ (632-651) لا الآليّة الإداريّة ولا المال لإعادة بناء مملكته وتنسيق دفاعاتها، وأصبح بعد الهزيمة السّاحقة لجيشه الإمبراطوريّ الأخير في معركة نهاوند عام (642) لاجئاً، وفرّ شرقاً ينتقل من معقل مُؤقّت إلى آخر، حتّى قُتل بطريقة يُرثى لها في واحة مرو النّائية (في تركمانستان الحديثة) وقد كان غزو الهضبة الإيرانيّة خلال أربعينيّات وخمسينيّات القرن

(1) [تعليق المترجم: أي الأراضي الجنوبيّة في بلاد ما بين النهرين على أطراف دجلة والفرات، التي احتلها جيش المسلمين على عهد عمر بن الخطّاب، وأمّا السّواد فهو عن وفرة الزرع والنخيل، إذ يسمون الأخضر سواداً والسّواد أخضر، معجم البلدان، الحموي، الجزء الثالث، ص 272.]

السّادس عملاً بطيئاً وداميا؛ إذ خاضت القتال قلعة تلو قلعة ومدينة تلو الأخرى، ولكن بعد عام (642) لم تكن هناك مُقاوَمة مركزيّة لجيوش المسلمين العرب.

ويمكننا في هذا السّياق أن نقدّر قرار معاوية بمُواصَلة الضّغط على البيزنطيّين والتّخلّي عن المعارك الحاسمة أو الفتوحات المستمرّة، وحين أصبح حاكماً، **لم تكن سوريّا بأيّ حال من الأحوال آمنة بالكامل**؛ فقد كان السّاحل عرضة لهجمات بحريّة؛ وكانت الحدود الشّماليّة مهملة. زد على ذلك، أنّه لم يسيطر في البداية على سوريّا الجغرافيّة كلّها، وكانت سوريّا وفلسطين منقسمة إلى أربع أقاليم: 1) سوريّا الحقيقيّة وعاصمتها دمشق، 2) الأردن وعاصمتها طبريّا وميناؤها الرّئيس عكّا، 3) فلسطين، 4) حمص الحدوديّة الشّماليّة. وقد كان لفلسطين وحمص حكّام مستقلّون، ويبدو أنّ عمر كلّف معاوية بسوريّا وفلسطين فقط، ومع ذلك، لم يمض وقت طويل بعد أن أصبح عثمان الخليفة في عام (644) حتّى عيّن معاوية والياً على الأقاليم الأربعة جميعها، **وكان معاوية يتمتّع بموجب هذا النّظام بسلطة تعيين نائبِه**، وعُيّن في وقت لاحق أيضاً حاكماً لبلاد ما بين النّهرين (أي الأراضي الواقعة شرق الفرات)، وبناء عليه، حكم مساحة شاسعة من الأراضي من النّقب في الجنوب إلى الممرّات الجبليّة المؤدّية إلى أرمينيا والأناضول في الشّمال.

ويمثّل مثل هذا التّركيز في القوّة مخاطر واضحة على الخليفة! لأنّ كلّ شيء يعتمد على مهارة الحاكم وولائه، ومع ذلك، كانت ثقة عثمان في محلّها، إذ كان يعلم أنّ معاوية إداريّ وجنديّ أثبت نفسه، ونال احترام ودعم رجال القبائل العربيّة تحت قيادته، ولم يكن معاوية قريباً مُقرّباً فحسب، بل كان أيضاً شخصاً اتّبع بلا كلل توجيهات رؤسائه منذ بداية الفتوحات في عام (634) **واستطاع عثمان بوجود سوريّا في يدي معاوية الموثوق بهما أن يركّز انتباهه على الأقاليم المتوتّرة**، مثل: البصرة والكوفة ومصر، وفي حال لم تنفعه جهوده في هذه الأقاليم كنتيجة نهائيّة، فهذا ليس خطأ معاوية.

لم ينتهِ الصّراع ضدَّ البيزنطيين إلى أن عزّز معاوية سلطته في سوريّا، فقد أعاد البيزنطيّون احتلال بعض الموانئ اللّبنانيّة في أواخر عهد عمر (أو ربّما أثناء الارتباك الذي أعقب اغتياله) وطُرد سكّانها بعد احتلالهم لأوّل مرّة في عام (636) ولا توجد فيها حاميات متمركزة؛ ربّما بسبب النّقص الحادّ في أفراد جيوش المسلمين العاملة آنذاك في سوريّا. وكان معاوية مصمّماً على ألّا يفقد السّيطرة على السّاحل، وسرعان ما استعاد الموانئ وأعاد بناء تحصيناتها وحصّن حاميتها، وحاصر بعد مدّة وجيزة طرابلس آخر ميناء سوريّ _ لبنانيّ رئيس كان لا يزال في أيدي البيزنطيّين. ومع عدم وجود انفراج في الأفق، **قرّر السّكّان التّخلّي عن المدينة وجرى إجلاؤهم في سفن أرسلها الإمبراطور**، وكان لطرابلس ميناء ممتاز ومواصلات بريّة سهلة مع الدّاخل السّوريّ؛ ولا يمكن تركها مهجورة، فَبثّ معاوية جالية من

اليهود هناك _ لم يتمّ إخبارنا من أين أتوا _ ونشر قوّات حامية دائمة.

لقد شكّلت طرابلس سابقة لمُبادَرات لاحقة، فحين أصبح معاوية خليفة، بدأ برنامجاً منهجيّاً لإعادة توطين جميع المدن السّاحليّة بمزيج من الحوافز السّخيّة (مثل منح الأراضي وراثيّاً) والإكراه (مثل: عمليات نقل قسريّة للسّكّان من المدن الدّاخليّة) واجتاحت سياسته الخاصّة بإعادة التّوطين مزيجاً كبيراً من الشّعوب، فقد وطّن اليهود في طرابلس، ونقل الفرس من العراق وحمص وبعلبّك إلى أنطاكيّة، وصور، وعكّا، وجلب الملايويّين والهنود الزّطّ من البصرة إلى أنطاكيّة؛ وربّما كان يعتقد، بعقلانيّة لدرجة كافية، أنّ الغرباء المُشرّدين سيكونون رعايا أكثر مرونة من السّوريّين الأصلاء، لقد كانت الاشتباكات موجودة من حين لآخر، ولكن بوجه عامّ، لم يشعر بخيبة أمل.

## الحرب في البحر: إنشاء البحريّة الإسلاميّة

يمكننا أن نتخيّل بسهولة كيف عزّز الصّراع على البلدات السّاحليّة خلال منتصف أربعينيّات القرن السّادس من تصميم معاوية على إنشاء البحريّة. وحتّى أثناء خلافة عمر حين كانت حال المسلمين في سوريّا ما تزال غير محسومة، ودافع معاوية عن بناء أسطول للمسلمين، فقد كان من الواضح بما فيه الكفاية أنّ السّاحل عرضة للخطر ما دامت البحريّة البيزنطيّة تحتكر الممرّات البحريّة، ومع ذلك، تتوافر الأسباب كلّها

للاعتقاد في أنّه كان يعلم أنّ أسطولاً قويّاً يمكن أن يفتح خطوطاً جديدة للهجوم ضدّ البيزنطيّين زيادة على العمل الدّفاعي للبحريّة.

ويمكننا ترقّب العثور في حوليّات المسلمين المبكرة على بعض الدّعم لهذه الظّنونات، لكنّ الطّبريّ _ مصدرنا الرّئيس لأصول بحريّة معاوية _ يكتفي بما يبدو أنّه جزء قليل من فولكلور دينيّ، حيث يقول:

كان معاوية كتب إلى عُمرَ كتاباً في غزوِ البحرِ يرغّبه فيهِ، ويقول: بالشّامِ قريةٌ يَسمَعُ أهلُها نُباحَ كلاب الرُّومِ وصياحَ ديوكهم، وهم تِلْقاءُ ساحلٍ من سواحل حمص، فاتَّهمَهُ عمرُ وكتبَ إلى عمرو بنِ العاصِ واليه على مصرَ أنْ صِفْ لي البحرَ ثمَّ اكتبْ إليَّ بخبرهِ: فكتبَ إليه: يا أميرَ المؤمنين، إنّي رَأيتُ خلقاً عظيماً [البحر]، يركبهُ خَلْقٌ صغيرٌ[رجل]، ليس إلّا السَّماءُ والماءُ، وإنَّما هم كدُودٍ على عُودٍ، إنْ مَالَ غَرِقَ، وإنْ نجا بَرَقَ. ... فكتبَ عمرُ إلى معاوية: إنَّا سَمعنا أنَّ بحرَ الشَّام يُشرفُ على أطولِ شيءٍ على الأرضِ، يستأذنُ اللهَّ في كُلِّ يومٍ وليلةٍ في أنْ يَفِيضَ على الأَرضِ فيُغرقَهَا، فكيفَ أحملُ الجنودَ في هذا البحرِ الكافر المُستصعبِ، وتاللهِّ لمسلمٌ أحبُّ إليَّ ممَّا حوتِ الرُّومُ، فإيَّاكَ أن تعرِضَ لي.[1]

تبدو هذه الرّواية غريبة إن لم تكن كوميديّة في نظرنا! لكنَّ الطّبريّ

(1) الطّبريّ، الخامس عشر، 26 – 27.

اختارها لسبب حتّى إنّ ألغازها وتناقضاتها كاشفة للحقائق، لقد كان يستخدمها لتمهيد الطّريق لغزو معاوية لقبرص عام (649) على الرّغم من أنّ القصّة لا تشير بوضوح إلى قبرص البعيدة، ولكن إلى جزيرة أرواد (أرادوس) قبالة ساحل مدينة طرطوس الحديثة، ولم تكن تشكّل أرواد الصّغيرة تهديداً للسّيطرة الإسلاميّة على السّاحل السّوريّ، ولا كان غزوها يتطلّب أسطولًا بحريّاً حقيقيّاً، ولا يملك الطّبريّ الذي عاش في العراق بعد (200) عام أيّ فهم للجغرافيا الحقيقيّة لسواحل سوريّا؛ ولكن كان السّياق الأصليّ للقصّة غير مهمّ، واستخدمها لأنّها شرحت أصول قوّات المسلمين البحريّة في البحر الأبيض المتوسّط بوصفها استجابة لمُواجَهة التّهديد المستمرّ بالهجوم البيزنطيّ من البحر.[1]

لماذا طلب عمر النّصيحة من عمرو بن العاص الذي تجاهل أوامره إلى حدّ ما حين انطلق إلى فتح مصر عام (639)؟

لقد كان عمرو مشهوراً بصلابة الرّأس والواقعيّة، وكان (مثل معاوية) يحكم مُقاطَعة مُعرّضة للهجوم البحريّ من البيزنطيّين، وبناء عليه، فقد كان في حال أفضل من أيّ شخص آخر لإبداء رأي متبصّر؛ ومع ذلك، **يكاد يكون مُؤكّداً أنّ تبادل الرّسائل بين الخليفة وعمرو هو خيال أدبيّ؛ ومشهد دراميّ يلمح إلى شكّ عمر في الدّوافع الحقيقيّة لمعاوية وقلقه من**

(1) التواريخ مُؤكّدة من خلال نقشين يونانيين، انظر ثيوفانيس- مانجو، 479، رقم 1.

أنه أصبح قويّاً للغاية.

بصرف النّظر عن الجهل والخوف من البحر أو القلق بشأن نيّة معاوية طويلة المدى، فقد كان لعمر أسباب استراتيجيّة سليمة لعرقلة مُبادَرة الحاكم، ولا يمكن بأيّة حال أن يعتقد في أنّ حياة مسلم واحد كانت تساوي أكثر من كلّ ما يمتلكه البيزنطيّون، أو أنّه قد دعا إلى وقف الحملات البرّيّة في الأناضول! ومع ذلك، ربما كان يعتقد في أنّ قوّات المسلمين قد استنفدت طاقاتها بالفعل، ويُضاف إلى ذلك، أنّه لم يكن لأيّ من القبائل العربيّة في سوريّا أبعد فكرة عن كيفيّة بناء أو إدارة سفينة، لذا فإنّ الأسطول يتطلّب خدمة أعداد كبيرة من غير المسلمين _ السّوريّين أو المسيحيّين المصريين _ الذين كانت ولاءاتهم غير مُتوقّعة إطلاقاً، وقد كرّس عمر في سنيّه الأخيرة قدراً كبيراً من الطّاقة لإنشاء هيكل إداريّ للأراضي الشّاسعة التي حكمها، وكان من الممكن أن يكون سلاح البحريّة مُجرّدَ شيء آخر لم يكن لديه وقت للتّفكير فيه.

نجحت أخيراً حجج معاوية المستمرّة بعد وفاة عمر عام (644) وانتخاب عثمان، وكان عنده بحلول عام (648) أسطول جاهز في الخدمة، وقد كان بناة السّفن والبحّارة في الأسطول الجديد مسيحيّين من السّاحل (سيّما لبنان، التي كان بها موانئ جيّدة وغابات وفيرة نسبيّاً)؛ لأنّ رجال قبائل الصّحراء في الجيوش العربيّة لم يعرفوا شيئاً عن مثل

هذه الأمور، ومع ذلك، كان القتال الحاسم في المعارك البحريّة القديمة والعصور الوسطى القتال اليدويّ بعد الصّعود على متن سفن الأعداء، وسرعان ما أصبحت القوّات العربيّة من مشاة البحريّة عالية الفعّاليّة (بمُجرّد أن وصلوا إلى مرحلة النّقل البحريّ).

وقد أثبت **الأسطول الإسلاميّ الجديد** جدارته بسرعة حين اجتاح معاوية قبرص عام (649) وتروي المصادر المسيحيّة قصّة حيّة عن النّهب والسّلب والدّمار، إلّا أنّ المصادر الإسلاميّة صامتة! ويذكرون أنّه أخذ رشوة مع جزية كبيرة تعادل المبلغ الذي جمعه البيزنطيّون تقليديّاً (أثقل القبارصة أنفسهم بجزية مضاعفة، لأنّهم استمرّوا في الدّفع للبيزنطيّين؛ بطريقة مكلفة ولكنّها بسيطة لشراء الحماية من كلا الجانبين) وقاد معاوية في العام التّالي تماماً اجتياحاً ثانياً **لمُعاقَبة القبارصة** لانتهاكهم مُعاهدَتهم، ومثلما تميل إليه الحملات التّأديبيّة، فقد كانت دمويّة ومدمّرة _ كما تتّفق جميع المصادر _ لكن شروطه في ظلّ تلك الأحوال كانت معتدلة، وقد أعاد فرض الجزية القائمة وأسّس مُستعمَرة عسكريّة في الجزيرة مع (12000) جنديّ نظاميّ، وهي حامية كبيرة جدّاً وفقاً لمعايير ذلك الزّمن، ولم يكن الفتح مستمراً، فقد سُحبت الحامية بعد وقت قصير من وفاة معاوية، لكنّ احتلال قبرص كان بلا شكّ أعظم انتصار عسكريّ له.[1]

---

(1) تاريخ مُؤكّد 649 لأول رحلة استكشافية إلى قبرص من خلال نقشين يونانيين: ثيوفانيس- مانجو، 479، رقم 1.

كانت قبرص البدايةَ فقط، فقد اجتيحت أرواد أيضاً في عام (649) واضطرّ سكّانها إلى المُغادَرة (قد يبدو هذا غير ضروريّ، لكنّ أرواد كان لها ميناء جيّد، وربّما كان بمنزلة قاعدة لهجوم بيزنطيّ مضادّ)، وأبعد من ذلك، تعرّضت جزيرة رودس الاستراتيجيّة للهجوم والاحتلال لعدّة عقود، وهو ما أعطى أسطول المسلمين قاعدة متفوّقة للغارات على طول ساحل الأناضول الجنوبيّ، إلّا أنّ التّواريخ مثيرة للخلاف في المصادر؛ إذ وقعت الغارة الأولى في عام (653) على الرّغم من أنّ احتلالاً حقيقيّاً ربّما يكون قد حدث فقط في عام (673).

وجاء أكبر نجاح باهر للبحريّة الجديدة في غضون عقد من تأسيسها، ففي عام (655) واجه أسطول المسلمون الكبير في معركة **ذات الصّواري** الكبرى التي وقعت قبالة ميناء فونيكس (فينيقيّة الحديثة على السّاحل الجنوبيّ الغربيّ للأناضول) واجهوا (500) سفينة بيزنطيّة تحت القيادة الشّخصيّة للإمبراطور قسطنطين الثّاني، وعادة ما تكون أوصاف المسيحيّين والمسلمين لهذا الصّدام العملاق ملحميّة ورائعة؛ ولكنّها أيضاً غامضة ومتناقضة، ومن المُحتمَل أن يكون عند أسطول المسلمين سفن وجنود من كلّ من لبنان ومصر. وتقول المصادر المسيحيّة: إنَّ الحملة كانت بمُبادَرة من معاوية، لكن يبدو أنّه لم يكن حاضراً في المعركة، وكان القائد المسلم الأعلى والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وبالنّظر إلى النّفقات الهائلة، والمخاطر العالية، وتورّط أساطيل من إقليميّ (سوريا ومصر) فلا بدّ من أن يكون الخليفة عثمان قد أذن بالمشروع، لكن لا

يوجد ذكر لاسمه، وتحمّل المصادر المسيحيّة قسطنطين مسؤوليّة الكارثة حيث تقول: يقولون إنّه لم يشكّل أسطوله في خطّ مُواجَهة مُنظّم جيّداً وأنّ سفن المسلمين استغلّت الفوضى لتفكيك الأسطول وتدمير سفنه تدريجيّاً. إلّا أنّ رواية المسلمين الرّئيسة تتعارض مع هذا الوصف؛ فهي تنصّ على أنّ كلا الأسطولين تشكّلا تشكيلاً محكماً، وكان العامل الرّئيس هو الرّياح القويّة التي منعت القوّتين من الاقتراب، وقد تراجعت فجأة فاغتنم المسلمون الفرصة لشنّ هجوم قويّ على طول الخطّ البيزنطيّ بأكمله.

وتتّفق جميع المصادر على أنّ المعركة كانت دامية ومريرة، فقد كان البحر مُغطّى بحطام السّفن وجرفت آلاف الجثث البيزنطيّة إلى الشّواطئ، وتدمّر الأسطول البيزنطيّ ونجا الإمبراطور من القتل أو الأسر بصعوبة، **والأهمّ من الإذلال والخسائر الفادحة هو فتح البوّابات المؤدّيّة إلى بحر إيجه.** فلقد تُرك السّاحل الجنوبيّ والغربيّ للأناضول لعقود بلا حماية ضدّ غارات المسلمين، واخترقت البحريّة التّابعة لمعاوية بعد عشرين عاماً بحر مرمرة، وحاصرت القسطنطينيّة لمدّة أربع سنين (من 674 إلى 678) وكان لا بدّ من تفكيك هذا الحصار، لكنّ البحريّة العربيّة ظلّت تشكّل تهديداً خطيراً لتجارة وأمن الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

## الحرب في الأناضول وأرمينيا:

كرّس معاوية نفسه لتأمين السّاحل وبناء البحريّة، واستمرّت الحملات البرّيّة ضدّ البيزنطيّين على أهمّيّتها، لكنّه في الجزء الأكبر كان راضياً عن إسنادها إلى مرؤوسيه، وقد قرأنا خلال السّنين التي قضاها حاكماً عن بضع حملات _ ربّما لا تزيد عن ثلاث حملات _ في وسط الأناضول، وأُطلقت هذه السّفن عادة من كيليكية السّهل السّاحليّ الواسع شمال أنطاكيّة، حيث تلتقي السّواحل السّوريّة والأناضوليّة، ومع ذلك، ترك البيزنطيّون هذه المنطقة أرضاً قاحلة حين تخلّوا عن سوريّا ولم يحاول معاوية أبداً احتلالها وإعادة توطينها، ولم تصبح كيليكية مُستوطَنة إسلاميّة إلّا بعد قرن أو أكثر، وكانت أنطاكيّة خلال زمن معاوية المدينة الكبرى في شمال الإمبراطوريّة.

وكانت منطقة القتال الرّئيسيّة خلال هذه المرحلة تقع في الشّمال الشّرقيّ في أرمينيا، وكان لأرمينيا في القرن السّابع تاريخ متداخل _ هذا ما كنّا نتوقّعه من منطقة استراتيجيّة محصورة بين الفرس في الشّرق و البيزنطيّين في الغرب _ لقد كانت أرمينيا أرضاً مسيحيّة، وقدّمت على مرّ القرون العديد من الأباطرة البيزنطيّين، بما في ذلك ربّما هرقل العظيم (610-641) وحافظ قسطنطين الثّاني (641-668) على علاقات جدّه الوثيقة بوطن أجداده، وحاول استخدامه بوصفه مكان

انطلاق لهجومه المضادّ ضدّ المسلمين، ومع ذلك، أُحبطت جهوده بسبب **الفئويّة** المريرة للعشائر الأرستقراطيّة الكبرى التي حكمت أرمينيا (إذا تمتّع أحدهم بحظوة الإمبراطور البيزنطيّ، فإنّ الآخر سيسعى حتماً إلى تحالف مع المسلمين) وبسبب عزم المسلمين على طرد البيزنطيّين من أرمينيا، وحين أصبح عثمان خليفة، أمر حكّام سوريّا والكوفة بشنّ حملة مُشترَكة ضدّ أرمينيا، على الأرجح بلغ مجموع قوّاتهم (15000)[1]، وعيّن معاوية زميلاً قرشيّاً، حبيب بن مسلمة الفهريّ قائداً للقوّات السّوريّة، ولم يكن حبيب بن مسلمة قد بلغ الثّلاثين من العمر، وربّما تعرّفا على بعضهما بعضاً أثناء غزو سوريّا، لقد كان اختياراً ملهماً، وحتّى وفاته المبكرة عام (663) كان حبيب بن مسلمة أكثر جنرالات معاوية ولاء وفاعليّة، وحملت الحملة الأرمنيّة عام (645) حبيب من مَلطية (بالأرمينية: Մալաթիա، Malat'ya) (ملاطية الحديثة) إلى أرضروم، وأصبحت مَلطيّة أهمّ قاعدة لحملات المسلمين الصّيفيّة في الأناضول، بينما كانت أرضروم خاضعة للجزية، وإن لم تكن مُحتلّة بصفة دائمة، وطارد حبيب جيش الحاكم العسكريّ البيزنطيّ في أرمينيا، موريانوس، وتشتّتوا في هجوم ليليّ، وقُتل (موريانوس) وقد قيل لنا في وصفٍ قصيرٍ ساحرٍ: إنّ زوجة حبيب رافقته في هذه الحملة، وسألته عشيّة يوم المعارك الحاسمة: أينَ

---

(1) تاريخ هذه الرحلة الاستكشافية غير مُؤكّد؛ الاحتمال الأرجح هو 653.

**موعدك؟ فقال: سرادقُ موريانَ، أو الجَنَّةُ. وقاتل حتّى وصل إلى سرادقِ موريانَ، فوجد امرأته قد سبقته، وحصلت على السّرادق كنصيبها من الغنيمة.**[1]

وأصبحت أرمينيا بعد هذه الحملة المبهرة دولة تابعة مع حاكم مسلم مقيم، ومُنح حبيب هذا المنصب لمدّة وجيزة، لكن سرعان ما تمّ استدعاؤه إلى سوريّا وعُهد إليه بقيادة المناطق المكشوفة على طول الحدود البيزنطيّة، حيث خدم بامتياز كبير.

## معاوية والقبائل العربيّة في سوريّا:

لم تظهر النّتيجة الأكثر أهمّيّة لمدّة ولاية معاوية الطّويلة والحكومة المُوحّدة إلّا بعد وفاة عثمان، وحين تحدّى معاوية عليّاً على الخلافة خلال الحرب الأهليّة الأولى (656-661) كان بإمكانه الاعتماد على الولاء والخبرة العسكريّة للقوّات العربيّة المتمركزة في سوريّا، وبالتّأكيد، انتصر معاوية في الحرب الأهليّة، واحتفظ بالسّلطة من دون منازع بعد ذلك؛ لأنّه كان الزّعيم المسلم الوحيد الذي يتمتّع بسيطرة قويّة على الموارد الماليّة والبشريّة لإقليمه، وكبداية، لم يكن عند عليّ جيش، واضطرّ إلى تجميع جيش من مختلف القبائل العراقيّة (أكثرهم من الكوفة) التي كان لكلّ منها أجندتها الخاصّة. وكانت مصر في حال

(1) الطبري، الخامس عشر، 11، والبلاذري- حتي، الأول، 311.

من الفوضى عام (656) ولم يتمّ استعادة مستوى مُعيّن من النّظام حتّى وضع معاوية أحد رجاله _ قائده السّابق عمراً بن العاص _ في موقع المسؤوليّة فيها، وكان هناك قادة مُحتمَلون آخرون يعيشون في مكّة والمدينة، لكن بالكاد كانت تمتلك هذه المدن الموارد للدّفاع عن نفسها، ناهيك عن السّيطرة على بقيّة إمبراطوريّة المسلمين، فلقد استُنزِفَت القبائل المتحالفة المهمّة التي كانت تدعم سلطتهم ذات مرّة بسبب الفتوحات العظيمة.

كيف بنى معاوية، وحده من بين القادة المسلمين مثل هذه القاعدة القويّة المتماسكة والفعّالة؟

الجواب ببساطة: لا نعرف! وذلك على الرّغم من وجود بعض التّلميحات، وواضح أنّ معاوية لم يستند بالدّرجة الأولى إلى الجيوش التي استخدمها أبو بكر وعمر لغزو سوريّا التي سقطت قيادتها في يده بعد عام (639) وكانت هذه القوّات صغيرة نسبيّاً، وعلى الرّغم من أنّها ربّما بقيت في سوريّا، إلّا أنّها لم تستقرّ أبداً في حاميات كبيرة مثل تلك الموجودة في العراق ومصر، واستقرَ بعضها في المدن، سيّما في دمشق وحمص، بينما أُرسل بعضها الآخر إلى السّهوب بعيداً عن أيّ مدينة، وعُيّن العديد في مناطق المراعي على طول الحدود البيزنطيّة، وشكّلوا الجزء الأكبر من القوّات التي

حُشدت بانتظام للحملات الصّيفيّة في الأناضول وأرمينيا.[1]

ومن الواضح أنّ معاوية فضّل الاعتماد على القبائل التي أقامت لمدّة طويلة في السّهوب السّوريّة والتي كانت مألوفة على نحو معقول (على الرّغم من عدم التّرحيب بها دائماً) للقرويّين وسكّان المدن المستقرّين في مُقاطَعة سوريّا فلسطين، ومن بين هؤلاء، كانت قبيلة «كلب» في الجنوب و «تنوخ» في الشّمال الأكثر أهمّيّة، وشكّل رجال القبائل هؤلاء جوهر جيش معاوية في الصّراعات بين عام (656) وعام (661). وكان زواجه من المؤشّرات المبكرة على هذه السّياسة النّاشئة في وقت ما (نحو من عام 650) من ميسون ابنة الزّعيم القويّ لبني كلب، بهدل بن أنيف؛ كما تزوّج ابنُ عمّه، الخليفةُ عثمان من كلبيّة هي نائلة بنت القرافصة في الوقت ذاته تقريباً، وكانت زوجة قائده المُفضّل حبيب بن مسلمة كلبيّة أيضاً. وبالنّظر إلى علاقة معاوية بمسيحيّي سوريّا، والتي سأناقشها في الفصل التّالي فإنّ من المهمّ لحظ أنّ نائلة وميسون كلتيهما كانتا مسيحيّتين قبل زواجهما، ومن المنطقيّ تقدير أنّ هذه الزّيجات

(1) إنّ معلوماتنا حول هجرة رجال القبائل من الجزيرة العربيّة إلى سوريا محدودة للغاية، انظر فريد إم دونر، «The Early Islamic Conquests»، ص 245 - 250، يجادل أنّ المستوطنين من شبه الجزيرة العربيّة ينتمون في الغالب إلى قريش، الذين ربّما كانوا ينظرون إلى سوريا بوصفها محميّة خاصّة بهم، كما يعلّق قائلاً: "لا نجد أي تلميح واحد يشير إلى حدوث أي شيء في سوريا مثل الهجرات الكبرى لرجال القبائل العربية... التي تدفقت إلى العراق في العقود التي تلت الفتوحات هناك» (ص 249).

**تعكس قراراً أمويّاً بالسّعي للحصول على أساس للدّعمين العسكريّ والسّياسيّ من خارج الدّائرة الدّاخليّة النّخبويّة لصحابة محمّد لمن سيكونون دوماً أشخاصاً غير مرغوب فيهم،** وكان كلّ من الكلبيّين والتّنوخيّين مسيحيّين إلى حدّ كبير في بداية غزو سوريّا؛ وقد اتّبع بنو كلب خلال ذلك الصّراع سياسة معقولة من الانتظار والتّرقّب، وظلّوا في الغالب على الهامش، وتحوّل أكثر أفرادها بعد انتصار المسلمين إلى الإسلام بسرعة إلى حدّ ما، وفي المقابل، حارب التّنوخيّون مع البيزنطيّين وهاجر العديد منهم إلى الأناضول بعد الانهيار البيزنطيّ، وقَبِلَ أولئك الذين بقوا النّظام الجديد، لكنّهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم للتّخلّي عن المسيحيّة.

تبع الأمويّون الّلاحقون قيادة معاوية، وحسّنوا حال القبائل في سوريّا مع أنّ القبيلة التي تمتّعت بحظوة الخلافة تحديداً خضعت لتغيير ملحوظ _ وعنيف أحياناً _ من عهد إلى آخر. وكان أحد أهداف شبكة «القلاع الصّحراويّة» التي ما تزال بقاياها موجودة في السّهوب السّوريّة والأردنيّة إقامة أماكن حيث يمكن لزعماء القبائل وأتباعهم من خلالها مُقابَلة الخليفة أو ممثّليه، وقدّمت هذه الهياكل _ المتواضعة في الحجم ولكنّها مُزيّنة على نحوٍ مثير للإعجاب- مكاناً مثاليّاً **لمنح الهدايا الفخمة والتّشريفات لنبلاء القبائل**، والتي أعادوا توزيعها على رجال قبائلهم على النّحو الذي يرونه مناسباً. وبصرف النّظر عن الصّنابرة بالقرب من بحيرة طبريّا (والتي ربّما ينبغي النّظر إليها

بوصفها عقاراً ريفياً بدلاً من مكان لحشد القبائل) يوجد القليل من الأدلّة على أنَّ معاوية لم يبنِ أيّ قصر خاصّ به، وإذا فعل ذلك، فسيكون على نطاق متواضع للغاية، ولم يبقَ أيّ أثر ماديّ لها، ولكن حتّى من دون القصور، فقد كان هو الذي بنى تدريجياً نظام التّحالفات القبيليّة التي استند إليها الأمويّون حتّى نهاية السّلالة تقريباً، وكان من الواضح بوجود جيش منضبط ومخلص زمن مُواجَهته مع عليّ؛ أنّه بدأ هذه العمليّة خلال حكمه الذي دام عقدين من الزّمن في سوريّا.

وقد كان لهذه السّياسة مخاطرها! لأنّ القبائل ما برحت تتمتّع بالحكم الذّاتي، واستمرّت في العيش في السّهوب تحت حكم زعمائها، وعلى عكس النّبيّ والخلفاء الأربعة الأول، فقد احتفظ معاوية بحارس شخصيّ صغير _ يُقال إنّه كان الخليفة الأوّل الذي قام بذلك _ لكن لم يكن لديه قوّة نخبة كبيرة تحت قيادته الشّخصيّة والتي يمكن أن يستخدمها لتهديد القبائل الحليفة أو إجبارهم على الطّاعة، واحتفظت القبائل بالقدرة على تبديل الولاء، ومن منظور آخر، يمكن أن يكون ذلك ميزة؛ **لأنّه كان على معاوية تغذية تلك العلاقات والتّأكّد من أنّه ورجال القبائل يعرفون أنّهم يشتركون في المصالح ذاتها**، وكان التّباين مع العراق مدهشاً! فقد استقرّ هناك رجال القبائل على نحو دائم خاضعين للمُراقَبة والتّدابير القسريّة والرّقابة الإداريّة، ولم يكن هذا سهلاً كما اكتشف عثمان وعليّ، وقاومته القبائل بشراسة؛ وقد اعتمد كلاهما على سخاء الولاة ومع ذلك؛ طالبوا بحقوقهم

التّقليديّة، ولم يعد هؤلاء _ بدافع من صراعاتهم الدّاخليّة والاستياء المرير من نظام الخلافة _ قوّة عسكريّة فعّالة وموثوقة ومتماسكة! وعلى المدى الطّويل، لم يكن هناك من بديل لتسريحهم أو اختزالهم إلى مرتبة عسكريّة ثانويّة.

كان منصب معاوية بوصفه حاكماً لمقاطعة سوريّا فلسطين قويّاً بدرجة غير عاديّة، وذلك بحلول الوقت الذي اندلعت فيه الأزمة السّياسيّة الكبرى الثّالثة للإسلام في أواخر عام (655) (الأزمتان السّابقتان كانتا الهجرة في عام (622) وخلافة محمّد بعد عقد من الزّمن) فقد أقام علاقات وثيقة مع قبيلة كلب المهمّة من دون استعداء أيّ من المجموعات الرّئيسة الأخرى، وأنشأ من لا شيء قوّة بحريّة قويّة، وبنى جيشاً مُختبَراً في المعركة، وأقام علاقة فعّالة مع أساقفة سوريّا المماحكين (وهكذا، يمكن الاعتماد على خضوع رعاياه ذوي الأكثريّة السّاحقة من المسيحيّين).

وكانت سياسة معاوية الماليّة معتدلة بقدر ما نستطيع أن نقول، لذلك لم يكن مدفوعاً أبداً إلى وسائل يائسة ربّما تكون أجّجت أو أضعفت عزيمة المُقاطَعة، لقد أقام في حيز التّنفيذ دولة داخل الدولة، لكنّه كان متكتّماً ولبقاً لدرجة أنّ إنجازه ذهب من دون أن يلحظه أحد تقريباً، وكان حالاً يُحسد عليها، وكان مصمّماً على الاحتفاظ به.

# الفصل الرابع

# الحرب الأهليّة الأولى وصعود معاوية إلى السّلطة

# (661-656)

## الثّورة على عثمان:

أدّى مقتل عثمان عام (656) على يد متمرّدين مسلمين إلى توجيه الضّوء على معاوية، فقد كان على مدى عقدين من الزّمن إداريّاً وقائداً عسكريّاً موهوباً في سوريّا، لكنّنا لا نعرف عنه إلّا القليل نسبيّاً خلال تلك السّنين، ويرجع ذلك جزئيّاً إلى طبيعة المصادر التي كثيراً ما تكون عراقيّة الأصل والتّركيز، وجزئيّاً، بسبب نجاحه في بناء مُقاطَعة مستقرّة للغاية التي لم تكن سياساتها الدّاخليّة ذات أهمّيّة أخباريّة، وكانت مغامراته العسكريّة الجريئة والمُبتكَرة ضدّ البيزنطيّين ملحوظة على النّحو الواجب، وإن كان ذلك بإيجاز، لكنّنا لا نعرف مدى مُشارَكته في صراعات عثمان في العراق ومصر.

وعاد معاوية إلى الصّدارة مع وصول الأمور في العراق ومصر إلى درجة الغليان وذلك في أوائل خمسينيّات القرن السّادس، ويوجد عند الطّبريّ عدّة تقارير طويلة تحاول تحديد القضايا من خلال المُواجَهات

المُوسّعة بين معاوية والمعارضين الأتقياء (أو السّاخطين الذين لا يمكن إصلاحهم) الذين ينافسون سياسات عثمان، حيث يُظهِر معاوية في هذه المشاهد الدّراميّة صوت التّقوى الرّصينة والاعتدال والوحدة الإسلاميّة؛ على عكس تعنّت وتطرّف خصومه؛ وأمّا إذا كان أيّ من ذلك يعكس «معاوية حقيقة» فهو أمر مفتوح للنّقاش على أقلّ تقدير. لكن يبدو أنّ الطّبريّ _ وهو عالم دين رصين ومُثقّف بعمق _ أحسّ بأنّ معاوية كان متحدّثاً رسميّاً مقبولاً لمثل هذه الآراء، ومن النّادر في الأدب الإسلاميّ أن يظهر معاوية صوتاً حقيقيّاً للإسلام، لكن هنا؛ كان ذلك الصّوت تماماً!

كان الخليفة عثمان بحلول أوائل خمسينيّات القرن السّادس على خلاف مع عناصر مُعيّنة من قبائل الكوفة العربيّة الذين اعتقدوا في أنّ سياساته مارست التّمييز ضدّهم لصالح أعيان قريش الذين لم يعيشوا في العراق ولم يشاركوا في غزوه. كما إنّهم استاؤوا من الحكّام الذين عيّنهم، واتّهموهم بالفسادين الأخلاقيّ والماليّ، وقد كان الحكّام في الغالب من أقاربه الأمويّين _ **رجالٌ نظرَ الكثيرون إلى التزامهم بالإسلام بوصفه مشكوكاً فيه للغاية** _ ويبدو أنّهم مهتمّون أساساً بالمكاسب الشّخصيّة بطريقة غير نزيهة على حساب المسلمين الآخرين (وبالطبع الأكثر جدارة) والذين كانوا غرباء عن أولئك الذين حكموهم.

وتذكر إحدى الحوادث التي وقعت بين عامي (653-654) أنّ فرقة صغيرة من المنشقّين المتديّنين والمثيرين للنّزاع من الكوفة نُفيت إلى دمشق بناء على إصرار الوالي سعيد بن العاص بن أميّة الذي ذكر أنّهم كانوا يجعلون عمله شبه مستحيل، وصاروا في دمشق تحت إشراف معاوية الذي تصدّى لهم وأجبرهم من خلال فصاحته على الصّمت.

ومن المُؤكّد أنَّ الخُطب في الطّبريّ ليست مُنتَسَخاتٍ نصّيّةً لكلمات معاوية؛ إنها مُنقّحة للغاية، ومُشبعة جدّاً بالشّعور الدّينيّ الصّحيح سياسيّاً، ومتباينة للغاية في لغتها ونبرتها عن التّصريحات الأخرى المنسوبة إليه، (لكنّها _ ببساطة _ تفتقر إلى روح الدّعابة؛ وتعكس منتصف القرن الثّامن أكثر من منتصف القرن السّابع) **إنّها لا تعكس ما قاله حقيقة، ولكن ما اعتقد الطّبريّ _ أو بالأحرى مصادره _ في أنّه يجب أن يقوله**. وفي ضوء ذلك، فإنّها تعطينا تمثيلاً نادراً لمعاوية بِعدِّه داعية إلى الإسلام ومفسّراً له، كما إنّها من أكثر التّصريحات التي نمتلكها بلاغة حول الأيديولوجيّة الدّينيّة السّياسيّة الأمويّة.

هل هذه التّصريحات بأيّ حال من الأحوال كلمات وفكر معاوية؟ من المُؤكّد أنّ معاوية كان له إسهام ما في تحديد الأيديولوجيّة الأمويّة ولا شيء في هذه التّصريحات يتعارض مع ما نعرفه عن سياساته وأفعاله حين كان حاكماً أو خليفة، وهي تمثّل كيف فهم الجيل اللّاحق المبادئ التي يقوم عليها

حكمه، وكانت المسائل الرّئيسة في توبيخه للمنشقّين الكوفيّين الدّفاع عن أسبقيّة ومكانة قريش قبيلة النّبيّ، والصّحابة الأوائل والأمويّين. وكذلك ضرورة طاعة السّلطة المستقرّة والحفاظ على وحدة المسلمين. وأخيراً سلطة معاوية ومكانته في المجتمع الإسلاميّ. وقد خاطبهم معاوية قائلاً:

**... وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، ومواريثهم، وقد بلغني أنّكم نقمتم قريشاً وإنّ قريشاً لو لم تكن، لعدتم أذلّة كما كنتم. إنّ أئمّتكم [ولاتكم وخلفائكم] لكم إلى اليوم جُنّة، فلا تشذّوا عن جُنّتكم....**

**...إنّ قريشاً لم تُعزّ في جاهليّة ولا في إسلام إلّا بالله عزّ وجلّ، ولم تكن أكثر العرب، ولا أشدّهم، ولكنّهم كانوا أكرمهم أحساباً وأنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءة... هل تعرفون عرباً، أو عجماً، أو سوداً، أو حمراً إلّا قد أصابه الدّهر في بلده، وخرمه بدولة، إلّا ما كان من قريش؟ فإنّه لم يردهم أحد بكيد إلّا جعل الله خدّه الأسفل... فارتضى لذلك خير خلقه محمّداً، ثمّ ارتضى له أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً، ثمّ بنى هذا الملك عليهم،[1] وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك**

(1) كثيراً ما كان مصطلح «الملك» مصطلحاً ازدرائيّاً لمجرد القوة الدنيويّة، ولكنّه كلمة قرآنية؛ تعني «السيادة في الشؤون الأرضيّة»، وإذا منح الله الملك فهذا شرعي تماماً، وقد أنعم الله بالملك على داود وسليمان؛ كما في قوله: «تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ»، وأصرّ الخطاب السنّي على أنّ أبا بكر قد اتخذ على ما يبدو لقباً متواضعاً هو خليفة رسول

**إلّا عليهم، فكان الله يَحُوطُهُم في الجاهليّة وهم على كُفرهم بالله، أفتراهُ لا يَحُوطُهُمْ وهم على دينهِ؟**

وقد حول معاوية في مناسبة ثانية النّقاش إلى نفسه، ليبيّن أنّه حصل على منصبه بأعلى سلطة ممكنة، وأنّ حاله بوصفه مسلماً لا تشوبه شائبة، وهذا يمنحه الحقّ، بل الواجب في محاسبة المعارضين؛ حيث يقول:

**إنّي معيدٌ عليكُم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولاّني، وأدخلني في أمره، ثُمّ اسْتُخلفَ أبو بكرٍ فولاّني، ثُمّ اسْتُخلفَ عُمرَ فولاّني، ثُمّ اسْتُخلفَ عُثمانَ فولاّني، فلمْ أتولَّ لأحَد مِنهم ولمْ يُولّني إلّا وهو راضٍ عنّي، وإنّما طَلَبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للأعمالِ أهلَ الجزاءِ عنِ المُسلمينَ والغَناء، ولمْ يَطلُب لها أهلَ الاجتهادِ والجهلِ بها والضَّعف عنها.**[1]

ويقدّم الطّبريّ _ على عادته _ نسخة بديلة من المُواجَهة بين معاوية ومعارضي الكوفة مأخوذة من مصدر (محمّد بن عمر الواقديّ) ينتقد معاوية عادة، وكانت هذه الرّواية في هيئة نقاش أو حوار بين البطلين بدلاً

الله، ومع ذلك، أصرَّ الأمويون (بسلطة قرآنيّة جيّدة جدّاً) على خليفة الله، «نائب» أو «مُمثّل الله»، وقد يكون هذا هو الشكل الأقدم، وفي ترجمتي [المؤلف]، حاولت أن أعبّر عن الغموض الذي يكتنف الخلافة، فالقرآن يأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله.

(1) الطّبريّ، الخامس عشر، نقلاً عن سيف بن عمر، 118.

من سلسلة من الخطب لمعاوية، يتمسّك الكوفيّون فيها برأيهم على الرّغم من أنّ معاوية يبدو أنّه يملك الحجّة الأفضل، وقد اعتدوا عليه في غضبهم وإحباطهم، فأعادهم إلى الكوفة، وأرسلوا من هناك إلى حمص إلى والي معاوية نائب الحاكم صعب المراس عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد الذي أخضعهم من خلال إجبارهم على الاستقرار في مَضائِق طوروس على الحدود البيزنطيّة، ويؤكّد معاوية في هذا التّبادل على مزايا عائلته فيقول:

**... وقَدْ عَرَفَتْ قُريشٌ أنَّ أبَا سُفيانَ كان أكْرَمَهَا وابنَ أكْرَمِها، إلّا مَا جَعَلَ اللهُ لنبيّه نبي الرّحمة... وإنّي لأظُنُّ أنَّ أبَا سُفيانَ لو وُلِدَ النّاس لَمْ يَلِدْ إلّا حَازِماً... فَأَتُوبُ إلَى اللهِ، وآمُرُكُمْ بِتَقْوَاهُ وطاعتِهِ وطاعَةِ نبيّه (ص) ولُزُومِ الجماعةِ، وكراهةِ الفُرقَةِ، وأنْ تُوَقِّرُوا أَئِمّتَكُمْ وتَدُلُّوهُم على كُلِّ حَسَنٍ ما قَدَرْتُم، وتَعِظُوهُمْ في لِينٍ ولُطفٍ في شيءٍ إنْ كان مِنهُمْ.**

ويردّ صَعصعة (أحد المتحدّثين باسم المعارضين) قائلاً:

فَإِنّا نَأْمُرُكَ أنْ تعتَزِلَ عَملكَ، فإنَّ في المُسلمينَ منْ هو أَحَقّ بِهِ مِنْكَ.

فسأله معاوية: من هو؟. فقال صعصعة: من كَانَ أَبُوهُ أَرْسَخُ قَدَماً من أَبيكَ، وهو بِنَفْسِهِ أَرْسَخُ قَدَماً مِنكَ في الإِسلامِ.

فقال معاوية: واللهِ إنَّ لي في الإِسلامِ قَدَماً، وَلِغَيْرِي كَانَ أَرسخَ قَدَماً

**مِنِّي، ولكِنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانِي أَحَدٌ أَقْوَى على ما أنا فِيهِ مِنِّي، ولقدْ رَأَى ذلك عُمَرُ بنُ الخطَّاب، فلو كَانَ غَيْرِي أَقْوَى مِنِّي؛ لَمْ يَكُنْ لِي عِنْدَ عُمَرَ هَوَادَةٌ وَلا لِغَيْرِي، وَلَمْ أُحْدِثْ مِنَ الحَدَثِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْتَزِلَ عَمَلِي، ولو رَأَى ذَلِكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ وجماعةُ المسلمينَ، لَكَتَبَ إِلَيَّ بِخَطٍّ يَدِهِ فَاعْتَزَلْتُ عَمَلَهُ.**[1]

جعلت الثّورة ضدّ عثمان الأمورَ أكثر تعقيداً بشكل كبير، وتزخر الرّوايات التّاريخيّة الإسلاميّة بالادّعاءات والادّعاءات المضادّة فيما يتعلّق بعمل معاوية أثناء التّمرّد، ولا توجد طريقة مقنعة لحلّها، ويرى عديدون أنّ أفعاله سيّئة تماماً، كما لو كان يعلم أنّ كارثة على وشك الحدوث، وحاول استغلالها لتحقيق غاياته الأنانيّة. وهكذا، نصح ابنَ عمّه الأكبر بالالتزام بالسّياسات التي أوقعته الآن في ورطة عميقة، بينما يدّعي _ بلا شكّ أنّه كان محقّاً- أنّ مُحافَظته السّوريّة كانت على أساس متين، وجاء في رواية أخرى أنّ معاوية نصح عثمان بالانضمام إليه في سوريّا؛ حين كتب عثمان إلى حكّام المُقاطَعات طالباً المُساعَدة الفوريّة، واتّهمت بعض الرّوايات معاوية بالانتظار ليرى كيف ستسير الأمور قبل المُخاطَرة بإلزام نفسه، وأشار آخرون إلى أنّه حين أدرك معاوية مدى خطورة الحال، بدأ في التّخطيط ليكون خليفة لعثمان.[2]

---

(1) الطّبريّ، الخامس عشر، 122-123.

(2) الطبري، الخامس عشر، 136-138، 149-153، 185.

وتُظهِر رواياتٌ أخرى أفعاله في ضوء مؤات تماماً، ووفقاً لتلك الرّوايات، أرسل معاوية قوّات تحت قيادة الجنرال المفضّل لديه حبيب بن مسلمة الفهريّ (الذي كان يومئذ نائباً للحاكم في حمص) بمُجرّد أن أدرك مدى خطورة الحال، ومع ذلك، فإنّه بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى الحدود السّوريّة، كان الأوان قد فات، وأُجبروا على العودة إلى دمشق.[1] فقد اقتحم بعض المتمرّدين (تختلف أسماء المذنبين حسب من يروي القصّة) مسكن عثمان، وطعنوا الرّجل العجوز حتّى الموت. ويخبرنا سيف بن عمر أنَّ عثمان كان يقرأ القرآن حين تعرّض للاعتداء، وتناثرت دماؤه على الصّفحة المفتوحة، ولم يكتفوا بهذا التّجديف الشّنيع، إذ قاموا بقطع يد زوجته أثناء مُحاوَلتها درء الضّربة القاتلة، وبمداعبتها، ثمَّ نهبوا الدّار.[2]

(1) الطبري، الخامس عشر، 164، 259، 261.

(2) الطبري، الخامس عشر، 213-218.

## التّداعيات: من يستطيع المُطالَبة بحقّ الحكم؟

أيًا كان ما فعله معاوية أو لم يفعله خلال التّمرّد، فإنّه يواجه الآن أزمة خاصّة به! فقد أظهر ردُّ فعله جميعَ الصّفات التي اشتهر بها: السّماح للحال بالنّضوج قبل إلزام نفسه بمسار عمل، وإخفاء دوافعه ومقاصده عن نظر العموم، والتّخطيط طويل المدى جنباً إلى جنب **مع القدرة على اغتنام الفرص غير المُتوقَعة**، حليماً في بحثه عن الحلفاء حتّى في الوقت الذي قوّض فيه هوادة ولاءات مؤيّدي خصومه، وعلى استعداد ليكون قاسياً تماماً في اللّحظات الحرجة؛ وتختلف المصادر في العديد من الأمور ولكنّها تتّفق على هذه الصّورة.

سيطر المتمرّدون بمُجرّد موت عثمان بسرعة، وكان مُرشّحُهم للخلافة عليّاً بن أبي طالب، وكانوا في ذلك مدعومين بقوّة من قِبل أنصار المدينة،[1] وقد **أشادت أشياء كثيرة بـ «عليّ» ليكون خليفة لعثمان**؛ فقد كان ابن عمّ الرّسول الأوّل، وصهره بزواجه من فاطمة ابنة النّبيّ (ت عام 633) بعد

(1) «الأنصار» تعني «المساعدين» أو «الحلفاء»، هؤلاء هم أهل المدينة الذين دعوا محمد وأتباعه للحضور إلى واحتهم في عام 622، وشكلوا أغلبية كبيرة من مؤيَديه خلال السنوات التي قضاها هناك، وعلى الرغم من مساهمتهم الحيوية في قضية الإسلام خلال هذه المرحلة الحرجة وحقيقة أن المدينة كانت عاصمة الخلافة حتى عام 656، لعب الأنصار دوراً صغيراً على نحو مدهش في الفتوحات وبداية الخلافة، ومع ذلك، في أوقات مثل: الثورة ضد عثمان، كثيراً ما يظهرون بوصفهم فصيلاً مهماً.

ستّة أشهر فقط من والدها) وهو والد أحفاد محمّد (من خلال فاطمة) من الذّكور الباقين على قيد الحياة، الحسن والحسين، وقد اعتنق الإسلام في صباه، وربما كان أوّل من تحوّل إلى الإسلام من الذّكور، ولم يكن هناك من شكّ في تفانيه في قضيّة الإسلام وشجاعته في الدّفاع عنها، وولائه الثّابت لمحمّد، ويعتقد أنصاره في أنّه كان يمثل التّقوى الشّخصيّة والتّفاني في العدالة التي كانت السّمات المميّزة للتّشريع الذي قدّمه محمّد. ولم يكن عليّ قد شغل منصباً في عهد عثمان، ومع أنّه وجّه انتقاداته مباشرة إلى عثمان ـ ليس في العلن ـ فقد صُوّر بوصفه أحد أقسى منتقديه وأكثرهم استعصاء. وهكذا كان لعلّي مؤهّلات دينيّة قويّة، وكان المنشقّون في العراق ومصر واثقين بأنّه سيعيد الأيّام الجميلة الماضية التي ازدهروا في ظلّها في زمن الفتوحات الأولى. ولم يكن عليّ جزءاً من الجهاز الحكوميّ لعثمان، وكان غريباً، فارساً على فرس أبيض طاهر.

لم يكن عليّ شابّاً، مثل معاوية، ولا بدّ من أنّه كان في مُنتصَف الخمسينيّات من عمره بحلول ذلك الزّمن، ولم يقم في عهد أسلافه الثّلاثة بأيّ عمل رئيس في الشّؤون العامّة، وقد كانت شجاعته في حروب الرّدة (632-633) غير عاديّة، لكنّه لم يكن يتولّى أيّ قيادات عسكريّة أو ولايات خلال الفتوحات بين عامي (634) و (656). ومكث متنقّلاً بين في المدينة المُنوّرة ومكّة، حيث يظهر على نحو دوريّ بوصفه مفسّراً في الشّؤون الدّينيّة أو ناقداً لسياسات الخلافة، ويعدّ هذا الرّبع من القرن

القريب من الغموض مدهشاً! ولكنّه ليس بعيد الاحتمال، إذ لم يكن عليّ على علاقة جيّدة مع دائرة أبي بكر وعمر أو مع عثمان والأمويّين. وتخبرنا بعض المصادر المُعتَرَف بها مع نزعة شيعيّة، بأنّه في وقت وفاة الرّسول كان له مؤيّدون يريدون أن تذهب الخلافة إليه، وحين قُتل عمر في عام (644) تمّ تجاوز عليّ مرّة أخرى لصالح عثمان المتديّن؛ ولكنْ المسنُّ ومتوسّطُ القدرة (على الأقلّ هكذا كان ينظر إليه أتباع عليّ) وسيطر أنصار عليّ في الاضطرابات التي أعقبت وفاة عثمان أخيراً على الأمور، ولم يتمّ إنكارهم.[1]

وقد أثار هتاف المتمردين وأنصار المدينة المشكلات لعليّ، وتنكر أكثر المصادر أنّه شارك بنشاط في التّمرّد أو حرّض عليه، لكن مثل هذا الإنكار يشير ضمنيّاً إلى أنّ هذه الاتّهامات قد تمّ توجيهها، سواء أكانت قائمة على أسس سليمة أم لا، وبالنّسبة لبعض الجماعات (على سبيل المثال، المتمرّدون المصريّون والعراقيّون وبعض أهل المدينة) فإنّ مُشارَكة عليّ كان من شأنها أن تعود بالكامل في صالحه. ومهما كانت الحقيقة، فقد كان اسمه على

---

(1) القراء الذين يريدون تقييمًا أكثر تعاطفاً لدور علي في بداية الخلافة _ وسرد أكثر انتقاداً لمنافسيه _ سيجدونه في كتاب ويلفيرد ماديلونج الموثق بعناية والذي نوقش عن كثب، «The Succession to Muhammad» (كامبريدج، 1997)، ويمكن انتقاد ماديلونج لاستناده على نحو كبير إلى مصادر من أصل شيعي، لكنه يجلب الكثير من المواد الجديدة للنقاش وتستحق حججه واستنتاجاته دراسة متأنية.

لسان المتمرّدين وكان أكثر من سيفيد على نحو مباشر إذا تمّ خلع عثمان، وحين انسحب من المدينة المُنَوّرة في ذروة الأزمة، أصبح عرضة للاتّهام بأنّه سمح للأحداث بأن تأخذ مجراها من دون أن يحاول مُحاوَلة جدّيّة لوقف أعمال العنف. (القصص عن أبناء الدّائرة المُقرّبة من الصّحابة، بما في ذلك الحسن والحسين، الذين كانوا يحرسون بيت عثمان غير مقنعة)، والأهمّ من ذلك، أنّه عندما قبل هتاف المتمرّدين الملطّخين بالدماء، أصبح شريكاً في أعمالهم، وموافقاً فعليّاً على حقّ قتلة الخليفة في انتخاب الشّخص التّالي، كما إنّه اتّخذ رأياً حزبيّاً فيما يتعلّق بعثمان، حيث قبل فكرة أنّ تصرّفات الرّجل العجوز بوصفه خليفة؛ تعني أنّه قد استحق إعدامه. وقد كانت حال عليّ بوصفه خليفة تعتمد على دعم قتلة عثمان، وإذا أراد ذلك، فلن يتمكّن من الاستجابة لمطالب الأمويّين الأنفس؛ والتي لا تزال محفوفة بالمخاطر في القيادة الإسلاميّة. ولو كان قد تعرّف على عليّ منذ البداية، لما بقي لمعاوية أوراق للّعب، لقد كان حذراً، ودعا إلى تشكيل مجلس من قادة المسلمين (الشّورى) لتسمية أنسب خليفة لعثمان لكنّه لم يقدّم أيّ مُطالَبات خاصّة به، ولم يتّهم عليّاً بارتكاب أخطاء شخصيّة.

راقب معاوية وانتظر، بينما تحرّك فصيل آخر لإنكار خلافة عليّ، وتتكوّن هذه المجموعة من عائشة ونسيبها طلحة بن عبيد الله وابن عمّة الرّسول الزّبير بن العوّام. وقد كان هؤلاء جميعهم ينتمون إلى الدائرة الأقرب من صحابة النبيّ، فقد كانت عائشة ابنة أبي بكر والزّوجة المُفضّلة للنّبيّ، وكان

طلحة والزّبير من أوائل المتحوّلين المتحمّسين الذين ناضلوا بشجاعة وقوّة من أجل انتصار الإسلام. وعلى الرّغم من أنّ الثّلاثة كانوا من أشدّ المنتقدين لعثمان، إلّا أنّهم زعموا أنّهم صُدموا بقتله (لكن من المُسلّم به أنّهم لم يفعلوا شيئاً قيّماً لمنع وقوعه) **وعلى أساس تحوّلهما المبكر ومكانتهما في الإسلام، يمكن لطلحة والزّبير الادّعاء بأنّ حقّهم في خلافة عثمان كان مساوياً لحقّ عليّ، وكان من مصلحتهما رفض أيّ تورّط مع قتلته.**

ربّما كان هناك عامل آخر في مُعارضَتهما مرتبط بالحادثة الشّهيرة «الإفْك» إذ تبدو القصّة حقيقيّة بالنّسبة لي؛ إذ بالكاد تمّ تلفيقها، لأنّها تجعل كلّ المعنيّين يبدون سيّئين؛ وهو تماماً نوع الفضيحة التي يتذكّرها النّاس، وتروي القصّة أنّه في وقت مبكر من زواج عائشة، حين كانت صغيرة جدّاً (ربّما كانت تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط) انفصلت عن القوّة الاستكشافيّة التي كانت ترافقها _ كانت في إحدى النّسخ من القصّة تتجوّل للعثور على قلادتها التي فقدتها _ ووجدت نفسَها تائهة وحيدة، وتمّ إنقاذها من قِبل شابّ وسيم للغاية؛ وجدها بالقرب من موقع المُخيّم المهجور للبعثة وأعادها إلى المدينة؛ وانتشرت الشّائعات واتُّهمت بسلوك غير لائق، إن لم يكن غير أخلاقيّ على نحو صارخ، ونفت عائشة ذلك بشدّة، لكنّ عليّاً طالب النّبيّ بأن يطلّقها في الحال خشية أن يفسد مقامه واستقامته، وقال له: لم يُضيِّقِ اللهُ عَليكَ، والنّساءُ سِواها كثيرٌ. **فسعى الرّسول إلى الهداية الإلهيّة للحصول على حلّ وهو عالق**

**بين المعايير الأخلاقيّة التّقليديّة، واحتجاجات قريب له كان من أوائل أتباعه وأكثرهم التزاماً، وبين عاطفته لعائشة، وعلاقاته الشّخصيّة الوثيقة بوالدها أبي بكر (الذي كان في سنّه) ومثل عليّ؛ أحد أوائل المتحوّلين، إلى** أن جاء الحلّ في سورة النّور: الآيات (4-9) التي تنصّ على أنّ الاتّهامات بالفجور الجنسيّ ضدّ مرأة مسلمة يجب أن تُصدّق بشهادة أربعة شهود عيان ذكور ذوي شخصيّات جيّدة.[1] وتمّ إنقاذ عائشة وزواجها، لكنّني أظنّ أنّها لم تغفر لعليّ اتّهاماته أو، الأسوأ تقريباً، الطّريقة المهينة التي تحدّث بها عنها.

بعد أن أقسم الزّبير ورفيقاه (تحت الإكراه، ادّعوا لاحقاً) الولاء لعليّ، سحب الثّلاثة قسمهم بسرعة وشقّوا طريقهم إلى البصرة في العراق ليشكّلوا جيشاً من المُعارَضة لعليّ، وتبعهم عليّ وقام بتجنيد قوّات خاصّة به في الكوفة وواجَهَهم في «**معركة الجمل**» الشّهيرة صيف عام (656)؛ وقد سارت هذه المعركة على الرّغم من خوضها بمرارة على نحو كارثيّ بالنّسبة لعائشة وحلفائها، فقد قُتل طلحة والزّبير وأُعيدت عائشة التي كانت جالسة على جملها في قلب المعركة إلى المدينة المُنوّرة، حيث أقامت

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: يُقصد بالعيان أنّهم شهدوا الفعل الجنسّي بكامل تفصيلاته ودقائقه، وأشير إلى أنّ الشّريعة طلبت وجوب تطابق شهاداتهم، فإنّ تطابقت ولم يكونوا أربعة أو كانوا أربعة واختلفت شهاداتهم ولو بتفصيلات قليلة؛ عوقبوا جميعاً بعقوبتين جسديّة بثمانين جلدة لكلّ واحد. ومعنويّة بالتّجريد من الحقوق المدنيّة، المُعبّر عنها بقول الله تعالى:... ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً.]

بشرف، ولكن خارج السّاحة السّياسيّة حتّى آخر أيّامها.

أوضحت معركة الجمل بشكل كبير الأحوال التي تواجه معاوية، وقد سيطر عليّ على الحجاز والعراق؛ وكان القائمُ بأعمال حاكم مصر في معسكره أيضاً، وترك ذلك معاويةَ معزولاً في سوريّا، ومع ذلك، لا يزال يتمتع بدعم لا يتزعزع من قبل القوّات العشائريّة السّوريّة، والتي ربّما تكون أكثر القوّات انضباطاً في الجيش الإسلاميّ، وزيادة على ذلك، فقد عزل من المشهد اثنين من المُرشّحين الأكثر قبولاً للخلافة _ ربّما المُرشّحان الوحيدان المقبولان بخلاف عليّ. وربّما كانت هذه هي المسألة التي تصوّر معاوية فيها فكرة السّعي وراء الخلافة؛ لكن بالنّظر إلى عدم وجود ادّعاء واضح بها، لم يتمكّن من تحقيق ذلك إلّا من خلال البحث عن طرق لتقويض حال عليّ والإفادة من التّطوّرات التي حصلت. ومع ذلك، فمن الممكن أيضاً أنّه كان مهتمّاً على نحو أساسيّ بتأمين منصبه في سوريّا، حيث بنى بصبر مثل هذه القاعدة السّياسيّة الصّلبة على مدى عشرين عاماً وكان حاكماً مستقلاً. وقد كان الاحتفاظ بالسّيطرة على سوريّا بالتّأكيد هدف معاوية المباشر، ولو أكّد عليّ تعيينه في ذلك المنصب؛ لربّما كان راضياً.

## المُواجَهة بين عليّ ومعاوية:

على الرّغم من أنّ منصب عليّ بوصفه خليفة لم يُطعن فيه بعد معركة الجمل، إلّا أنّ معاوية رفض أن يبايعه، وطالب بأن يحدّد عليّ هويّة المسؤولين عن مقتل عثمان وتسليمهم إليه من أجل القصاص لتحريض قوّاته، ويقال: إنّه رفع أمام الجمهور قميص عثمان المُدمّى وأخذ يلوّح به. والرّواية التّالية _ حرفيّاً _ على الأقلّ بحسب سيف بن عمر، ذو الألوان الدّائمة:

[لمّا قدِم رسولٌ من المدينة] «بقميصِ عُثمان رضي الله عنه _ الذي قُتِلَ فيه مُخَضَّباً بِدَمِهِ؛ وبأصَابعِ نائلة زوجتهِ مقطوعةً البَرَاجِمِ،[1] أصْبُعانِ مِنْهَا وشيءٌ من الكفِّ، وأصْبُعانِ مقطوعتَانِ من أُصُولِهِا ونصفُ الإبهام؛ وضعَ مُعاويةُ القميص على المِنبرِ، وكتبَ بالخبرِ إلى الأجناد، وثَابَ إليهِ النَّاسُ، وبَكوا سنةً وهو على المِنبَرِ والأصابعِ مُعَلَّقةً فيه، وآلى الرّجَالُ[2] من أهلِ الشَّامِ ألا يَأْتُوا النِّساءَ، ولا يَمَسَّهُمُ الماءَ لِلغُسْلِ إلّا من احْتِلامٍ، ولا يَنامُوا على الفُرُشِ حَتّى يَقتُلُوا قَتَلَةَ عُثْمَانَ ومَن عَرَضَ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ؛ أَوْ تَفْنَى أَرْوَاحُهُمْ. فَمَكَثُوا حَوْلَ الْقَمِيصِ سَنَةً، وَالْقَمِيصُ يُوضَعُ كُلَّ يَوْمٍ

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: البراجم جمع برجمة وهي المفصل الظاهر من أصابع اليد مما يلي الأظافر.]

(2) [إضافة المقوّم اللّغويّ: آلى الرجال: حافوا الأيمان.]

عَلَى المِنْبَرِ وَيُجَلِّلُهُ أَحْيَاناً فَيَلْبَسُهُ وَعَلَّقَ فِي أَرْدَانِهِ[1] أَصَابِعَ نَائِلَةَ»[2].

كان معاوية يتصرّف بوصفه قريباً لعثمان والمتحدّث الرّسميّ لمقام عشيرته _ أولياء الدّم وأصحاب الحقّ في القصاص _ بوصفه ابنَ عمّ عثمان من الدّرجة الثّانية؛ ولم يكن أقربَ أقاربه من الذّكور، بل كان أقربَهم مروانُ بنُ الحكم، لكنّ مروان الذي كان حاضراً الكارثة في المدينة، كان منبوذاً سياسيّاً، وليس في حال تسمح له بتأكيد مزاعم الأسرة بينما كان معاوية في حال يسمح له بذلك.[3]

وقد كان لعليّ كلّ الأسباب التي تدعو للاشتباه في حسن نيّة معاوية، واستمرّ في المُطالَبة بيمين الولاء غير المشروط، وكان على عليّ في خضمّ الفوضى التي أحدثها موت عثمان ومعركة الجمل؛ أن يثبّت سلطته بوصفه أميراً للمؤمنين بسرعة وحسم، **إذ إنّه من دون السّلطة التي لا جدال فيها لتعيين أو عزل حكّام الأقاليم حسب ما يراه مناسباً؛ فإنّ منصبه رئيساً**

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: الأردان جمع ردن. وهو مدخل اليد ومخرجها من الثوب.]

(2) الطّبريّ، الجزء السادس عشر، 196-197.

(3) اتهُم مروان بأنه نصح عثمان بالتعامل بخيانة مع فرقة الجنود الذين أتوا إلى المدينة من مصر للمطالبة برد مظالمهم، وزعم آخرون أنه حرض على الكارثة الأخيرة التي انتهت بمقتل عثمان، وأخيراً، اتُهم بقتل قريب عائشة، طلحة، في معركة الجمل، رغم أنه كان ظاهرياً عضواً في تحالفها، وبصرف النظر عن جوهر أو أصل هذه الادعاءات، فمن الواضح أنه كان شخصية مثيرة للانقسام للغاية وليس الرجل الذي يحشد الدعم ضد علي.

لجماعة المسلمين سوف يتقوّض بشدة، وإذا فرض معاوية شروطاً ثمناً لطاعته، فيمكن لأيّ حاكم إقليميّ فعل الشّيء ذاته أيضاً! وستفقد الخلافة ما تبقّى من تماسكها وهيكلها، وتذوب في كونفدراليّة رمزيّة بحتة من الإمارات المستقلّة، وبصرف النّظر عن أيّ عواقب طويلة المدى، كان قلب ولاء قتلة عثمان ليكون ضدّ معاوية أمراً مستحيلاً سياسيّاً؛ لأنّ ذلك كان سيقوّض تحالف عليّ.

تدهورت الحال إلى صراع مفتوح! وانطلق عليّ أوائل صيف عام (657) من الكوفة على رأس جيشه (تمّ تجنيد أكثره من رجال القبائل العربيّة المقيمين في الكوفة) لإجبار معاوية إمّا على الاعتراف به خليفة أو الإطاحة به؛ وتقدّم معاوية مع قوّاته السّوريّة نحو نهر الفرات، والتقى الطّرفان في صِفّين (بالقرب من الرّقة الحديثة). وكانت هناك دوّامة مُشوّشة من المُناوَشات والغارات الصّغيرة استمرّت لعدّة أسابيع، وهو الأمر الذي أدّى في النّهاية إلى معركة شاملة. وعلى الرّغم من القصص والرّوايات التي تملأ مُجلّدات حول الأعمال البطوليّة في التّراث العربيّ؛ إلّا أنّنا لا نعرف تماماً كيف انتهى القتال.

تقول المصادر العربيّة التي يهيمن عليها العراقيّون ووجهاتُ نظر المؤيّدين لآل عليّ: إنّ رجال عليّ كان لهم اليد العليا، وكانوا على وشك الانتصار، وحين رفع جنود معاوية أوراق القرآن وجعلوها على رماحهم،

ورفعوها عالياً وهتفوا: «إنِ الحُكْمُ إلا لله!» دفعت هذه المُبادَرة المذهلة عناصر أتقياء في جيش عليّ إلى الدّعوة إلى هدنة، خشية أن يستمرّ المسلمون في قتل المسلمين، ولإحالة الأمر إلى محكّمِين يـ ـحون إلى مبادئ التّسوية في القرآن _ أي في قول الله في مثل هذه الأحوال.

قاوم عليّ _ الذي رأى النّصر يُنتزع من قبضته _ هذه المطالب على قدر ما أمكنه، لكن في النّهاية كان التّهديد بالانشقاق كبيراً، واضطُرّ إلى التّنازل. وليس لدينا روايات سوريّة إسلاميّة موازية، لكن تشير المصادر المسيحيّة إلى أنّ معاوية حصل على الجزء الأفضل من النّضال وأجبر عليّاً على التّنحّي.[1] وربّما يكون أفضل تفسير لصفّين أنها حال من الجمود العسكريّ أو معركة لم يكن فيها الجيش المنتصر في حال يسمح له بمُتابَعة تفوّقه، وقد كانت المعركة دمويّة للغاية، وربما كان مستوى المذابح المروّع بين المسلمين هو السّبب الذي دعا الكثيرين إلى وقف القتال.

ومهما كانت الأحوال المباشرة، فقد تراجعت الجيوش إلى قواعدها الرّئيسة وعُرض الأمر على التّحكيم، ووصل جوهر اتّفاق التّحكيم الذي وُضع في صفّين إلينا،[2] والمقطع الرّئيس هو: إنّا ننزل عِنْدَ حكم اللَّه عَزَّ

---

(1) هناك إشارة موجزة إلى انتصار سوريّ في تاريخ الطّبريّ، الجزء الثامن عشر، ص 148، لكن من الصعب معرفة ما يجب فعله.

(2) مارتن هيندز، «The Siffin Arbitration Agreement»، JSS 17 (1982)، 93-128.

وَجَلَّ وكتابه، وَلا يجمع بيننا غيرُه، وإنّ كتاب اللّه عَزَّ وَجَلَّ بيننا من فاتحته إِلَى خاتمته، نُحْيِي مَا أحيا، ونميت مَا أمات، فما وجد الحكمان فِي كتاب اللّه عَزَّ وَجَلَّ _ وهما أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيّ عَبْد اللَّهِ بن قيس، وعمرو بن الْعَاصِ القريشيّ _ عمِلا بِهِ، وما لم يجدا فِي كتاب اللّه عَزَّ وَجَلَّ فالسّنّة العادلة الجامعة غير المفرّقة.[1]

**يصعب تفسير هذه الاتّفاقيّة لأنّنا لا نعرف تماماً ما تعنيه العديد من المُصطلَحات الأساسيّة لمن كتبوها، فعلى سبيل المثال، ما هو التّوجيه الذي توقّع المُحكّمون العثور عليه في كتاب الله (أي القرآن)؟ نحن لا نعلم؛ إذ يقول القرآن القليلَ حول الحكومة والحكم، ولا يصف حالاً مثل هذا أبداً، وربّما كانوا يبحثون عن وصايا أخلاقيّة توضّح ما إذا كان عثمان يستحقّ الموت من أجل أفعاله وهو الخليفة أم لا. وبالمثل، ما هي «السّنّة العادلة الجامعة غير المفرّقة»؟ هناك العديد من الاقتراحات المُبتكَرة، ولكن لا توجد إجابات مُحدّدة.**

كان مِن المُقرّر أن يكون التّحكيم مفتوحاً؛ وكان الغرض منه حلّ النّزاع وديّاً قدر الإمكان، وكان الحلّ الواضح تثبيتَ عليّ خليفة، وضمانَ معاوية حكمَه في سوريّا ومنحَ الحصانة للمتمرّدين (باستثناء عدد قليل من أكباش فداء من قبائل ضعيفة!) ولا شكّ في أنّ الكثيرين، ولا سيّما أنّ أصحاب

---

(1) الطّبريّ، السّابع عشر، 85 - 86.

التّقوى من أهل الكوفة الذين حثّوا عليّاً على قبول التّحكيم، اعتقدوا في أنّ الأمور ستنتهي.

وهكذا انتقى كلّ بطل من أبطال القصّة ممثّله الخاصّ، فاختار معاوية عمرو بن العاص؛ الإداريّ والجنديّ الموهوب، ولم يكن رجلاً فوق **الانتهازيّة السّاخرة**، بل كان ينوي ـ على حسب سير الأمور ـ **أن يكون في الجانب الرّابح!** وقد كان عمرو فاتحَ مصر وأوّلَ حاكم لها، لكنّ عثمان طرده، وكان يعيش متقاعداً في أرضه في فلسطين منذ عدّة سنين، وكثيراً ما يتمّ تصويره بأنّه الوجه الآخر من شخصيّة معاوية، لكنّ مجموعة من القصص تُظهِر أنّ العلاقات بينهما كانت متوتّرة وصعبة، وكان سيفعل عليّ حسناً في اختيار أنصاريٍّ بذات القدر من الحزبيّة، لكنّ أصحاب التّقوى بين أتباعه دفعوه إلى تعيين أبي موسى الأشعريّ، وهو رجل يتمتّع بخبرتين سياسيّة وعسكريّة كبيرتين، وكان حاكماً للكوفة والبصرة في عهد عمر وعثمان، ومعروفاً بالتّقوى الشّخصيّة، ولكن أيضاً بسذاجة مُعيّنة، والأسوأ من ذلك أنّه بدا غير مبال بنتيجة الصّراع الحاليّ، وقد كان آخر حاكم لعثمان في الكوفة على أساس أنّه سيحكم بدقّة وفقاً لرغبات رجال القبائل، وعلى الرّغم من أنّه قبل عليّاً بوصفه خليفة واستمرّ لمدّة وجيزة في منصب والٍ على الكوفة تحت قيادته، إلّا أنّه عارض الحرب ضدّ معاوية.

كانت القضايا غير مُحدّدة ومفتوحة المدّة، وكانت مهمة المُحكّمين استعادة السّلام، ومع ذلك، ففي الوثيقة المُتّفق عليها بين عليّ ومعاوية، والتي حدّدت شروط التّحكيم؛ **اضطرّ عليّ إلى حذف لقبه أمير المؤمنين واضعاً معاوية ونفسه على ذات المستوى.** ولم يطالب معاوية حتّى الآن علانية بالخلافة على الرّغم من أنّ ضعف الحال السّياسيّة لعليّ كان واضحاً الآن.

وتقدّم المصادر العربيّة روايات ملتوية ومتناقضة عن التّحكيم، لكنّ النّتيجة كانت في عام (658) التّصريح المذهل لعمرو بن العاص وأبي موسى بأنّ عليّاً يجب أن يترك الخلافة وحتمية إجراء انتخابات جديدة؛ يمكن أن يكون عليّ مرشحاً فيها لكن لن يكون هناك أيّ افتراض في صالحه، وبطبيعة الحال، لم يقبل عليّ هذا الحكم، لكنّه قوّض على نحو خطير شرعيّة ادّعائه.

كان عليّ يواجه الآن مشكلات أكثر إلحاحاً من المشكلات القانونيّة والدّستوريّة، فقد كانت قوّاته العراقيّة منقسمة بشدّة بشأن التّحكيم، حيث أعرب الكثيرون عن أسفهم لمطلبهم بالوصول إلى تسوية تفاوضيّة بمُجرّد الاتّفاق عليها، وقد أدركوا بعد فوات الأوان أنّ سلوكهم يعني ضمناً أنّهم يعتقدون في أنّ قضيّة عليّ عرضة للشّكوك، وجادلوا في أنّ على عليّ مقاتلة معاوية حتّى النّهاية، وحين لم يرغب بالتّخلّي عن الهدنة هجروا حرفيّاً،

وباءت بالفشل كلّ الجهود المبذولة لإقناعهم والتّوفيق بينهم، وأطلقوا على أنفسهم اسم **الخوارج**، وهو مُصطلَح سرعان ما تمّ تفسيره بأنّه «أولئك الذين يتخلّون عن جماعة المؤمنين» أي الانفصاليّين أو المتمرّدين، لكن في الأصل، كان له المعنى المعاكس تماماً لـ«أولئك الذين يذهبون لخدمة قضيّة الله».[1] وتمّ في العقود التّالية تسمية العديد من المجموعات المختلفة التي لم يكن لأكثرها روابط تنظيميّة مع بعضها بعضاً «الخوارج» وتشترك هذه الجماعات في توجّه واسع: التّفاني في التّقوى الزّهديّة، والإصرار على ضرورة إطاعة القادة السّياسيّين ما داموا لم يقعوا في الخطأ (سواء الأخلاقيّ أو السّياسيّ) **والاعتقاد في أنّ من يُسمَّون المسلمين الذين رفضوا مبادئهم كانوا كفاراً!** وقد أكسبهم تفانيهم الذي لا هوادة فيه للمبدأ المُطلّق ـ كما فهموه ـ الخوف وأحياناً الإعجاب على مضض من قبل المراقبين المسلمين الأوائل.

لم يكن عند العناصر الأخرى في تحالف عليّ ـ لاسيّما زعماء القبائل الكبرى ـ الرّغبة في العودة إلى الحرب، وقد كانوا على استعداد لإعادة المنشقّين إلى الصّف، ولكن ليس لتجديد الصّراع. وكان رجال معاوية ملتزمين بقضيّته، بينما كان رجال عليّ ملتزمين بقضيّتهم هم فقط، وأزال

(1) يبدو أنه مشتق من القرآن، سورة النساء: الآية 100 - «وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ». باتريشيا كرون وفريتز زيمرمان، «*The Epistle of Salim ibn Dhakwan*»، ص 275-278.

معاوية من خلال الخداع السّياسيّ أو السّمّ (كما يعتقد النّاس) أزال تعاقب حكّام عليّ في مصر ـ حتّى من قبل أن يصل إلى هناك ـ وأعاد تنصيب عمرو بن العاص؛ لذلك كان عمرو في الجانب الفائز، وقد استعاد وظيفته القديمة، وإن كان ذلك بمُفارَقة طفيفة (والتي لا بدّ أنّه قدّرها) أنّه أصبح الآن مُعيّناً من قِبل رجل كان مرؤوساً عسكريّاً له قبل عشرين عاماً في فلسطين.

كان موقع عليّ في الحجاز يتآكل، وواجه في العراق مُعارَضة مُسلّحة من الخوارج؛ المتديّنين المسلّحين المنشقّين عن صفوفه، وحاول عليّ إقناعهم ثمّ إجبارهم على الانضمام إلى قضيّته؛ وألحق بهم هزيمة دمويّة في معركة النّهروان سنة (658) لكنّه لم يسحقهم نهائيّاً أو ينتصر عليهم، وأمضى بقيّة حياته يسير في العراق ذهاباً وإياباً في مُحاوَلة للسّيطرة على الأضرار، بينما كان لمعاوية حرّيّة التّصرّف في مكان آخر، وكان معاوية بحلول عام (660) قادراً على شنّ غارات والقيام بحملات استطلاع في العراق على الرّغم من أنّه لم يخاطر قطّ بمُواجَهة كبيرة.

اتّخذ معاوية في تمّوز سنة (660) خطوة جريئة بإعلان نفسه خليفة من قِبل قوّاته، ومن غير المُؤكّد متّى بالتّحديد قرّر اتّخاذ هذه الخطوة الجسيمة؛ وقد وُجد بالتّأكيد خطر سياسيّ كبير في هذه الأحوال بعد إعلان نتائج التّحكيم أوائل عام (658) ولكن (في تقديري) ربّما بعد معركة النّهروان،

حين أصبح تفكّك قضيّة عليّ أمراً لا رجعة فيه، وكان على شخصٍ ما أن يتولّى المسؤوليّة، لأنّ المشروع الإسلاميّ بأكمله والإمبراطوريّة التي تمّ تشكيلها مُؤخّراً والخلافة والدّين ذاته، كان مُعرّضاً لخطر وشيك بالانهيار، ويُعزى ذلك جزئيّاً إلى مكائده، فقد كان معاوية حرفيّاً الرّجل الوحيد الذي يمتلك الموارد السّياسيّة والعسكريّة المُتاحة لاستعادة الوحدة في عالم الإسلام، وربّما كان الوحيد المُستعدّ لفعل ما هو ضروريّ لتحقيق هذا الهدف.

جاء تحوّل الأحداث الدّراماتيكيّ الذّكيّ مع قيام معاوية في القدس، ويروي أحد المصادر أنّ معاوية، قام _ في جزء من الاحتفالات _ بزيارة كنيسة القيامة وكنيسة القدّيسة مريم التي تشير إلى قبرها؛[1] **وقد تجاوزت هذه الأعمال مُجرّد ربط نفسه بقداسة المدينة المُقدّسة**، فقد كانت هذه الأماكن مسيحيّة على وجه التّحديد، وكان القبر المُقدّس يمثّل عقيدة (حقيقة الصّلب والقيامة) ينكرها القرآن صراحة. ولا يمكننا أن نعرف بالضّبط ماذا كانت نواياه في تنفيذ هذه الأعمال (بافتراض حدوثها فعلاً) ولكن هناك احتمالان: **أوّلاً**: على المستوى السّياسيّ، تولّى عملاً رئيساً للإمبراطور الرّومانيّ، وجعل نفسه المدافع والوصيّ على

(1) «Maronite Chronicle» في سجلات غرب سوريا، ص 31. فلهاوزن، «The Arab Kingdom and its Fall»، ص 134. يتم إعادة النظر في هذه الحادثة لاحقاً في سياق مختلف؛ انظر ص. 127. انظر أيضاً Heribert Busse، JSAI، 9 (1987)، 279 - 289.

الأماكن المُقدّسة في القدس، وهكذا، يمكن أن يقدّم نفسه أنّه صاحب السّيادة على كلّ من المسيحيّين والمسلمين. **ثانياً**: من خلال إحياء ذكرى النّبيّ عيسى علانية، يمكنه التّأكيد على الاستمراريّة غير المنقطعة بين الدّيانتين، وإظهار أنّ الإسلام لم يأت ليحلّ محلّ المسيحيّة بل لتحقيقها. لندرك في النهاية نوايا معاوية الحقيقيّة والغامضة، وقد تكون هذه هي الطّريقة التي أرادها.

# الفصل الخامس

## أمير المؤمنين (661-680)

انتهت المُواجهة بين عليّ ومعاوية على نحو مفاجئ في عام (661) حين طُعن عليّ حتّى الموت في مسجد النّجف[1] على يد (ابن ملجم) المُنشقّ عن أنصاره السّابقين، وتنصّ إحدى الروايات على أنّه كانت هناك **مُؤامَرة لقتل معاوية في ذات الوقت أيضاً**، ولكن تمّ اعتراض قاتل معاوية والتّخلّص منه. ووقف معاوية الآن بمُفرَده، وكان منافسه المُحتمَل الوحيد هو الحسن الابن الأكبر لعليّ وفاطمة، لكنّه لم يكن مهتمّاً بالسّياسة، وعرض معاوية عليه «حزمة تقاعد» سخيّة قَبِلَها عن طيب خاطر بعد بعض المُساوَمات، وعاش من صيف عام (661) بقيّة حياته في الحجاز، وبحسب تقول الرّوايات الشّيعيّة أنّه في عام (669) قام معاوية بتسميمه خلسة لمنعه من تغيير رأيه؛ لكن لا يوجد دليل جيّد يدعم هذه التّهمة.

كان الحسن رجلاً في منتصف العمر وربّما كان مُصاباً بأمراض كثيرة. ويقدّم الشّيعة الإماميّون جميع الأئمّة (باستثناء الإمام الثّاني عشر الذي

(1) [تعليق المترجم: المقصود به مسجد الكوفة؛ إذ لم يكن يومذاك يسمى هذا المسجد مسجد النجف، بل مسجد الكوفة، وهو ثالث أكبر مسجد في العراق]

طال انتظاره) بوصفهم استُشهدوا بسبب **العنف السّنّيّ**؛ والموت الطّبيعيّ ليس خياراً وارداً.

اضطرّ معاوية على نحو عاجل إلى إقامة سلطته في العراق، حيث كان يُنظر إليه بمشاعر تتراوح بين الكراهية واللّامبالاة، وقد احتاج إلى حكّام يمكنهم استرضاء أو قمع أنصار عليّ، وإخضاع فرق الخوارج التي تجول بحرّيّة في أكثر أنحاء البلاد؛ واستعادة الحدّ الأدنى من النّظام العامّ، **وكان العراق حجر الزّاوية للإمبراطوريّة الإسلاميّة**، حيث ذهبت عائداته الزّراعيّة الغنيّة المدعومة إلى حدّ بعيد بأكبر مجموعة من جنود الخلافة وفائض موارده الماليّة إلى الخزينة المركزيّة في دمشق، ولا يقلّ أهمّيّة عن ذلك، أنّ الأراضي الإيرانيّة الشّاسعة _ التي كان الكثير منها ما يزال منطقة حرب _ كانت محكومة من العراق. وكان محافظو البصرة والكوفة نوّاباً للملك في الشّرق، وقد قاموا بتعيين حكّام إقليميّين لإيران (على الرّغم من أنّ الخليفة قد يسمّي أحياناً مُرشّحاً لمنصب حسّاس للغاية أو صعب، مثل: خراسان) ورفعوا تقاريرهم إليهم.

وقد سعى معاوية للتّعامل مع مثل هذه القضايا الحرجة للحصول أوّلاً على الخبرة، وسرعان ما أحضر يداً عراقيّة خبيرة، المغيرة بن شعبة الثّقفيّ من التّقاعد وجعله حاكماً للكوفة، وهو المنصب الذي شغله حتّى وفاته في وقت ما بعد عام (668) لم يكن المغيرة خياراً مثاليّاً على الرّغم من أنّه

كان من صحابة النّبيّ، إلّا أنّ سلوكه الشّخصيّ كان في كثير من الأحيان فاضحاً، وكان قد اتُّهم بالزّنا مع زوجة مسلم آخر، ولم يفلت من التّهمة إلّا من خلال الحيل القانونيّة؛ وكان متساهلاً مع مثيري الشّغب؛ فقد تجاهلهم ببساطة لأطول مدّة ممكنة، وقد تمّ اختياره جزئيّاً لأنّه دعم معاوية تكتّماً خلال المراحل الأخيرة من الحرب الأهليّة على الرّغم من أنّه لم يؤدّ عملاً مرئيّاً في القتال، والأهمّ من ذلك أنّه كان حاكماً لكلّ من البصرة والكوفة في عهد عمر، وكان يعرف رجال عشائر العراق جيّداً، **وكانت مهمّته هي التّوفيق بين أهل الكوفة المهزومين وحكم معاوية**، وهو ما حقّقه بنجاح كبير من خلال إبقاء الباب مفتوحاً لوجهاء القبائل، وضمان حصولهم على مكافآت كافية لتوزيعها بين أتباعهم، ومنحهم حرّيّة الحفاظ على النّظام في أراضيهم حسب الحاجة، وقد تمّ تلخيص نهجه في الحكم عى الأقلّ كما تمّ تذكّرها بعد قرن من الزّمان في هذا التّقرير:

**«فأحبَّ العافيةَ، وأحسنَ فِي النّاس السّيرةَ، ولم يفتّش أهلَ الأهواءِ عن أهوائِهم، وَكَانَ يُؤتى فيُقالُ لَهُ: إنّ فلانا يرى رأي الشّيعة، وإنّ فلاناً يرى رأي الخوارج. وَكَانَ يقول: قضى اللهُّ ألّا تزالون مختلفين، وسيحكم اللهُّ بين عباده فِيمَا كَانُوا فِيهِ يختلفون، فأمِنَه النّاس».**[1]

لقد سمح للكوفيّين بأن يفعلوا ويفكّروا بما يريدون؛ مادام كان هناك

(1) الطّبريّ، الثامن عشر، 23-24.

حدّ أدنى من النّظام العامّ، وتدخّل بشكل رئيس من خلال إرسال جزية سنويّة متواضعة إلى دمشق ومنع أيّ تهديدات علنيّة للحكم الأمويّ.

كان الخوارج مشكلة أكثر صعوبة، إذ نجا عدد قليل منهم من كارثة النّهروان الدّمويّة عام (658) لكنّهم لم يكونوا مستعدّين لقبول معاوية رئيساً لجماعة المسلمين، وقد استغرق الأمر ثلاث سنين من القتال الشّاقّ لإخضاعهم، ولم تشكّل فرقُ الخوارج أيّ تهديد لإمبراطوريّة معاوية، لكنّها قوّضت بشكل خطير جهوده لإعادة الأمن والاستقرار إلى الإقليم، وأشهر هذه الفرق _ التي كانت تتألّف من (300) رجل فقط _ كان يقودها المستوردُ بنُ علفة، وأقسم أتباعه في سنة (662) أو (663) على الولاء له ليس بوصفه رئيساً لفرقتهم الصّغيرة ولكن أميراً للمؤمنين _ أي بوصفه الزّعيم الحقيقيّ لجماعة المسلمين، وكان أولئك الذين يسمّون أنفسهم «المسلمين» الذين لم يقبلوا سلطته في اعتقادهم كفّاراً؛ وقد قبل المستوردُ قيادة هذه المجموعة على مضض. ومن المفترض أنّه في مرحلة حرجة من الثّورة أن يكون المستورد قد أرسل رسالة إلى القائد المعارض؛ حتّى لو تمّ تأليف هذه الرّسالة (أو تعديلها) في وقت لاحق، فإنّها تحدّد عقيدة الخوارج المبكرة بوضوح تامّ؛ حيث يقولون:

«فقد نقمنا عَلى قومنا الجورَ في الأحكام، وتعطيلَ الحدود، والاستئثارَ

بالفيء[1] [الذي تعود ملكيّته للمسلمين ككلّ] وإنّا ندعوك إلى كتاب اللّه عَزَّ وَجَلَّ وسنّة نبيه (ص) وولاية أبي بكر وعمر رضوان اللّه عليهما، والبراءة من عُثْمَانَ وعليٍّ، لإحداثِهما في الدّين، وتركهما حكم الكتاب، فإنْ تقبل فقد أدركْتَ رشْدَكَ، وإلّا تقبل، فقد بالغنا في الإعذار إليك، وَقَدْ آذنّاك بحرب، فنبذنا إليك عَلى سواء».[2]

ولم يستطع المستورد ـ على الرّغم من شجاعته والتزامه الذي لا هوادة فيه ـ الفوز بمثل هذه المُنافَسة غير المتكافئة مع جيش الكوفة، لا سيّما أنّ عقيدة الخوارج جعلت من المستحيل تماماً كسب أتباع من الفصائل الموالية لعليّ التي هيمنت على المدينة. ولم يخرج المغيرة إلى الحرب بنفسه وكان راضياً بترك الوظيفة لأنصار عليّ القدامى، وقُتل المستورد في عام (664) في ذروة مسرحيّة لا يُمكن فَهمُها، وانتهى الصّراع المرير.

واجهت البصرة مجموعة مختلفة من المشكلات، ولم تكن البصرة ـ على عكس الكوفة ـ معقلاً للمشاعر المؤيّدة لعليّ، وكان جنودها متردّدين في المُشارَكة في الحرب الأهليّة، ومع ذلك، كان النّظام العامّ على وشك الانهيار؛ فقد خرجت الجريمة العشوائيّة وعنف الشّوارع عن السّيطرة

---

(1) [إضافة المقوّم اللّغويّ: الفيء هو ما يأخذه الجيش الإسلامي من عدوه بغير قتال. أمّا ما يُؤخذ بقتال فيُسمّى الغنائم؛ حيث تختلف أحكام توزيعهما فيما بعد.]

(2) الطّبريّ، الثامن عشر، 46.

تماماً، واختار معاوية في البداية قريباً بعيداً للمنصب، هو عبد الله بن عامر؛ وقد عرف ابن عامر المدينة جيّداً، وكان آخر حاكم لعثمان، لكنّه أُجبر على الفرار عام (656) بعد أن دعم الجانب الخاسر في معركة الجمل، وكان له سجلّ عسكريّ مُميّز في إيران، ونجح نسبيّاً في حفظ السّلام في البصرة خلال الاضطراب في سنيّ عثمان الأخيرة، ومع ذلك، فإنّه في ظلّ أحوال عام (661) كان نهجه اللّين السّهل كارثة «لا يعاقب في سلطانه ولا يقطع لصّاً» فقيل له في ذلك، فقال: أنا أتألّف النّاس فكيف أنظر إلى رجل قد قطعت أباه وأخاه؟[1] لقد كان معاوية صبوراً لبعض الوقت، ولكن بحلول عام (664) كان قد سئم.

كان معاوية يأخذ الموهبة حيث وجدها؛ وكان الحلّ لمشكلته في البصرة زياداً بن سُمَيَّة، ليس فقط رجلاً مُستعبَداً (أو أسوأ) ولكن كان قد أمضى سنين مؤيّداً مخلصاً لعليّ، وربّما تكون والدة زياد _ وهي جارية لها تاريخ شخصيّ مُعقّد _ قد حملته من زوجها العبد، لكن يُقال: إنّ مالكها أجبرها على البغاء، **وكان أصل زياد موضع نزاع شديد؛ ومن هنا كان الاسم المُفضّل له عند عائشة (زياد بن أبيه) لكسب زياد المتردّد إلى قضيّتها**، وكان لمعاوية فكرة إعلان أنّه ابن والده أبي سفيان الذي دفع تكاليف خدمات سميّة لمدة ما، ولم يستطع أبو سفيان بعد وفاته تأكيد القصّة أو نفيها، لكن يمكن لمعاوية الادّعاء بأنّ زياداً هو أخوه غير الشّقيق وسليلٌ شرعيّ من

(1) الطّبريّ، الثّامن عشر، 71.

السّفيانيّين، وقد قوبلت مُبادَرة معاوية بمُعارَضة شديدة من قِبل أفراد عائلته (بمن في ذلك ابنه يزيد) الذين عدّوها إهانة مروّعة، لكنّه مضى قدماً.

وليست القصص التي تمّ تداولها عن علاقة أبي سفيان بسميّة فاضحة فحسب، بل بغيضة أيضاً، وأظنّ بأنّها وُضعت في التّداول من قِبل معارضي الأمويّين كشكل من أشكال الحُجّة (الافتراء السّاخر).

ومهما كانت الحقيقة _ يمكن فقط اعتماد حقيقة أنّ سميّة كانت والدتَه أمراً لا جدال فيه _ فقد أظهر زياد موهبة استثنائيّة بوصفه مسؤولاً، حتّى عندما كان صغيراً جدّاً، وخدم في البصرة مسؤولاً ماليّاً في عهدَي عمر وعثمان، ودخل في خدمة عليّ وترقّى ليكون نائباً لحاكم فارس، وواصل بعد مقتل عليّ حكم المنطقة، لكنّه رفض الاعتراف بمعاوية، **وقد شقّ طريقه في مجتمع يضع الأنساب النّبيلة فوق أي شيء آخر؛ وربّما حتّى فوق الاستقامة الدّينيّة**، ووصل إلى الطّبقة الثّانية من الطّبقات الحاكمة المسلمة، وقد علم عنه معاوية عن طريق المغيرة بن شعبة فأجبره على القدوم إلى دمشق بالتّهديد بإعدام أبنائه إذا لم يفعل، وبسبب تأثُّره بما رآه في عام (665) عيّن معاويةُ زياداً والياً على البصرة، وشغل زياد المنصب حتّى وفاته بعد ثماني سنين.

لقد كان **أسطورياً** لشدّته في قمع الجريمة والفوضى من أيّ نوع، ولعدالته ونزاهته في التّعامل مع أولئك الذين قبلوا قواعده، ووعد فيما يخصّ القانون والنّظام بمُعامَلة عادلة وتسديدٍ كامل لمُرتّبات الحكومة الماليّة المُخصَّصة للجنود العرب وعائلاتهم، وكان يفي بعهوده وفقاً لجميع الرّوايات.

وقد اشتُهرت خطبة زياد الافتتاحيّة في مسجد البصرة، والتي أرست السّياسة التي كان يعتزم اتّباعها؛ بأنّها أنموذج للبلاغة العربيّة، وقد ورد ذكرها (بصياغات مختلفة قليلاً) في العديد من الحوليَات والمُختارات الأدبيّة، وربما شُذّبت أثناء نقلها إلينا، لكنّها قويّة جدّاً ومتناسقة تماماً مع حالتها، بحيث كانت إبداعاً بلاغيّاً للكتّاب الّلاحقين، وإذا لم ينطق بها زياد، فعليه أن يفعل؛ إنّها تجسّد تماماً الصّورة التي لا تُمحى والتي تركها للأجيال الّلاحقة من المسلمين، وسوف تفيد بعض المقاطع في توضيح هذه المسألة:

**«إنَّ الجهالةَ الجهلاءَ، والضَّلالةَ العمياءَ، والغَيَّ المُورِدَ أهلَهُ النَّارَ ما يأتيه سفهاؤُكم، ويشتملُ عليه حُلَماؤُكم... ولم تعرفوا ما أَعَدّ اللهُ مِن الثَّوابِ الكريم لأهلِ طاعتِه، والعذابِ الأليمِ لأهلِ معصيتِه في الدّار التي لا تزول شدّتها ولا رخاؤها...**

فلم يزل بسفهائكم ما ترون من قيامِ حلمائِكم دونَهم، وذبِّهم عنْهُم، وسَتْرِهِم عليهم، حتّى انتهكُوا حُرْمَةَ الإسْلامِ، وكَنَسُوا في مكانِسِ الرِّيَبِ، حَرَام عَلَيَّ الطَّعامُ والشّرابُ حتّى أُسَوِّيَها بالأرضِ هَدْماً وإحراقاً، وتقطيعاً ببطون السّياط ظهورَ الغاوينَ، وإنِّي أقسمُ باللهِ لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالمَوْلَى، والمُقِيمَ بالظَّاعنِ، والمقبلَ بالمدبرِ، والصّحيحَ فِي نفسِه بالسَّقِيم النّطِفِ، حتّى يلقى الرُّجلُ منكم أخاه فيقول له: انجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْدُ، أو لتَسْتَقِيمَنّ قناتُكم، إنَّ كَذْبَةَ المنبرِ بَلْقاءُ مَشْهورةٌ؛ فإذا تَعلّقْتُم عَلَيَّ بِكَذْبَةٍ فِي وَعْدٍ أو وعيد فقد حَلَّتْ لكُم مَعْصِيَتِي... مَنْ ذَهَبَ له منكم شَيءٌ فأنا ضَامِنٌ له، وإيايَ وَدَلَجَ اللّيلِ؛ فإِنّي لا أُوتَى بِمُدْلِجٍ إلّا سَفَكْتُ دَمَهُ...

وَقَدْ أَجَّلْتُكُم في ذلك قَدْرَ ما يأتِي الخبرُ الكوفةَ ثُمَّ يرجعُ إليكُم، وإيّايَ ودعوى الجاهِلِيّةِ؛ فإِنّي لا أجد أحداً دعا دعْوَتَها واعتَزَى عزوَتَها إلّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ، وقد أحْدَثْتُم أحْداثاً لم تكنْ، وقد أحْدَثْنا لكلّ ذنبٍ عقُوبةً؛ فَمَن غَرَّقَ قَوْماً غَرَّقْنَاهُ، ومَن حرّقَ على قوْمٍ حرّقناه، ومَنْ نَقَبَ على بيتٍ نَقَبْتُ عن قلْبِه، ومَن نَبَشَ قبراً دَفَنْتُهُ فيه حَيّاً...

أيّها النّاسُ: إنّا أصْبَحْنا لكم ساسةً، وعنْكُم ذادّةً، نسُوسُكُم بسلطانِ اللهِ...»[1]

---

(1) أنساب الأشراف، البلاذري، المجلد الخامس، ص 205-208.

**«فلنا عليكم السّمْعُ والطّاعةُ فيما أَحْبَبْنا، ولكم علينا العَدْلُ فيما وَلِيْنا... واعلموا أنّي مهْما قَصَّرْتُ عنه فإنّي لا أُقَصِّر عن ثلاثٍ: لسْتُ مُحْتَجِباً عن طالبِ حاجةٍ منكم ولو أتاني طارقاً بليلٍ، ولا حابِساً رِزْقاً ولا عطاءً عن إبّانِه، ولا مُجَمِّراً لكم بعثاً...».**[1]

وسرعان ما تعلّم أهل البصرة أن يأخذوا زياداً على كلامه، وأصدر

(1) تاريخ الطبري، المجلد الرابع، ص 166. [إضافة المقوّم اللّغويّ: هذه أجزاء من خطبة زياد يوم تولّيه على البصرة في مسجدها؛ اختارها المؤلف منها. وتُسمّى تلك الخطبة (البتراء) لأنّها لم تبدأ بحمد ولا بسملة. وهذا بيان معاني بعض من كلمات هذه المقاطع: الغَيّ بفتح الغين هو الجهل النّاشئ عن اعتقاد فاسد؛ وبكسرها: الرّجل الضّالّ. الذّبّ: دفع ما يضرّ. كنسوا مكانس الرّيب: الكناسة ما يُجمع من القمامة فيُغطّى؛ وكنسوا مكانس الرّيب استتروا في موضع الرّيبة؛ والرّيَب جمع ريبة وهي الشّكّ والظّنّ والتّهمة. الظّاعن: المسافر المرتحل. السّقيم النّطف: المريض الفقير، وأصل التّسمية مأخوذ من كلمة _ نَطِفٌ _ نسبة إلى النّطف بن الخبيريّ من بني سليط، واسمه حطّان، سُمّي النّطِفَ لأنّه كان فقيراً وكان ينقل الماء على ظهره في قِربة، فيقطر الماء منها فيقول: نطِفت القربة وقربتي تنطف. القناة: قناة الظّهر التي تنتظم الفِقار؛ ورجل صلب القناة أي صلب القامة؛ يريد استقامة أمورهم وانتظامها. البَلَق: البياض في الخَيل حيث كان يظهر للرّائي؛ والبلقاء الظّاهرة لكلّ أحد. الوعد: العِدَة في الخير، والوعيد في الشّر. دلج اللّيل: الجرائم والمُخالَفات المُرتكَبة ليلاً يريد فاعلها ألّا يُعرف. دعوى الجاهليّة: تقاليدها المخالفة للإسلام مثل النّدبة للمُواجَهة بين أهل المدينة الواحدة في قولهم: يا لَبني فلان. اعتزى عزوتها: استقوى بطريقتها في الاستقواء. النّقْبُ: إحداث فتحة في الجدار بقصد السّرقة أو غيرها. نقبت عن قلبه: فتحت فتحة في صدره؛ كناية عن قتله بهذه الطّريقة القاسية. الذّود: له غير معنى، وهنا: الدّفاع عنكم وطرد أعدائكم. تجمير البعث: أن ينزل الجند بإزاء العدوّ طويلاً؛ وهو كذلك: جمعُهم في الثغور وحبسُهم عن العَود إلى أهليهم.]

مرسوماً بأنّ أيّ شخص نزل في شوارع المدينة ليلاً، لأيّ سبب كان، سيواجه الإعدام من دون مُحاكَمة، فجاء بدويّ ذات ليلة إلى البصرة ومعه قطيع من الأغنام للبيع، فوجد المنطقة خارج الأسوار منعزلة ومخيفة، ودخل الحيّ السّكنيّ، فقبض عليه رئيس الشّرطة، وقال: ويل لك، أما علمت بأمر الوالي [هل سمعت النّداء]؟ فأجابه البدويّ: «لا والله». لذلك أشفق عليه قائد الشّرطة، ولما جاء الصّباح أرسله إلى زياد الذي طلب منه أن يشرح حاله، فقال له البدوي ما حصل، وردّ زياد: «أظنّك والله صادقاً» ولكن لا يمكنني أن أجعل وعودي وتهديداتي تبدو كأنّها كذبة، ثمّ أمر به فضُربت عنُقه![1]

أضاف معاوية عندما توفّي حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة نحو عام (668) أضاف الكوفة إلى منطقة نفوذ زياد، وكان زياد، حتّى وفاته عام (673) نائباً للملك في الشّرق، حيث كان يسيطر على الموارد الماليّة وأموال الغنائم العسكريّة التي فاقت بكثير موارد سيّده معاوية، وقد أعطى ذلك للعراق الاستقرارَ الذي كان في أمسّ الحاجة إليه، لكنّه يبدو وكأنّه وصْفَة مثاليّة لموضوع بالغ الأهمّيّة، فقد فضّل أكثر الحكّام القيام بتأليب الولاة بعضهم على بعض، وتناوبهم أو تأديبهم بانتظام لمنعهم من بناء قاعدة سلطة مستقلّة، ومع ذلك، لم يشر زياد حتّى إلى التّمرّد على معاوية أو مُقاوَمة توجيهاته، وقد اختار معاوية رجله بطريقة رائعة، فقد

(1) البلاذري (كيستر)، الرابع أ، 172.

كان الأصل الذّليل لزياد _ عدم الجزم بمعرفة من أبوه _ لا يمكّنه من التّمتّع بالمكانة الاجتماعية والهيبة الّلازمتين لتأكيد القيادة على الحاميات القبيليّة شديدة الوعي بالمرتبة الاجتماعيّة في العراق، ولم يكن بإمكانه مُمارَسة السّلطة إلّا إذا اعترفت به طبقة المحاربين العراقيّين على نحو لا يقبل المُناقشَة نائباً عن معاوية! وزيادة على ذلك، كان زياد في خدمة عليّ في فارس قبل أن يستدعيه معاوية بعد وفاة عليّ، وكان عليه للاحتفاظ بفضل معاوية أن يظهر ولاءَه الذي لا يتزعزع، وربما تكون قسوة زياد سيّئة السّمعة تنبع من آرائه المتناقضة؛ فهو لم يستطع التّفاوض على قدم المساواة مع النّبلاء القبيليّين ولا يمكنه جلب أيّ أوراق رابحة (على سبيل المثال، تأييد قبيليّ قويّ) إلى الطّاولة، ولم يكن بقدرته الإقناع _ كان بإمكانه أن يأمر فقط _ ومن ثمّ كان مرعباً فقط وقادراً على الاعتماد على دعم الخليفة وثقته التّامّة به.

إنّ مزيج زياد الفريد من المكانة الاجتماعيّة المتدنّية والعزيمة غير العاديّة والفطنة السّياسيّة جعلوه الخيار الأمثل لحكم مُقاطَعة عدائيّة ومضطربة، لكنّ هذا المزيج لا يمكن تكراره بسهولة.

هل يجب النّظر إلى معاوية أنّه من بناة الدّول! أي صانعاً وداعماً للمُؤسَسات ومُؤسّساً لسياسات طويلة الأجل _ أو ببساطة _ هل هو سياسيّ موهوب تلاعب بموقعه بمهارة لكنّه لم يبذل أيّ جهد منهجيّ

لتغيير أساليب الحكومة وهياكلها القائمة؟

أمّا المؤرّخ البيزنطيّ (ثيوفانيس) (ت سنة 814) فقد أطلق عليه اسم (بروتوسيمبولوس/ Protosymboulos) أي المُستشار الأوّل.[1] وهو مُصطَلح يشير إلى الحكم بالإقناع والخيار المُشترَك بدلاً من الأمر والإكراه، وهذه هي الصّورة التي نحصل عليها من المصادر العربيّة: التّشاور باستمرار ولكن بحذر مع قادة القبائل العربيّة، واختيار المعارضين المُحتمَلين، واستقبال الوفود، وما إلى ذلك. ولم يلجأ معاوية إلى الاعتقال والإعدام إلّا حين يتمّ التّحدّي المباشر لحكمه، كما فعل بالكوفيّ حجر بن عديّ، الذي ظلّ موالياً عنيداً لعليّ. ويبدو معاوية محافظاً، ورجلاً يفهم طبيعة المجتمع القبيليّ العربيّ، وكان قادراً بمهارة شديدة البراعة على استخدام هذا الفهم لخدمة أهدافه المحدودة إلى حدّ ما والمتمثّلة في الاستقرار والسّلام. وتذكّر مُمارَساته السّياسيّة في نواحٍ عديدة بمُمارَسات النّبيّ محمّد حين حاول تعزيز ولاء أتباعه، وكسب أعدائه (تأليف القلوب)، وإقناع القبائل البدويّة بالانضمام إلى تحالفه بدعم من تهديد حقيقيّ بالإكراه إذا فشلت كلّ الأمور الأخرى، وكان معاوية يفتقر إلى (ومن شبه المُؤكّد أنّه لم يرغب أبداً في) الكاريزما الدّينيّة لمحمّد، لكن ربّما لا يكون مختلفاً تماماً في أساليبه في

(1) المعنى الدقيق غامض بعض الشيء، لقد كانت «Symboulos» هي الكلمة المستخدمة لترجمة «أمير» (حاكم) في الوثائق الرسمية باللغة اليونانية الصادرة عن الحكام المسلمين الجدد لمصر وسوريا حتى أوائل القرن الثامن.

استخدام الوسائل الدّينيّة لأهداف سياسيّة.

إلّا أنّ ما سبق، يرسم صورة متواضعة للغاية، فقد كان معاوية مستعدّاً تماماً للّجوء إلى القمع الشّديد للحفاظ على النّظام بين القوّات المضطربة في العراق في تناقض صارخ مع التّكتيكات المعتدلة والتّوافقيّة التي تبنّاها في سوريّا أو الحجاز المنزوعة السّلاح، وبدا بالنّسبة للمراقِبين السّوريّين، المسلمين والمسيحيّين كأنّه ملِك أنموذجيّ في ميزان الرّأفة والصّرامة، أمّا بالنّسبة لأنصار عليّ في الكوفة، فكان شبه طاغية، على الرّغم من أنّهم كانوا مُحبَطين للغاية لفعل شيء حيال ذلك، **وربّما تمّت تهدئتهم من سياسة المغيرة الماهرة.** ولم تكن البصرة أبداً مُؤيّدة لعليّ، كما يظهر بوضوح دعمها لعائشة وطلحة والزّبير، ومع ذلك، فحتّى لو وجد البصريّون أنّ معاوية مقبول بوجه عامّ، فَقَدْ حكَمَهم خوفُهم من حاكمه زياد؛ ولطالما رأته النّخبة المسلمة القديمة في الحجاز متطفّلاً وغاصباً، على الرّغم من أنّهم _ كما في الكوفة _ كانوا عاجزين عن فعل أيّ شيء حيال ذلك.

لم يحافظ معاوية على سلطته من خلال بيروقراطيّة مركزيّة مُعقّدة بل من خلال نظام تفويض الحكم، فقد عيّن عدداً قليلاً جدّاً من الولاة الذين اعتقد في أنّهم مخلصون له تماماً، وأعطاهم مُطلَق الحرّيّة (ما داموا ناجحين) لاستخدام أيّ تكتيكات وتعيين أيّ مرؤوسين يرونهم مناسبين، فكان هناك اثنان في العراق (باستثناء السّنين القليلة التي شغل فيها زياد المنصبَين)، وقد

مارسا سلطة نائب الملك على ممتلَكات الدّولة الآخذة في التّوسّع بوتيرة بطيئة في إيران، وكان لمصر حاكم واحد مارس أيضاً سلطة على الحملات العسكريّة والفتوحات الجديدة في شمال أفريقيّا، وكان هناك العديد من الولاة (المستقلّين على ما يبدو) في الحجاز الحسّاسة من النّاحية الدّينيّة في مكّة والمدينة والطّائف. وقد حكم معاوية على نحو مباشر في سوريّا إقليم عاصمتِه والمنطقة التي يعرفها عن كثب بمُساعَدة حكّام فرعيّين ينتمون إلى فروع من بني أميّة أو كلب أو مجموعات أخرى ثَبَت ولاؤها، وعيّن شخصيّاً قادة البعثات العسكريّة والبحريّة السّنويّة في الأناضول وساحل بحر إيجة وأشرف عليهم، وضع الخطوط العامّة للسّياسة التي يتوجّب على ولاته اتّباعها، وراقبهم عن كثب، إلّا أنّه ترك الأمر لهم لتنفيذ السّياسة والعمل على إيجاد الوسائل الإداريّة أو غيرها للقيام بذلك. **لقد كان نظاماً بسيطاً يعترف بالحكم شبه الذّاتيّ** للأقاليم الكبرى التي وقعت تحت الحكم الإسلاميّ في أوقات مختلفة وفي أحوال مختلفة جدّاً، لكنّه ضمن مراقبته وسيطرته على الرّجال الذين حكموها.

كانت الابتكارات الإداريّة والهيكليّة بين الحكّام نادرة، إذ تشير البرديّات المتعلّقة بالشّؤون الماليّة من مصر (يعود تاريخ أكثرها إلى ما بعد معاوية) إلى أنّ الآليّة الماليّة المُفصّلة للبلاد كانت تُدار في الأغلب مثلما كانت عليه في عهد الرّومان والبيزنطيّين _ في الواقع مثل ما كانت منذ عهد البطالمة _ على الرّغم من أنّنا لا نعرف سوى القليل عن كيفيّة إدارة القوّات القبليّة

العربيّة المتمركزة في العاصمة، الفسطاط. وأنشأ زياد المخيف، لكن المرن _ في العراق _ قوّة «الشّرطة» التي ضمّت (4000) رجلاً وفقاً لأحد المصادر لحفظ النّظام في المدينة الحامية للبصرة، وهي مسألة تتعلّق بالأمن العامّ، وليست من التّغيير العسكريّ الأساسيّ، وكانت هناك قوّة مماثلة في الكوفة، ويبدو أنّ زياداً استخدم الشّرطة لتجاوز زعماء القبائل التّقليديّين والتّعامل مباشرة مع السّكّان، وكانت شرطة البصرة بقيادة أحد أعيان قبيلة من القبائل التي استقرّت هناك؛ ويُفترَض أن يُتناوب على المنصب من حين لآخر، كذلك حرص زياد على تجنيد أعضاء شرطة الكوفة من قبائلها جميعها، لكن هناك مخاطر في هذا النّهج _ يمكن أن تبدأ العداءات الدّمويّة إذا هاجمت شرطة إحدى العشائر شخصاً من عشيرة أخرى _ لكن توجد إيجابيّات أيضاً، فقد كانت القبائل مسؤولة بصورة جماعيّة عن الأمن والتّجنيد من شريحة متقاطعة ومُختارة بعناية من القبائل تضمن عدم تفرُّد أيّ منها بأنّها المُفضّلة عند الحاكم.

ونحن لا نعرف إلّا القليل عن الحجاز، وقد قسم معاوية مناصب الحكّام تقسيماً أنموذجيّاً بين مكّة والمدينة والطّائف، وأُسندت في الغالب إلى أقاربه الأمويّين، الذين كان أبرزهم مروان بن الحكم ابن عمّ وأقرب مُستشار لعثمان المقتول (كان مروان في ذات عُمُرِ معاوية، وأصبح في نهاية المطاف خليفة في العام الزّاخر بالأحداث (684-685).

وقد يبدو مروان خياراً محفوفاً بالمخاطر بالنّظر إلى مسيرته السّياسيّة الحزبيّة والسّمعة الدّينيّة السّيئة لوالده، لكنّه كان يعرف التّيارات الدّينيّة والسّياسيّة في المدينة عن كثب، وكان مصيره مرتبطاً بمصير النّظام، وكانت النّظرة إليه _ لكونه أمويّاً _ من قِبَل أنصار عليّ وابن الزّبير والأتقياء الآخرين نظرة ريبة! لكنّ ذلك جعله الشّخص المثاليّ لمراقبتهم؛ ولم يتآمر معهم ضدّ معاوية، ولم يكن عند الحجازيّين الموارد البشريّة أو الماليّة لتحمّل تحدّي معاوية بجدّيّة، ومن ثمّ كان مكاناً جيّداً لمكافأة أقاربه من خلال إبقائهم في أمكنتهم. غير أنّنا نعرف القليل من الممارسات الإداريّة الرّوتينيّة، فقد كان لابدّ من وجود مسؤولين لتوزيع المرتّبات الماليّة على فئة القوّات _ وهو الإنفاق الحكوميّ الوحيد الأكثر أهمّيّة في هذه المرحلة من التّاريخ الإسلاميّ، منذ أن كان الهدف الرّئيس للدّولة الإسلاميّة، بمعنى ما، هو إعادة توزيع ثروة الرّعايا غير المسلمين على العرب _ العسكريّة المسلمة، وتشير الأدلّة القليلة التي لدينا (بما في ذلك بعض البرديّات من قرية نيسانا في النّقب) إلى أنّ ذلك تمّ بطريقة لامركزيّة إلى حدّ ما _ على الأقلّ _ في سوريّا وفلسطين: دُفعت مُرتّبات الجنود الماليّة مباشرة من الطّلبات الصّادرة عن حاكم المنطقة إلى مسؤولي القرية. باختصار، كان هناك بعض الإشراف والرّقابة، ولم يكن هناك نظام مركزيّ لتحصيل الضّرائب وكشوف المرتّبات الماليّة، وسيرسل الفائض فقط (متواضع جدّاً من جميع التّقارير) إلى دمشق. لقد أعاد زياد تنظيم العناصر القبليّة

التي استقرّت في الكوفة والبصرة إلى وحدات أكبر؛ وكان الإشراف عليها أسهل، لكنّه لم يغيّر البنية الأساسيّة للجيش.

وقد قيل _ فيما يخصّ _ الحكومة المركزيّة: إنّ معاوية أنشأ إدارتين، كانت الأولى لصوغ المراسلات والقرارات، والأخرى لختمها وتسجيلها. ومن المُفتَرَض أن يكون عُمَرُ بن الخطّاب قد أنشأ _ مِن قبلُ _ سجلاًّ عسكريّاً مركزيّاً (ديوان الجيش) لتحديد وتخصيص المُرتّبات الماليّة على مقياس متدّرج بشكل حادّ، بين أعيان المسلمين والقوّات القبيليّة العربيّة؛ وتشير المصادر إلى أنّ عمرَ ركّز تركيزاً خاصّاً على القوّات المتمركزة في المدن العراقيّة التي تضمّ حاميات. ومن الجدير التّساؤل عمّا إذا كان ذلك بسبب أنّ المصادر كُتبَت في الغالب في العراق أم لأنّ العراق أوجد مشكلات سياسيّة وإداريّة غريبة! وعلى أيّ حال، فإنّ نظام عمر قد عفا عليه الزّمن في زمن معاوية وربّما انهار خلال الحرب الأهليّة؛ ومن غير المُحتمَل أن يكون معاوية قد أنشأ سجلاّت مركزيّة للخلافة، ربّما باستثناء لتجميع الإيرادات والنّفقات والدّفع للأعيان المختارين، واحتفظت كلّ مُقاطَعة أو منطقة بسجلاّتها الخاصّة؛ وتشير الأدلّة إلى أنّ هذه السّجلاّت كانت مكتوبة باللّغات الإداريّة التّقليديّة كلّ في المنطقة الموجودة فيها (على سبيل المثال، باللّغة اليونانية في سوريّا وفلسطين ومصر) وقد استخدم معاوية وحكّامه المُؤسّسات والمُمارَسات القائمة _ البيزنطيّة أو السّاسانيّة أو المصريّة _ أينما وُجدت، وزوّدها بطبيعة الحال بمسؤولين مسيحيّين

أو زرادشتيّين، كان أبرزهم المشهور **المنصور بن سرجون**، جد القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ الذي كان قبل أن يأخذ عهوداً رهبانيّة بيروقراطيّاً أمويّاً. ولم يحاول معاوية تعريب النّظام الماليّ، ولم يتوقّع من المسلمين استطاعتهم إدارته على مستوى إداريّ وتشغيليّ. وإجمالاً، لقد كان **هيكلاً إداريّاً هشّاً** جدّاً لمثل هذه الإمبراطوريّة الشّاسعة، وقد جعلته ـ أي الهيكل ـ بدئيّته (بساطته) مرناً وقابلاً للتّكيّف بين يدي صاحب الأمر، لكنّه سينهار حتماً أثناء الضّعف أو عدم الكفاءة أو الأزمة.

يقودنا ذلك إلى سؤالين أساسيّين وقد اعترف الجميع بأنّ معاوية كان سياسيّاً بارعاً، لكن هل تلوّثت سلالته بشكل لا رجعة فيه بالطّريقة التي تولى بها السّلطة ومارسها؟ وهل كان النّظام الأمويّ محكوماً منذ البداية بفطنة مُؤسِّسِه؟

يشير التّقليد التّاريخيّ الإسلاميّ إلى أنّه كان كذلك؛ لم يكن بإمكان الأمويّين أبداً ادّعاء شرعيّة إسلاميّة حقيقيّة، ولا يمكنهم الحكم إلّا إذا كان لديهم المكر والقوّة للتّغلّب على المنافسين، وقد تصَلَّبَ هذا الرّأي لاحقاً حين أثار الأمويّون حشداً كبيراً من الأعداء، وكان له كذلك بعض المزايا؛ لأنّ من الواضح أنّ العديد من الجماعات ـ ليس فقط الخوارج أو أتباع عليّ العنيدين ـ وجدوا الأمويّين غير مقبولين، فقد كان هذا العداء في جزء منه مسألة مظالم مادّيّة، وجزئيّاً كذلك مسألة أعمال عدائيّة ومُنافَسات داخل

قبيلة قريش، وقد فعل معاوية ما في وسعه لتهدئة هذا الغضب والاستياء، لكنّه لم يستطع احتواءهما، وقد كشف عن هشاشة تسوياته السّياسيّة بشكل صارخ من خلال اثني عشر عاماً من الصّراع المستمرّ والحرب التي اندلعت بعد وفاته.

كانت التّهمة بالغة الخطورة ضدّ معاوية، وهي حقّاً واحدة من أهمّ المسائل في الهجوم على شرعيّته قرارَه بتعيين ابنه يزيد خلفاً له، لقد أثبت هذا القرار جدلاً مريراً لسببين: **أوّلاً**: أسّس مبدأً وراثيّاً بدلاً من المبدأ الاختياريّ لتبادل السّلطة، **وثانياً**: نظر الكثيرون (على الأقلّ في وقت لاحق) إلى يزيد بوصفه غير لائق أخلاقيّاً للحكم، ويبدو السّبب الأوّل ساذجاً، إن لم يكن مخادعاً، وقد دعم أنصاره بعد وفاة عليّ في عام (661) ابنه حسن ـ ابن عليّ ليكون الخليفة، وألحّوا في ثمانينيّات القرن السّادس على قضيّة ابنيه الآخرَين: الحسين المأساويّ (ت سنة 680) والأكثر دهاء محمّد بن الحنفيّة (ت سنة 700).

كان عبد الله بن الزّبير الذي رفع علم الثّورة مرّتين بعد موت معاوية نجل أحد أبطال معركة الجمل، وكان من الواضح بحلول عام (680) أن نوعاً من الخلافة الوراثيّة تدفعه الرّياح من الخلف، وربّما لم يكن هناك بديل جيد، ولم تطوّر الدّائرة الدّاخليّة من الصّحابة الأول الذين قدّموا الخلفاء الأربعة الأول أيّ إجراءات مُنتظَمة للتّحكّم في تعاقب الخلافة، وقد

أصبحت الآن مُجزّأة للغاية بسبب الموت والانقسامات بحيث لم تؤدّ أيّ عمل في الأحداث، وكان يوجد بنهاية عهد معاوية احتمالان واقعيّان فقط: شكل من أشكال الخلافة الوراثيّة أو التّزكية من قبل الجيش (أو بشكل أكثر دقّة، مِن قِبل الفصائل المتنافسة داخل الجيش).

لم يفرض معاوية خليفته، وذلك على الرّغم من أنّه كان من الواضح أن يزيد كان الخليفة الذي أراده، فقد أمضى عدّة أشهر (ربما أكثر) في التّفاوض مع وجهاء من جميع القبائل الكبرى للحصول على موافقتهم، وكان من الطّبيعيّ في المجتمع العربيّ التّقليديّ، أن تظلّ الرّئاسة في الأسرة القياديّة لعدّة أجيال؛ لأنّ النّسب والحسب (النّسب النّبيل والمزايا الموروثة لأسلاف المرء) كانت عناصرَ حاسمة في جعل الرّجل لائقاً لقيادة شعبه، ومع ذلك، فإنّ الخلافة المباشرة من الأب إلى الابن لم تُمارَس على وجه الحصر في المنطقة العربيّة القديمة ولا في العصور الإسلاميّة اللّاحقة على الرّغم من أنّها كانت منتشرة على نطاق واسع بالتّأكيد، لذا، فحتّى لو رغب معاوية في حصر اختياره في عشيرته، فلماذا سمّى يزيد الذي اشتُهر بكونه رجلاً مخلصاً للنّبيذ والموسيقى وفتيات الرّقص؟! وربّما الأسوأ من ذلك كلّه _ قرده الأليف _ ولقد جعلته حياته سيّئة السّمعة مثيراً للجدل بحدّة، ليس فقط بين أنصار عليّ العنيدين، ولكن أيضاً بين الأتقياء بوجه عام،[1]

(1) يمكن العثور على صورة أكثر تعاطفاً إلى حد ما مع يزيد في كتاب ابن عساكر. انظر جيمس ليندسي، «Caliphal and Moral Examplar? ʻAli ibn ʻAsakir's

وقد كان معاوية يميل إلى كتمان خططه وآرائه الخاصّة، لذلك عدنا إلى الظّنّ.

**ما البدائل؟** كان هناك عدد قليل جدّاً، وكان من المستحيل تحقيق اختيار «إسلاميّ»، ولم يكن بحلول أواخر السّبعينيّات من القرن السّادس أيّ رفيق لمعاوية تقريباً **يتمتّع بأيّ مهارات إداريّة وخبرة سياسيّة على قيد الحياة،** لذلك اضطرّ إلى النّظر إلى الجيل الثّاني. وبصرف النّظر عن يزيد الذي كان في مُنتصَف الثّلاثينيّات من عمره؛ لم يكن لمعاوية أبناء بالغين يعتقد أنّهم أكفّاء، وكان أقاربه الآخرون (على سبيل المثال واليه على الحجاز مروان بن الحكم) شخصيّات مثيرة للجدل إلى حدّ كبير، وكانوا ينتمون على أيّ حال إلى عشيرة منافسة للنّسب الأمويّ.

كان هناك **مُطالِبان** معقولان في الدّائرة الإسلاميّة الأوسع، لكنّهما ينتميان إلى ذات العائلات والتّجمّعات السّياسيّة التي انتزع معاوية الخلافة منها خلال الحرب الأهليّة، **الأوّل** كان الحسين آخر أبناء عليّ وفاطمة على قيد الحياة، وكان يعيش بهدوء في المدينة، وكان يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، ويحظى باحترام شديد لتقواه وأسلوب حياته، ولكن من دون خبرة سياسيّة جادّة نهائيّاً، **والآخر** هو عبد الله بن الزّبير ابن أحد قادة الثّورة الفَشِلَةِ ضدّ عليّ عام (656) كان بإمكانه أن يدّعي أنّه من الصّحابة،

«Portrayal of Yazid b. Mu'awiya»، دورية «Der Islam» 74 (1997).

لأنّه وُلد أثناء حياة الرّسول، ولكنّه كان في العاشرة فقط من عمره حين مات محمّد، **وقد كان ترشيح معاوية للحسين أو ابن الزّبير خلفاً له أمراً سخيفاً وغير وارد**. وبصرف النّظر عن حقيقة أنّ أقاربه لن يتخلّوا أبداً عن الخلافة عن طيب خاطر؛ كانت هناك المسألة الحاسمة لعثمان، وقد كان معاوية عارض عليّاً في ادّعاء أنّه كان يصون الشّهيد عثمان «الإمام المظلوم» كما عُرف في الدّعاية الأمويّة، ولا يمكن _ بسبب تورّط كلّ من عليّ والزّبير في موت عثمان _ للخلافة أن تذهب إلى أبنائهم، حتّى لو اعتقد معاوية في أنّهم مناسبون لها (ومن الواضح أنّه لم يفعل ذلك).

كان يوجد في ذلك الوقت أبناء الصّحابة الآخرين الذين صوّرتهم الرّوايات الإسلاميّة لاحقاً أنّهم رجال ذوو تعليم وتقوى غير عاديّين! وأوّلَ علماء مجتمع المؤمنين النّاشئ والنّاقلين الموثوقين لعقيدة النّبيّ ومثاله، لكن بغضّ النّظر عن الطّريقة التي يحكم بها المرء على هذه التّأكيدات، **لم يتمّ تسجيل أيّ منهم بأنّه أبدى أيّ رغبة في الخلافة**. وزيادة على ذلك، فإنّ مثل هذا التّرشيح كان من شأنه أن يعيد إشعال الفتنة والصّراعات الاجتماعيّة التي أدّت إلى الحرب الأهليّة الأولى؛ والمسألة التي قد تفلت من القارئ الحديث، أنّ ميسون والدة يزيد كانت من قبيلة بني كلب التي كان محاربوها الأساس الذي لا غنى عنه لنظام معاوية، وكانت قبيلة بني كلب ستنظر إلى رفض يزيد لصالح شخص خارجيّ **إهانة لا تُطاق**، وهو ما كان سيعني التّنازل عن مكانتهم وهيبتهم وسلطتهم لصالح مجموعة أخرى _

على سبيل المثال للعراقيّين المُحتقَرين والعبيدين أو الحجازيّين الضّعفاء _ وكانت مثل هذه الخطوة وصفة مثاليّة لتجدّد الحرب الأهليّة.

كان يزيد خياراً غير مثاليّ، لكنّه ربّما كان الوحيد الذي له أيّ فرصة للحفاظ على التّوازن الذي سعى معاوية بجدّ لتحقيقه خلال عقدين من حكمه، لقد كان معروفاً ومُحترَماً بين أعيان القبائل في سوريّا، وكان بإمكانه _ **من خلال أقارب والدته وشبكاته الشّخصيّة** _ الاعتماد على ذات القاعدة السّياسيّة الصّلبة بين محاربي القبائل السّوريّة، مثل ما فعل والده، لكن للأسف، سواء بسبب سوء الحظّ أو عدم الكفاءة؛ لم يتمكّن يزيد من شقّ طريقه خلال التّحدّيات الصّعبة للغاية التي نشطت عند وفاة والده، وتوفّي فجأة في عام (683) حين كانت قوّاته على وشك إخضاع ابن الزّبير آخرِ عقبة خطيرة أمام توطيد سلطته، ومن المُحتمَل (على الرّغم من أنّنا لا نستطيع أن نعرف أبداً) أنّ مدّة حكم أطول كانت ستُظْهِرُ له ميزة أفضل.

وليست القصّة الكاملة وجود الشّرعيّة أو عدم وجودها! لقد كانت المشكلة الأساسيّة التي واجهها معاوية على الشّكل الآتي: تمكّن بمهارة تامّة من إدارة العالم السّياسيّ الذي ورثه عام (661) ولكنّ العالم كان يتغيّر بسرعة، وأصبح توازن القوى الذي حقّقه غير ذي صلة في العقد الذي أعقب وفاته، ومهما كانت الدّروس التي تعلّمها يزيد من والده، إلّا أنّها لم تعد تُطبّق بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى السّلطة، فقد استولى معاوية

على إمبراطوريّة كان فيها تمييز صارم وواضح بين النّخبة المحاربين العرب والمسلمين (في الأغلب) وكتلة الرّعايا غير المسلمين، واعتمد على ذلك النّظامُ الماليُّ بأكمله، كما اعتمد على تماسك الجيش العربيّ وهويّته الذّاتيّة، وقد بدأ ذلك التّمييز بالتّآكل بعد خمس سنين فقط من وفاة معاوية، كما يتّضح من الدّعم الواسع الذي حصل عليه مُختَار (شخصيّة عربيّة بارزة) بين الموالي (الذين تحوّلوا من غير العرب، وعادة ما يكونون من أصول ذليلة) في الكوفة، ولم يضطر معاوية أبداً إلى حلّ مشكلة الحفاظ على سلامة الإمبراطوريّة مع دمج التّدفّق المتزايد للمتحوّلين من غير العرب، لكنّ خلفاءه فعلوا ذلك، وكان على معاوية أن يتعامل مع ادّعاءات منافسيه للقيادة الدّينيّة، ولا سيّما عليّ وأبنائه، لكنّه لم يواجه أيّ حركات مسيانيّة أو رؤيويّة _ مثل التي ابتُلي به خلفاؤه، وكان على معاوية أن يتعامل مع الولاءات القبليّة والغَيْرة _ ولكن لم يكن هناك شيء ضخم وواسع الانتشار مثل التّحالفات القبليّة التي سمّمت الحياة السّياسيّة الأمويّة في القرن الثّامن، لقد كان حرّاً في استكمال الأعمال غير المُنجزة والاهتمام بها، وهي ليست مهمّة سهلة ولكنّها مناسبة لتوقّعاته ومواهبه الفريدة.

لقد حصرتُ تركيزي حتّى هذه المسألة في تعامل معاوية مع رعاياه المسلمين المنقسمين، ومن البدهيّ أنّه لو فشل في هذه المهمّة، لكان سيفشل في المهمّات الأخرى، لكن، لم تكن سياسته تجاه رعاياه من غير المسلمين أقلّ أهمّيّة؛ لأنّهم يشكّلون الأكثريّة العظمى، وقد كان للمسيحيّين بالنّسبة

لمعاوية أهمّيّة خاصّة، لأنّهم سيطروا على المناطق (سوريّا _ فلسطين) التي حكَمَها حكماً مباشراً، إذ كان وجودهم حسّاساً على نحو مُضاعف، وقد واصل الحرب ضدّ بيزنطة بقوّة بقدر ما تسمح بها الأحوال، لكن من المُفتَرَض أنّ بيزنطة قد جذبت واستمالت الولاءات المتبقّية بين رعاياه المسيحيّين _ على الأقل إلى الخلقيدونيّين[1] _ الذين كانوا الطّائفة المهيمنة في دمشق وفلسطين والأردن، واستطاع تحقيق التّوازن ببراعة فائقة، وقد أشاد الكتّاب السّريان بتسامحه وعدالته وإنصافه، وأعربوا عن امتنانهم العميق لعقدين من السّلام حقّقهما بعد عقود عديدة من الحرب والصّراع. وكانت الشّهادة المعاصرة لراهب سنجار، (يوحنا بن الفنكيّ) لافتة للنّظر بوجه خاصّ؛ يقول فيها:

... بعد قتال طويل بينهم [الفصائل العربيّة في الحرب الأهليّة] حقّق

---

(1) أتباع قانون الإيمان المُعتمد في مجمع خلقيدونيّة عام 451 م، والذي يهدف إلى تحديد، مرة وإلى الأبد، العلاقة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشريّة للمسيح، وبعد الكثير من النقاش، أصبحت العقيدة الخلقيدونيّة الصيغة الرسمية للقسطنطينية وروما، وتم إعادة تأكيدها بوصفها عقيدة رسمية للإمبراطوريّة البيزنطيّة في المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية عام 680 والذي كان، صدفةً، سنة وفاة معاوية، وهي ما تزال عقيدة كنيسة الروم الكاثوليك والكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانيّة وكنائسا الوليدة، وقد رفضت مجموعتان رئيستان الصيغة الخلقيدونيّة: المونوفيزيون إلى حد ما (الذين كانوا مؤثرين بوجهٍ خاصٍ في مصر وشمال سوريا)، والنساطرة (يتركزون في بلاد ما بين النهرين والعراق)، وإن كان ذلك لأسباب متعارضة تماماً، وما تزال هذه الكنائس ترفض قانون الإيمان الخلقيدونيّ.

**الغربيّون الذين يسمّونهم أبناء أميّة النّصر، وأحدهم رجل اسمه معاوية، أصبح ملكاً يسيطر على مملكتَي الفرس والبيزنطيّين. ازدهر العدل في زمانه وساد سلام كبير في المناطق الواقعة تحت سيطرته، وسمح للجميع بالعيش كما يريدون، لأنّهم [المسلمون] أقاموا... مرسوماً نابعاً من الرّجل الذي كان مرشدَهم [محمّد] يتعلّق بأهل النّصارى وموقعهم الرّهبانيّ. ونتيجة لتوجيهات هذا الرّجل أيضاً، تمسّكوا بعبادة الإله الواحد... وبمُجرّد وصول معاوية إلى العرش، كان السّلام في جميع أنحاء الأرض لدرجة أنّنا لم نسمع من قبل، سواء من آبائنا أو أجدادنا أو رأينا ذلك؛ أنّه كان هناك أيّ شيء من هذا القبيل.**[1]

يحتاج التّأثير الطّويل المدى لسياسات معاوية على الكنائس المسيحيّة في سوريّا (وأماكن أخرى) إلى مزيد من التّحقيق، فربّما كان متسامحاً مع المُعتقَدات والمُمارَسات المختلفة؛ وربّما كان يُنظر إليه بوصفه مسيحيّاً محبّاً (على الرّغم من أنّه لم يكن على حساب تفوّق الإسلامَين السّياسيّ والاجتماعيّ) ولكن لا شكّ في أنّ عائدات الإمبراطوريّة الرّومانيّة في مصر وسوريّا قد تدفّقت الآن إلى النّظام الإسلاميّ، ولم تكن كذلك، مثلما كانت تحت ظلّ السلطة البيزنطيّة؛ تُنفق على بناء وصيانة الكنائس والأديرة، ونشر الإيمان، أو في الجمعيّات الخيريّة التي يديرها الأساقفة، إذ قدّم معاوية الأموال لترميم الكاتدرائيّة في الرّها بعد أن دُمرت في زلزال عام (679)

(1) بروك، «North Mesopotamia»، JSAI 9، (1987)، 61.

لكن كان هذا استثناء، ولا بدّ من أنّ ذلك يعني أنّ الإيرادات المتدفّقة على الكنائس قد انخفضت انخفاضاً كبيراً، إذ لم يعد دخلهم يأتي من التبرّعات الإمبراطوريّة أو الضّرائب الإقليميّة المُخصّصة، بل من الهدايا والهبات الخاصّة، **لقد كانت سياسة معاوية بمنزلة الموت البطيء جوعاً.**

وكان لتسامح معاوية تأثير على صعيد آخر، فقد جمّد توزيع الأسقفيّات بين الكنائس الخلقيدونيّة والمونوفيزيّة المتنافسة واضعاً حدّاً للتّنافس المرير بينهما، إذ أصبحت كلّ كنيسة حرّة في تعيين أساقفتها مع تدخل حكوميّ يسير؛ ومع ذلك، فإنّ هذه السّياسة التي أوجدت تسلسلاً هرميّاً متوازياً في مدن عدّة، تعني تقسيماً دائماً وتقلّصَ الموارد لكلا الكنيستين في نهاية المطاف. كذلك أنهت سياسته أيّ جهد من جهة الكنائس لتسوية خلافاتهم، فما حاجتهم حين تعاملهم الحكومة الإسلاميّة على نحو متساوٍ؟ لقد كفل ذلك عدم توحيد مواردهم المتناقصة الآن من الثّروة والمُوظّفين، وتُرك الخلقيدونيّون، والمونوفيزيّين، والنّساطرة ليشقّوا طريقهم الخاصّ بقدر استطاعتهم على المدى الطويل، لقد تُركوا ليذبلوا.

## تجدّد الحرب ضدّ بيزنطة:

على الرّغم من لطف معاوية مع رعاياه المسيحيّين، إلّا أنّه يجب ألّا نقلّل من التزامه بتوسيع الحكم الإسلاميّ، مع أنّنا لا نملك أدنى فكرة عن كيفيّة تفسيره لمعنى وقيمة هذا التّوسّع، إذ لم يعلن على الملأ عن هدف الإمبراطوريّة العالميّة، كان مختلفاً جدّاً عن الإسكندر أو جنكيز خان، ولم يلمح الكتّاب المسلمون أو المسيحيّون مُطلَقاً إلى أنّه اعتنق أيّ برنامج مسيحيّ أو رؤيويّ، ومن ثمّ يبدو أنّه لم ير مهمّته أنّها إيذان بنهاية الأزمنة، كما إنّه لم يسع جاهداً **إلى جعل الإسلام الدّين النّهائيّ والعالميّ للبشريّة**، إنّما يشير تحليل سياساته الدّاخليّة إلى أنّ آخر شيء يريده هو تدفّق المتحوّلين الهائل، ومع ذلك أمضى معاوية سنيّ شبابه في بناء وتوسيع الإمبراطوريّة الإسلاميّة بوصفه قائداً مرؤوساً في الحملات الفلسطينيّة والسّوريّة في ثلاثينيّات القرن السّادس وحاكماً لسوريّا خلال أربعينيّات وأوائل خمسينيّات القرن السّادس، وخليفة، لقد واصل الحروب البيزنطيّة بقوّة بوصفه حاكماً، وحالما ضمن مُطالَبته بالخلافة، عاد من جديد إلى حملات الغزو، ووُجّهت الحملات إلى الحدود البيزنطيّة غرباً إلى شمال أفريقيّا؛ وشرقاً إلى أقصى إيران، وقد تكون هذه الحملات حيلة سياسيّة لإخراج رجال القبائل القلقين من مدن الحاميات وعدم منحهم الوقت ليفكّروا بإمعان وتروٍّ في مظالمهم ضدّ النّظام، إلّا أنّ هذا لم ينصفه، لأنّ قرارات معاوية جميعها كانت مدروسة سياسيّاً: كان يعلم جيّداً أنّ الخلافة تأسّست

على الجهاد؛ فهذا هو سبب وجودها ولم يعرف الجيش العربيّ الذي أنشأها أيّ مهنة أخرى، **إذ بدون حملات جديدة تمنحهم الشّعور بالهدف والتّوجيه، سيتّجهون إلى القتال فيما بينهم وحتّى ضدّه،** كان معاوية نفسه جزءاً من ذلك العالم، وشاركه قيَمَه، ويشير اسمه الرّسميّ _ أمير المؤمنين _ إلى أنّه يقع عليه واجب توسيع حدود الإسلام، وقد تكون حملات معاوية أيضاً وسيلة لترميم طريقه الملتوي إلى حدّ ما إلى السّلطة، فإذا استولى على القسطنطينيّة، فمن سيهتمّ باتّهامات الخداع في صفّين؟ أنا أشكّ في أنّ معاوية كان يشعر بتأنيب الضّمير تجاه صفّين أو أيّ شيء آخر، لكن إذا كانت مُبادَراته العسكريّة يمكن أن تتغلّب على منتقديه، فلم لا؟!

كانت الحروب في إمبراطوريّته اللّامركزيّة في شمال أفريقيّا وإيران إلى حدّ كبير تحت سيطرة حكّامه في مصر والعراق؛ على الرّغم من أنّ علينا افتراض أنّه أذن بسياساتهم الشّاملة، ومع ذلك، كانت بيزنطة مختلفة، فقد مثّلت الجبهة التي أمضى فيها أكثر من ربع قرن قبل أن يضمن الخلافة، فقد سقطت إيران السّاسانيّة إلى الأبد خلال خلافة ابن عمّه عثمان، وكانت مهمّته التّعامل مع بيزنطة، ونظراً إلى العيش _ كما فعل في بيئة مسيحيّة إلى حدّ كبير _ مُحاطاً بآثار الحكم الرّومانيّ المهيبة، لا بدّ من أنّ بيزنطة كانت ماثلة بقوّة في تفكيره.

سأتعامل بإيجاز مع حملات شمال أفريقيّا وإيران فقط، فقد أتاحت

الفتوحاتُ الملحميّة (وإن كانت مُؤقّتة جدّاً) في شمال أفريقيّا، تحت الحكم شبه الأسطوريّ لعقبة بن نافع، فرصاً جديدة للتّوسّع، لكن أدّت وفاته في المعركة (عام 683) والحرب الأهليّة الثّانية إلى عدم استغلال تلك الفرص حتّى ستّينيّات وسبعينيّات القرن السّادس، وتوغّلت الجيوش العربيّة في إيران بعيداً إلى الشّمال الشّرقيّ في عهد عثمان، لكن كانت سيطرتهم على البلاد غير مكتملة وغير موجودة في العديد من المناطق، وأدرك معاوية (أو بالأحرى زياد) أنّ الفتوحات والغارات المعزولة ليس لها قيمة بعيدة المدى، واتّخذ خطوات لتعزيز الحال الإسلاميّة في إيران، وأرسل زياد عام (671) نحو (50) ألف رجل وعائلاتهم من البصرة والكوفة للاستقرار في واحة مرو الحدوديّة، وقدّم استعمار مرو _ للمرّة الأولى _ أساساً متيناً للحكم والتّوسّع الإسلاميّين في خراسان المُقاطَعة الشّماليّة الشّرقيّة النّائية ولكنْ الاستراتيجيّة في إيران، كما إنّه استنزف القوّات الزّائدة من العراق ومن ثمّ قلّل من تكلفة الحكومة وقوّة الحاميات العراقيّة، لقد كان هذا التّرحيل القسريّ بداية الاستيطان العربيّ في خراسان، وأسلمةِ تلك المُقاطَعة المهمّة، وربّما في نهاية المطاف للتوتّرات الاجتماعيّة التي أدّت في النّهاية إلى ولادة الثّورة العبّاسيّة عام (746-747).

فبمُجرّد أن أحكم معاوية قبضته على الخلافة، جدّد الحملات البرّيّة في الأناضول بقوّة، وكانت هذه الحملات شعواء، فقد شُنّت كلّ صيف وغالباً في الشّتاء أيضاً، ونُفّذت الغارات البحريّة ضدّ سواحل الأناضول

الجنوبيّة وإيجة في بعض الأحيان بالتّنسيق مع الحملات البرّيّة وأحياناً على نحو مستقل، وكان من المُتوقّع أن يقود قادة معاوية كليهما، ولم يكن عنده نقص في القادة العسكريّين الأكفّاء، مثلما سيُظهِر أحد الأمثلة، حين كان معاوية حاكماً لسوريّا، وكان قائده المُفضّل حبيباً بن مسلمة الفهريّ، لكن حين توفّي (عام 663) تحوّل معاوية إلى محارب قديم آخر، وهو بُسْرُ بن أبي أرطأة العامريّ، حيث ينتمي بسر، على غرار حبيب إلى قبيلة قريش، لقد انضمّ إلى أولى حملات شمال أفريقيّا في أربعينيّات القرن السّادس حين كان في ريعان شبابه، وقاد حملات بحريّة وبرّيّة ذات أهمّيّة ضدّ بيزنطة حين كان معاوية حاكماً، كان موالياً متحمّساً، وشرساً في بعض الأحيان لمعاوية طوال الحرب الأهليّة، وقد قدّر معاوية الولاء والموهبة، لذا فإنّ اعتماده الكبير على بسر قائداً عسكريّاً ليس مفاجئاً، والمثير للدّهشة أنّ بسراً لم يُكافأ مُطلَقاً بمنصب حاكم، ربّما لأنّ معاوية أدرك أنّ مواهبه تكمن في الحرب وليس في الإدارة.

ولا تخبرنا المصادر العربيّة سوى بالقليل عن هذه الغارات باستثناء أسماء قاداتها، لكنّنا نعلم، سيما من (تيوفان) أنّها كانت شديدة التّدمير، وتشهد الأدلّة الأثريّة على التّخلّي السّريع عن المدن الكبرى في إيجة الأناضول، مثل المدن التي نجت في هذه المنطقة التي كانت ذات يوم شديدة التّحضّر إلى حصون على قمم التّلال استطاع القرويّون من المناطق المحيطة أن يفرّوا إليها حين وصلت الجيوش العربيّة. وكان عند المغيرين

المسلمين في ستّينيّات القرن السّادس أشياء كثيرة على طريقتهم الخاصّة؛ إذ انتقل الإمبراطور قسطنطين الثّاني (641-668) إلى صقلّيّة عام (661) وعاش في سرقوسة، وقد كانت أسبابه غامضة؛ فلعلّه يئس بعد سنين عديدة من النّضال من مُحاوَلته الدّفاع عن الأناضول ضدّ العرب واليونان ضدّ السّلاف، وحين اغتيل (في حمّامه) عام (668) سقط العرش في يد ابنه قسطنطين الرّابع (668-685) الذي أثبت أنّه قائد أكثر فاعليّة؛ ومع ارتقائه العرش، استقرّ المركز البيزنطيّ في الأناضول على الرّغم من أنّه لم يكن منيعاً حتّى هجمات القرن الثّامن المُضادّة لأباطرة حرب الأيقونات.

ما الهدف المرجوّ من هذه الحرب المستمرّة؟ لقد جادل أكثر المعلّقين الذين لحظوا أنّ مدن الأناضول تعرّضت للهجوم والنّهب على نحو متواصل، لكن لم تُحتلّ على نحو دائم أبعد من معابر طوروس؛ جادلوا في أنّ الأهداف الوحيدة كانت النّهب والسّلب، وأعتقد في أنّ هذا التّفسير ضيّق جدّاً، وبإمكاني القول: **إنّ معاوية كان يدير حرب استنزاف لتقويض الأسس الاقتصاديّة والدّيموغرافيّة للحكم البيزنطيّ في آسيا الصّغرى وإيجة، وتدميرِ الجيوش البيزنطيّة التي كافح قنسطنس وقسطنطين لإعادة بنائها**، وكانت الموارد البشريّة والإداريّة المُتاحة لمعاوية محدودة؛ إذ لم يستطع توفير حامية لكلّ مدينة، أو مسألة قوّة في الأناضول، وما يزال لديه ما يكفي من القوّات المتنقّلة لصدّ هجوم بيزنطيّ مضادّ خطير، والأكثر أهمّيّة أنّ الأناضول كانت تشكّل هضبة مرتفعة مُحاطة بجبال عالية، وقد

جعل الشّتاء القارس ونقص العلف من الصّعب على رجال القبائل العربيّة وجِمالِهم البقاء هناك خلال الأشهر الباردة، وعَنَتْ معابرُها المُغطّاة بالثّلوج أنّه لا يمكن إعادة إمدادهم من سوريّا، وكانت الشّبكة الحضريّة التي كانت مُكتظّة بالسّكّان في الأناضول الرّومانيّة في حال تدهور حادّ، ولم تتمكّن القوّات العربيّة بسهولة من انتزاع إمدادات كافية من مجموعة صغيرة متناثرة من السّكّان الذين عاشوا في / أو بالقرب من حصون على قمّة تلّ مُحصّنة بإحكام، ولم يلجأ معاوية في ظلّ هذه الأحوال إلّا إلى حملات قصيرة ومكرورة على نحو مُكثّف.

لم يكن ممكناً النّيل من الإمبراطوريّة البيزنطيّة جزءاً تلو آخر مثلما حدث في إيران بعد معركة نهاوند عام (642) وموت آخر ملك _ يزدجرد الثّالث _ عام (651) وكان ضرب القسطنطينيّة مباشرة الطّريقة الوحيدة لإسقاطها، ومع ذلك، لا يمكن مُهاجَمة القسطنطينيّة بنجاح إلّا إذا لم يكن هناك خطر من هجوم مضادّ من الدّاخل، ومن ثمّ كانت حملات النّهب والسّلب، أو يمكن تفسيرها بأنّها كانت تفريغاً للإمبراطوريّة البيزنطيّة، فإن سقطت القسطنطينيّة، فسيكون هناك الكثير من الفرص (كما اتّضح في ظلّ الحكم العثمانيّ) لاستعادة بعض عناصر شبكة الأناضول الحضريّة على الأقلّ.

بلغت استراتيجيّة معاوية ذروتها في الحصار البحريّ للقسطنطينيّة

من سنة (674) إلى سنة (678) حيث استقرّ الأسطول الإسلاميّ في سيزيكوس على الشاطئ الآسيويّ لبحر مرمرة، ولم يكن هذا حصاراً بقدر ما كان استخداماً للغارات البحريّة المستمرّة لعزل المدينة وتعطيل التّجارة التي تعيش من خلالها والتي استمدّت منها الحكومة الإمبراطوريّة كثيراً من إيراداتها خلال الحملة البحريّة ضدّ القسطنطينيّة، واستمرّت الغارات البرّيّة السّنويّة على الأناضول، ويمكننا أن نفترض أنّها ترمي جزئيّاً إلى منع القوّات البيزنطيّة من تهديد القاعدة البحريّة الإسلاميّة في سيزيكوس أو تعزيز دفاعات العاصمة. ولسوء الحظّ، تعافى الأسطول البيزنطيّ إلى حدّ كبير من كارثة معركة ذات الصّواري سنة (655) وكان قادراً على نشر سلاح جديد فعّال جدّاً، وهو النّيران اليونانيّة ضدّ السّفن الإسلاميّة، واضطرّ الأسطول الإسلاميّ بحلول خريف عام (678) إلى الانسحاب من بحر مرمرة في حال من التّخبّط المتزايد، وتكبّدت خسائر فادحة في عاصفة أثناء إبحارها عائدة إلى الوطن. لقد خاب أمل معاوية في إسقاط الإمبراطوريّة البيزنطيّة من خلال استراتيجيّة استنزاف وتضييق ذات تكلفة وخطورة منخفضة نسبيّاً، ولقد تجنّب مزيداً من المُواجَهة لبقيّة عهده. وتقول مصادر يونانيّة: إنّه اضطرّ إلى السّعي للتّوصّل إلى هدنة ودَفَعَ جزيةً كبيرة، ربّما تصل إلى ثلاثة آلاف جنيه من الذّهب كل عامّ زيادة على العبيد والخيول الأصيلة، لكن، حتّى مع هذا الإخفاق المهين، تركت حملاته الإمبراطوريّة البيزنطيّة في حال ضعيفة لعقود عديدة.

بدأ الخليفة سليمان بن عبد الملك (715-717) تحدّي القسطنطينيّة بعد أربعين عاماً، إذ شنّ هجومين بحريّ وبرّيّ ضخمين على المدينة بأكبر القوّات التي يمكنه جمعها بقيادة أفضل قادته (وأخيه غير الشّقيق) مسلمة بن عبد الملك بن مروان؛ لكن هذه الحملة فشلت أيضاً في واحدة من أعظم الكوارث العسكريّة التي لحقت بالعرب المسلمين، ودرأت القسطنطينيّة التّحدّيات الأخرى كلّها لما يقرب من (500) عام حتّى اقتحمتها ونهبتها القوّات المسيحيّة للحملة الصّليبيّة الرّابعة عام (1204) ولم تسقط حتّى عام (1453) في أيدي الجيش الإسلاميّ، فإذا لم يكن معاوية باني الدّولة (مثل عبد الملك وهشام) أو فاتحاً عظيماً، أو صانع إيديولوجيّة دينيّة سياسيّة راسخة، أو رجلاً قادراً على توريث توافق سياسيّ مستقرّ، فما هي أهمّيّته بالنّسبة إلى التّاريخين الإسلاميّ والعالميّ؟! هل كان مُجرّد ناشط سياسيّ ماهر؟ أعتقد في أنّه كان أكثر من ذلك بكثير. فأوّلاً _ والأكثر أهمّيّة _ أنّه أنقذ الإمبراطوريّة الإسلاميّة من التّفكّك بعد الأزمة التي اندلعت بموت عثمان، ويرجع الفضل إليه بالكامل إلى أنّ هذا المشروع الواسع لم يحدّد مصير الإمبراطوريّة التي رسمها الإسكندر الأكبر؛ ولو انتصر عليّ في الحرب الأهليّة، فمن الصّعب تصوُّرُ أنّه كان بوسعه تحقيق هذه المهمّة، لأنّه حتّى تقارير أنصاره المتحمّسين تُظهِرُ أنّه لا يمتلك إلّا موهبة محدودة في السّياسة، وقد نعتقد في أنّ لديه التزاماً راسخاً بالإسلام، وشجاعة كبيرة، واستقامة أخلاقيّة، وهدفاً واضحاً، لكنّه لم يستطع إخضاع أتباعه لإرادته

في كلّ مرّة كانوا يناقضونه، فيتحدّون سلطته، وينقسمون إلى فصائل متناحرة لا يمكن التّوفيق بينها، وقتلوه في نهاية المطاف.

وعلينا أيضاً أن ندرك التّأثير العميق لقرار معاوية الإبقاءَ على دمشق بوصفها مقرّ إقامته الرّئيس بعد انتصاره، وبذلك، لم يقطع صِلاته الشّخصيّة مع مسقط رأسه مكّة فحسب، بل قطع أيضاً علاقات الحكومة الإسلاميّة المركزيّة المتبقّية مع أصولها العربيّة، لقد أدرك معاوية أنّ الإمبراطوريّة التي شغلت نصف المُقاطَعات البيزنطيّة والمُقاطَعات السّاسانيّة جميعها لا يمكن أن تُحكم من واحة نائية تقع غرب المنطقة العربيّة؛ إذ لا يمكن لمثل هذه الإمبراطوريّة أن تدوم وتزدهر إلّا إذا نُقلت عاصمتها من أطراف «العالم المتحضّر» القديم إلى قلب البلاد العريق للزّراعة المستقرّة والحياة الحضريّة والتّجارة والثّقافة العالية والحكومة المُنظّمة، لقد أظهرت الحرب الأهليّة التي جرى خوضها إلى حدّ كبير في العراق وسوريّا _ هذه المسألة بكلّ وضوح، ولأسباب أكثر واقعيّة _ كان لابدّ من تحديد موقع مركز الحكومة حيث تتقاطع خطوط التّجارة والاتّصالات الرّئيسة، وحيث يمكن إيجاد إداريّين ذوي خبرات.

ومن الطّبيعيّ أن يختار معاوية دمشق، لأنّه بنى قاعدة سياسيّة قويّة هناك خلال السّنين التي قضاها حاكماً لسوريّا، غير أنّ المدينة كانت مناسبة تماماً لمهمّة إمبراطوريّة، كانت قريبة (لكن ليست قريبة جدّاً) من

الحدود البيزنطيّة الحسّاسة وموقعاً مركزيّاً بين العراق ومصر والحجاز وموانئ البحر الأبيض المتوسّط مع خطوط اتّصال ثابتة؛ مشكلتها الحقيقيّة الوحيدة أنّها مدينة متوسّطة الحجم في واحة متوسّطة الحجم، وكانت الإيرادات المباشرة التي حقّقتها غير كافية لدعم جيش كبير أو بيروقراطيّة مُعقّدة، ولعلّ _ على المدى الطويل _ نقل السّلطة إلى منطقة العراق الأكثر ربحاً، كان أمراً لا مفرّ منه.

هل كان الانتقال من المدينة المُنوّرة إلى دمشق تغييراً صادماً للمسلمين صدمة شبيهة بنقل عاصمة الإمبراطوريّة البريطانيّة من لندن إلى دلهي؟

لعلّه كان بالنّسبة للكثيرين كذلك، لقد رفض عبد الله بن الزّبير، الخصمُ العنيد وشبه النّاجح ليزيد وعبد الملك في الحرب الأهليّة الثّانية؛ رفض مُغادَرة الحجاز؛ فبالنّسبة له، **إذ كانت الحكومة إسلامية _ باسم النّبيّ _ فيجب أن تبقى في موطن النّبيّ**، وربّما شعرَت مجموعات أخرى مرتبطة بالنّخبة الإسلاميّة القديمة _ أي كبار الصّحابة وذريّاتهم _ بالطّريقة ذاتها، إذ استمرّ العديد منهم في العيش في الحجاز لجزء من وقتهم على الأقلّ، لكن لم يعد أكثر المسلمين يعيشون في الحجاز ولا حتّى في شبه الجزيرة العربيّة، إذ تَركَ _ في سياق الفتوحات الكبرى _ الكثيرُ من السّكّان الرّحّل في المنطقة العربيّة أوطانهم وهاجروا إلى العراق و (بدرجة أقلّ) إلى أراض مُحتلّة أخرى، **ويصعب جدّاً تحديد كيف كانوا ينظرون إلى**

**«الموطن الأصليّ»** فهل هم بوصفهم غرباء في أرض غريبة بحاجة إلى الملاذ الرّمزيّ والعاطفيّ لخلافة عربيّة ثابتة على نحو آمن في المنطقة العربيّة؟ لا يمكنني تقديم إجابة قاطعة عن هذا السّؤال، إذ حظي عبد الله بن الزّبير خلال ثمانينيّات القرن السّادس بدعم أكثر العرب باستثناء كلب (قبيلة تأسّست منذ زمن بعيد في سوريّا) والأمويّين، وقد يعكس جزء من هذا الدّعم رغبة محسوسة على نطاق واسع لإعادة الخلافة إلى المدينة، إلّا أنّ جزءاً منه يكمن في مكان آخر بالتّأكيد، على سبيل المثال، أنّه يرمز إلى الوحدة المُتخيَّلة والحماس الأخلاقيّ للإسلام قبل زمن الاضطرابات في خمسينيّات القرن السّادس، أو حتّى أنّه كان بديل الحكم الأمويّ الوحيد القابل للتّطبيق، إذ لم يَعْفُ قرارُ معاوية البقاءَ في دمشق على المكانة الدّينيّة لمكّة والمدينة عندهم، وقد بقيتا مُقدّستَين، ومهد الإيمان وموطنه، إذ لم يكن ارتباط العرب بوطنهم موضع شكّ.

لم يكن معاوية راضياً بالحفاظ على إمبراطوريّته متماسكة مع بعضها فحسب، على الرّغم من أنّ ذلك لم يكن إنجازاً هيّناً، **بل واصل بقوّة سياسة التّوسّع العسكريّ التي استهلّها أبو بكر وعمر**، ومن ثمّ أكّد أنّ الخلافة لم تكن مملكة بربريّة حديثة العهد؛ بل إمبراطوريّةً عالميّةً، والخليفةَ الحقيقيّة لإيرانَ السّاسانيّةِ ونظيرةَ روما، لقد حافظ ووسّع الأسطول الضّخم الذي أنشأه بوصفه حاكماً لسوريّا التي سيطرت خلال خلافته على إيجه وشرق البحر الأبيض المتوسّط. وبصرف النّظر عن حملاته المربحة في قبرص

واحتلاله لرودس، فقد ضايق القسطنطينيّة بهذا الأسطول لمدّة أربع سنين، واحتُلّت تونس تحت رعايته، ووصلت القوّات الإسلاميّة إلى المحيط الأطلسيّ؛ مع أنّ غزوات شمال أفريقيًا لم تكن مُموّنَة حتّى عام (690) وقد وطّد الحكم الإسلاميّ في شمال شرق إيران وتوسّعت الحدود شرقاً، وتابع الحرب ضدّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة بلا هوادة، وعلى الرّغم من أنّه فشل في احتلالها، إلّا أنّه دفع الحدود البيزنطيّة إلى معابر طوروس، وجعل جزءاً كبيراً من وسط الأناضول أرضاً محظورة.

أنشأ معاوية عدداً من المُمارَسات والسّياسات التي شكّلت مُمارَسات وسياسات خلفائه لأجيال عديدة، **وما هو أكثر أهمّيّة مُمارَساته التّجنيديّة في الجيش السّوريّ**، فقد اعتمد على غرار خلفائه حتّى مروان الثّاني اعتماداً كبيراً على القوّات العربيّة في سوريّا، لكنّه لم يحاول إنشاء فوج نخبة تحت سيطرته الشّخصيّة، ولم يكن لديه سوى قوّة شرطة قليلة العدد وحارس شخصيّ في دمشق، ونادراً ما كان يستخدمه، واعتمد على صِلاته بالقبائل السّوريّة لتجنيد جيوشه للحملات البيزنطيّة والصّراع ضدّ عليّ. وبصرف النّظر عن التّغييرات التي أُدخلت في عهد عبد الملك وخلفائه، استمرّ الأمويّون اللّاحقون في تجنيد جيوشهم على نحوٍ رئيس من قبائل سوريّا حتّى الأزمة الكارثيّة عام (743-744) إذ نُشرت الجيوش العراقيّة والمصريّة التي كان لمعاوية علاقات شخصيّة قليلة معها لتوسيع الحدود في شرق إيران وشمال أفريقيّا، لكنّه لم يثق بهم مُطلَقاً لدعم نظامه، لذلك استخدم رجال العشائر

السّوريّة الذين يعيشون في مناطق رعيهم التّقليديّة أو المُنشَأة حديثاً. أمّا في الشّمال، فقد قدّمت قبائل قيس حديثة الاستيطان القوّات للحدود البيزنطيّة والأرمنيّة، بينما كانت كلب حارسة وسط سوريّا. لقد تغيّر النّظام العسكريّ بطرق مختلفة في عهد الأمويّين الّلاحقين، لكن بقي في هياكله الأساسيّة ومُمارَسات جيشه كما أنشأه معاوية، وللأسف، تورّط خلفاؤه في ـ وأحياناً أثاروا ـ التَحزّب المرير المتزايد بين القبائل العربيّة (ليس في سوريّا فحسب، بل في العراق وبلاد ما بين النّهرين العليا وخراسان) الذي سيدمّر أسس الأسرة الحاكمة في نهاية المطاف، لكنّ هذا يتجاوز عهد معاوية بكثير.

# الفصل السادس

# أمير محنتنا: معاوية بوصفه رمزاً للتّوتّر الثّقافيّ

يمثّل معاوية مشكلات عديدة بالنّسبة للكُتّاب السّنّة في أواخر القرن الثّامن وما بعده، لكنّهم جميعاً متّفقون في أنّه كان مسؤولاً عن **تحويل الخلافة إلى مُلك** في نظرهم، لقد حوّل حكومة تعمل وفقاً للمبادئ التي أرساها الله ورسوله إلى هيمنة علمانيّة احتفظت باسم الإسلام إلّا أنّها لم تختلف عن حكومة أيّ إمبراطوريّة أخرى! لقد قام بذلك من خلال طريقة وصوله إلى السّلطة، ومن خلال إقامة الخلافة على أساس الوراثة عوضاً عن الاستحقاق والمكانة في الإسلام. إذ إن سجونه، وقوّات شرطته، وحرّاسه الشّخصيّون، وما إلى ذلك ممّا لم يستخدمها الخلفاء الأول المتديّنون؛ زادت الطّين بلّة، وقد أنكر القليلون أنّ حكومته كانت فعّالة، وفي الغالب كان عادلة، لكنّها كانت **حكومة رجال وليس حكومة الله**.

ولم يقبل معاوية وأنصاره هذه الاتّهامات، وقد استخدم معاوية لقب «عبد الله»، وكان نظامه «سلطان الله»، وخزانة الإمبراطوريّة «مال الله»، حيث تشير هذه المُصطلَحات **إلى مفهوم استبداديّ للحكم عند حاكم تأتي سلطته مباشرة من الله ويستجيب له وحده**، وعلى الرغم من أنّ خلفاء

معاوية الأمويّين فكّروا بهذه الطّريقة، إلّا أنّ من غير الواضح تماماً ما إذا كان قد فكّر بالمثل،[1] ولعلّه كان يحاول التّأكيد على أنّ نظامه واصل المضي بإخلاصٍ في الطّريق التي رسمها القرآن والنّبيّ وخلفاؤه الثّلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان، لكن بالطّبع ليس عليّاً).

وبعيداً عن مزاعم معاوية نفسه، لم يمرّ الهجوم المتدّين على نظامه بدون اعتراض بالكامل، وقد اعترف ابن خلدون (1338-1406) بإجماع زملائه العلماء، لكنّه جادل في أنّ هذا خارج عن سياق الموضوع، وكانت التّغييرات التي أدخلها معاوية في تحليله لطبيعة السّياسة على البنية السّياسيّة للمجتمع الإسلاميّ حتمية من خلال منطق المجتمع البشريّ، **وقد ناضل ابن خلدون من أجل التّوفيق بين المُثل الإسلاميّة والواقع الدّنيويّ**؛ إذ كان يعتقد في أنّ كليهما يمثّلان أبعاداً ضرورية للحياة البشريّة، إذ لا يمكن للنّاس تحقيق الازدهار والخلاص إلّا إذا عاشوا حياتهم وبنوا مجتمعاتهم وفقاً للوصايا الإلهيّة، وقد عُرِفت هذه الوصايا من خلال الوحي «القرآن» وتعاليم الرّسول ومثّلته «السّنّة» وجهودُ العلماء المتديّنين والمتعلّمين لتفسير النّصوص المُقدّسة وتطبيقها على احتياجات الحياة اليوميّة، مع ذلك، **إنّ مُثُلَ الإسلام لا يمكن تحقيقها**

(1) انظر إلى مناقشة باتريشيا كرون ومارتن هايندز الرائعة، وإن كانت مثيرة للجدل، «God's Caliph». حول هذه النقطة. عُثر على البيان الأكثر وضوحاً والمفصل بالكامل لاستبداد الخلافة في رسالة كتبها أحد الأمويين السابقين، الوليد الثاني، عام 733-734.

**إلّا من خلال الاعتراف الصّريح بحقائق الطّبيعة البشريّة والدّيناميكيّات المُحدّدة للتّنظيم الاجتماعيّ البشريّ.**

لقد سعى النّاس بطبيعتهم إلى السّيطرة على الآخرين وإشباع شهواتهم الفطريّة، إذا أُريد تجنب التّدمير المُتبادَل، فإنّ مبادئ الانضباط والإكراه ضروريّة، وقد طُبق الانضباط في المجتمعات الصّغيرة، أي مجموعات القرابة أو أولئك الذين عاشوا معاً في مساحة محدودة من خلال القوّة الطّبيعيّة للقبلية أو التّضامن المجتمعيّ «العصبيّة»، إذ فرضت الجماعة معاييرها على أعضائها بصورة جماعيّة، أمّا في المُجتمَعات المجهولة الكبيرة، سواء أكانت مجموعات متباينة تعيش متراصّة في المدن أو تلك المنتشرة في مناطق واسعة، فلا يَمنع النّاسَ من التّربّص ببعضهم بعضاً إلّا الإكراه الخارجيّ، وقد طُبّق هذا الإكراه من خلال المُلك الذي قد يعني السّيادة أو الملكيّة أو السّلطة الملكيّة.

وقد جادل ابن خلدون في مسألتين أخريين، هما، أوّلاً: لم تكن العصبيّة ولا المُلك جيّدين أو سيّئين بطبيعتهما، وما يهمّ هو الغايات التي طُبقت من أجلها. ثانياً: بالنّظر إلى طبيعة المجتمع البشريّ، تحوّلت «العصبيّة» حتماً إلى «مُلك»:

**... في رأي محمّد، هذا العالم هو وسيلة نقل إلى العالم الآخَر، ومن يخسر**

**السّيّارة لا يمكنه أن يذهب إلى أيّ مكان... إذا كان المُلك سيطر على البشر بصدق من أجل الله... فلن يكون هناك شيء يستحقّ الشّجب.**[1]

لقد قدّم مجيء الإسلام مهرباً من هذه العمليّة: فأوّلاً، غرس في أتباعه انضباطاً وأخلاقاً داخليّة لا تتطلّب إكراهاً خارجيّاً، وثانياً، عزّز الرّوابط المجتمعيّة غير الرّسميّة للعصبيّة التّقليديّة لعرب الصّحراء. لكن، مع انحسار قوّة وجود النّبيّ الحيّ، أصبح الإسلام (لنستخدم تعبيراً حديثاً) مُنمَّطاً؛ **إذ لم يعد بإمكانه توليد إحساس كاف بالانضباط عند أكثر الرّجال على الرّغم من وجود استثناءات على الدّوام.** لقد تبدّد تأثير الإسلام بسبب النّطاق الواسع للفتوحات والثّروة الهائلة المفاجئة التي ولّدتها، ولهذه الأسباب جميعها، لم تستحقّ أفعال معاوية اللّوم من منظور دينيّ، فقد نجمت عن المنطق السّياسيّ للحال التي وجد هو ومعاصروه أنفسهم فيها.

مهما كانت حسنات أو سيّئات الطّريقة التي وصل بها معاوية إلى السّلطة أو الغايات التي استخدمها من أجلها، فقد اعتُرف بفطنته السّياسيّة الخارقة عالميّاً، وجسّد صفات ما سمّاه ابن خلدون «**المُلك السّياسيّ**» حكم يرمي إلى أمن وازدهار رعاياه في هذا العالم، ويعتقد الكتّاب المسلمون أنّ حكمه كان واضحاً في العديد من الصّفات

(1) ابن خلدون _ روزنتال، الأوّل، 415-417، عُدّل قليلاً.

الشّخصيّة، وكانت الصّفة الأولى هدوءه التّام «حِلم»، ولطالما كان صبوراً ولطيفاً غالباً، ولم يُظهر غضبه علناً حتّى في مُواجَهة الاستفزاز الشّديد، وأبقى فكره الحقيقيّة مخفيّة. والصّفة الثّانية أنّه كان قاضياً رائعاً للرّجال، وفهم كيفيّة التّعامل معهم، لقد عرف غاياته، لكنّه تشاور مع كلّ شخص ذي قيمة، سيّما وجهاء القبائل الذين جنّدوا وقادوا قوّاته، لقد عرف كيف يستمع حتّى حين يحسم قراره في مجتمع يقدّر الكرامة الشّخصيّة والّشرف، لم يؤسّس نظامه على أقاربه الأمويّين، بل كان يميل إلى تهميشهم، وإن كان ذلك بأساليب حكيمة ومشرّفة ومجزيّة ماديّاً، وأمّا بالنّسبة لحكّامه ومستشاريه، فقد فضّل الرّجال الذين تعتمد مكانتهم على مصلحته، ولكنّهم اكتسبوا الاحترام من خلال مزاياهم وإنجازاتهم؛ أمّا الصّفة الثّالثة فهي أنّه عرف كيف يفكّر استراتيجيّاً، إذ يمكن استغلال الإخفاقات الّلحظيّة (مثل: معركة صفّين) لتحقيق مكاسب طويلة المدى، ويمكن كسب المعارضين (مثل زياد بن سميّة) وحتّى تكليفهم في مواقع حساسة، وكان كلّ انتصار يمهّد الطّريق للخطوة التّالية، وبقدر ما يمكننا أن نؤكّد، أنّ أهدافه كانت محدودة ومُحدّدة، أي إعادة إحلال السّلام والاستقرار الدّاخليّين، وتقوية الفتوحات الإداريّة، وتوسيع حدود الإسلام بالقدر الذي تسمح به الموارد، وكان طموحه الوحيد غزو القسطنطينيّة وإدماج الإمبراطوريّة البيزنطيّة في الخلافة، إنّه أكثر من

مُجرّد انتصار سياسيّ، قد يرمز هذا إلى تحقيق النّظام الجديد الذي جاء به الإسلام، ولم ينجح معاوية في تحقيق هذا الهدف، لكن على الرّغم من أنّ فشله أثار شعوراً عميقاً بخيبة الأمل، إلّا أنّه لم يثنه عن السّعي الدّؤوب لتحقيق أهدافه الأخرى، **لقد جعل معاوية فنّ السّياسة يبدو سهلاً، أي سهلاً جدّاً لدرجة أنّ خلفاءه لم يتمكّنوا من معرفة سبب عدم نجاحهم في تحقيق الأشياء ذاتها.**

يأتي الدّليل على ذلك على نحو شبه كامل من القصص والمقالات القصيرة التي يحبّذها كثيراً علماء الأنثولوجيا الأدبيّة الذين يبحثون عن الّلغة الأكثر بلاغة، أو الحديث الجانبيّ المثير للسّخرية، أو الرّدّ الأكثر ذكاءً، ونادراً ما تكون المصداقيّة البحتة؛ ناهيك عن التّسلسل الزّمنيّ والسّياق ذات صلة، إذ لا ينبغي التّفكير في هذه القصص بوصفها سجلاًّ لأحداث فعليّة، قد يكون القليل منها حقيقيّاً لكن بعضها الآخر مُنمّق، واختُلق _ على نحو واضح _ العديد منها، **كما رُويت العديد من القصص المتعلّقة بمعاوية عن أناس مختلفين تماماً**، فإذا كانت القصّة جيّدة، تكون قائمة الشّخصيّات الدّراميّة غير مهمّة، ومع ذلك، فحتّى الفكر النّمطيّة التي ينقلونها تخبرنا كيف كان يُرى معاوية ويُذكر، ويمكن القول: إنّها تحافظ على جوانب مهمّة من شخصيّته العامّة، إنّ القصص عنه كثيرة وتوجد في كلّ المختارات الرّئيسة من العصور الوسطى، وقد جمع البلاذريّ وحده نحواً من (400) قصّة،

هي المجموعة الوحيدة الأكبر.[1]

كانت هذه المقولة السّاخرة تتكرّر باستمرار، قال معاوية ذات مرّة: لو كانت بيني وبين النّاس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جبذتها. وتوجد مقولات أخرى مُقتَضَبة ومباشرة بذات القدر: أضع لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضع سَوْطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجد من السّيف بدّاً ركبته.[2]

وحين سمح لرجل مع دهشة الحاضرين بالتّحدّث بغطرسة غير عاديّة، قال: لا أحولُ بين النَّاسِ وبينَ أَلْسِنَتِهِمْ ما لم يَحُولوا بيننا وبينَ مُلْكِنا.[3]

لقد عرف معاوية متى يكون حازماً ومتى يتراجع من خلال التّعبير عن ذلك بلغة أكثر حداثة، فإن أظهر تساهلاً كبيراً _ حتّى في مُواجَهة الإهانات الخطيرة أو المطالب الباهظة _ يوجد دوماً تهديد غير مُعلَن إذا تجاوز الأمر الحدّ، لقد بذل جهوداً كبيرة لكسب (ويمكننا القول، استمالة) خصومه، ولكن إذا لم يتمّ التّوفيق بينهم أو شراؤهم، كان هناك ثمن يُدفع، إذ استخدم المُبالَغة في الغضب لتخويف الأعداء لكن حالما يكتشف ضعفاً

(1) ابن خلدون _ روزنتال، الأول، 421-423، عُدل قليلاً.

(2) البلاذريّ، أنساب -LDV، ملحوظة 22، ص 11.

(3) البلاذريّ، أنساب -LDV، ملحوظة 21، ص 11.

أو استعداداً للخضوع، يتحرّك بسرعة لمسامحة الإهانات وإظهار كرم سخيّ، وعلى غرار أيّ ملك، لقد علّق أهمّيّة كبيرة على الاعتراف بمكانته وكرامته، لكنّه اعتقد في أنّ هذا أظهر على نحو أكثر فاعليّة من خلال ضبط النّفس الحديديّ.

يُصوَّر معاوية أيضاً أنّه يمتلك إحساساً غريباً تقريباً بعواقب الفعل، فعلى سبيل المثال، قد تكون إهانات التّقوى مؤلمة، لكنّه لن يشكّل أيّ تهديد إذا تمّ تجاهله، وسيجعله العقاب شهيداً ومكان احتشاد للسّاخطين، والأفضل تركه صوتاً يصرخ في البرّيّة (من دون أن يستجيب له أحد)، وقد صيغت العديد من القصص التي تنقل هذه الصّفات على هيئة حوارات بين معاوية الحكيم والصّبور وابنه ووريثه الفخور والمتهوّر يزيد. ولا يُصوّر يزيد في هذه القصص شابّاً أحمق متهوّراً، بل رجلاً جسّد الحكمة التّقليديّة (لم يُصوّر أبداً أنّه متحرّر وغير متديّن) إنّه تلميذ معاوية (شخص غير جيّد، كما اتّضح فيما بعد) في فنّ السّياسة.

ومن الأمثلة ذات الدّلالة الخاصّة هذا المثال الذي قارن معاوية بعبد الله بن الزّبير:

كَانَتْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَرْضٌ إِلَى جَانِبِ أَرْضٍ لِمُعَاوِيَةَ، فَاقْتَتَلَ غِلْمَانُ مُعَاوِيَةَ وَغِلْمَانُ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَكَتَبَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي

سُفْيَانَ، أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ غَلَبْتَنا بِحُمْرَانِكَ وَسُودَانِكَ، وَلَوْ قد التقت حلقتا الْبِطَانِ وَاسْتَوَتْ بِنَا وَبِكَ الأَقْدَامُ عَلِمْتَ مِنْ عَبْدِ اللهِ أَنَّ سُودَانَكَ وَحُمْرَانَكَ لا يُغْنُونَ عَنْكَ شَيْئاً. فَقَرَأَ مُعَاوِيَةُ الْكِتَابَ ثُمَّ رَمَى بِهِ إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ وقَالَ: مَا عِنْدَكَ؟ قَالَ: تَبْعَثُ إِلَيْهِ مَنْ يَقْتُلُهُ فَتَسْتَرِيحَ مِنْ حُمْقِهِ وَعُجْبِهِ. قَالَ: يَا بُنَيَّ لَهُ بَنُونَ وَعَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُ، إِنْ بَعَثْتُ بِمِائَةِ رَجُلٍ وَأَعْطَيْتُ كُلَّ رَجُلٍ أَلْفًا بَلَغَ ذَلِكَ مِائَةَ أَلْفٍ، وَلا أَدْرِي عَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ. فَإِنْ غُلِبُوا بَعَثْتَ أَلْفًا وَأَعْطَيْتَهُمْ أَلْفَ أَلْفٍ، وَلَكِنِّي أَكْتُبُ إِلَيْهِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: مِنْ عَبْدِ اللهِ مُعَاوِيَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ أَنَّا غَلَبْنَاكَ بِحُمْرَانِنَا وَسُودَانِنَا وَأَنَّهُ إِنِ الْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ وَاسْتَوَتْ بِنَا وَبِكَ الأَقْدَامُ عَلِمْنَا أَنَّ حُمْرَانَنَا وَسُودَانَنا لا يُغْنُونَ عَنَّا شَيْئاً، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ وَهَبَ لَكَ ذَلِكَ المال بحمرانه وسودانه فخذه خَضِراً مَضِراً وَالسَّلامُ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: إِلى عَبْدِ اللهِ مُعَاوِيَةُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ غَلَبْتَنَا بِحِلْمِكَ وَجُدْتَ لَنَا بِمَالِكَ، فَجَزَاكَ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرَ جَزَاءٍ. فَلَمَّا أَتَى مُعَاوِيَةَ الْكِتَابُ قَالَ لِيَزِيدَ: يَا بُنَيَّ أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ مَا أَرَدْتَ؟ (1)

(1) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 147، ص 54-55.

[إضافة المقوّم اللّغويّ: البِطان جمع بطين وهو حزام يُشدّ على بطن الإبل في نهايته حلقة ويكون على الجانبين يُشدان إلى بعضهما حتّى تلتقي الحلقتان. وهنا يتحدّث معاوية للكناية عن اشتداد الأمر وبلوغه غايته. الدّبرة: الهزيمة في القتال.]

لا يجب أن تُؤخذ هذه القصّة بمعناها الظّاهريّ، ويُقصد بها عوضاً عن ذلك تجسيد فهم معاوية للطّبيعة البشريّة من خلال توضيح قدرته على نزع فتيل الأزمات ببادرة كبرى، وربّما عن غير قصد، وتلمح أيضاً إلى التّيارات السّياسيّة الغادرة التي تدور حول نظام معاوية، فقد سقط والد ابن الزّبير في موقعة الجمل، ولم يقبل ابن الزّبير عليّاً أو معاوية خليفة شرعيّاً مطلقاً، وهي وجهة نظر بالكاد كلّف نفسه عناء إخفائها، كما رفض ابن الزّبير بعد وفاة معاوية واستشهاد ابن عليّ الأصغر _ حسين _ في كربلاء عام (680) خلافة يزيد وطالب بالخلافة لنفسه، وواصل تأكيد هذا الطّلب حين تولّى مروان وعبد الملك السّلطة في دمشق عام (684-685) سيطر ابن الزّبير فعليّاً على مناطق أكثر ممّا سيطر عبد الملك بين وفاة يزيد سنة (683) وفتح عبد الملك العراق عام (689) لكنّه في نهاية المطاف، حُوصِر في مكّة وقُتل سنة (692) إذ يعكس وجوده في هذه القصّة والعديد من القصص الأخرى حول معاوية أحد عناصر المُعارَضة «الإسلاميّة» الواسعة لاستيلاء الأمويّين على الخلافة، وكانت هذه المُعارَضة بالنّسبة لمعاوية والأمويّين اللّاحقين أشبه بمرض مزمن لا يمكن علاجه! بل جرى التّعامل معه فحسب، ولم يستطع معاوية مطلقاً إقناع رجال مثل ابن الزّبير بالاعتراف بشرعيّة سلطته، لكنّه حاول تحييدهم، والجدير بالذّكر عند تقييم قصص من هذا النّوع أنّ مُعارَضة معاوية كانت تُشنّ باسم الإسلام على الدّوام، لكن يمكن أن يعني «الإسلام» أشياء كثيرة؛ تضمن المُطالَباتِ

المتباينةَ من مختلف الأحزاب الموالية لعليّ، والخوارج، وأنصار ابن الزّبير.

تخبرنا قصص عدّة أنّ معاوية كان عرضة لانتقاد أولئك الذين اعتقدوا في أنّهم مسلمون أفضل منه، ولا نحتاج إلى حادثة مُعيّنة صحيحة تاريخيّاً لندرك أنّ هناك مسلمين قد رأوا دينهم في إطار السُّوَرِ المكّيّة عوضاً عن السّور المدنيّة بوصفه ديناً يركّز على الاستعداد للحياة الآخرة عوضاً عن الحياة الدّنيويّة، وكان الصّراع على السّلطة السّياسيّة ومُمارَسة تلك السّلطة بالنّسبة لهم مُفسِدَين في جوهرهما، لأنّهما ركّزا اهتمامهما على تلك الأشياء التي شجبها القرآن على نحو دقيق: الثّروة والنّفوذ والجنس. وكانت رباطة الجأش في مُواجَهة الاعتزاز بالذّات بالنّسبة لمعاوية أمراً ضروريّاً، إذ لا يُعقل أن يعتذر عن هويّته وما أنجزه، لكن أضعفت هذه الانتقادات من شرعيّة حكمه، لذلك لم يستطع أن يتركها تمرّ بدون إجابة.

يقول البلاذريّ:

قَدِمَ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ لَهُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تَنْتَقِصُنِي، فَمَاذَا نَقَمْتَ فِيهِ عَلَيَّ؟ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُقَاتِلُ عَدُوَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَجْبِي فَيْئَهُمْ وَأُعْنَى بِأُمُورِهِمْ وَأَصِلُ وَافِدَهُمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: فَنَشَدْتُكَ اللهَ أَتُذْنِبُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا جَعَلَكَ أَحَقَّ بِرَجَاءِ الْمَغْفِرَةِ مِنِّي؟ قَالَ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.[1]

(1) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 88، ص 31-32.

كان معاوية مستعدّاً تماماً للاعتراف بأنّه رجل وحاكم مختلف عن أسلافه، لكنّه أشار إلى أنّ إسهاماته في المجتمع كانت على الأقلّ ذات قيمة. فقد قال في خطبة بالمدينة (عرين الأسود):

**إنّي رُمْت سِيرَةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَلَمْ أُطِقْهَا، فَسَلَكْتُ طَرِيقَةً لَكُمْ فِيهَا حَظٌّ وَنَفْعٌ عَلَى بَعْضِ الأَثَرَةِ، فَارْضَوْا بِمَا أَتَاكُمْ مِنِّي وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّ الْخَيْرَ إِذَا تَتَابَعَ وَإِنْ قَلَّ أَغْنَى، وَإِنَّ السَّخَطَ يُكَدِّرُ الْمَعِيشَةَ، وَلَسْتُ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إلا إِلَى مَنْ بَسَطَ يَدَهُ، فَأَمَّا الْقَوْلُ يَسْتَشْفِي بِهِ ذُو غَمْرٍ فَهُوَ دُبُرَ أُذُنِي وَتَحْتَ قَدَمِي حَتَّى يَرُومَ الْعَوْجَاءُ.**[1]

المعروف أنّ من العسير تقييم التزام معاوية الدّينيّ! ففي عدد من القصص، يكون متحفّظاً جدّاً حيال ذلك، ولا نجد عداءً صريحاً للدّين أو حتّى تعليقات ساخرة عنه، لكن ليس هناك أيّ اهتمام في الحديث عنه بأيّ شيء أكثر من حديث سطحيّ للغاية؛ وتَظْهَرُ بعضُ الاستشهادات القرآنيّة في خطاباته، لكنّها لم تكن مُناسَبات للنّقاش أو التّأمّل، لقد آمن بالله، وبالدّينونة القادمة، وبالحاجة إلى قبول ما يرسله الله إلينا سواء أكان خيراً أو شرّاً. يقول البلاذريّ:

**مَرِضَ مُعَاوِيَةُ فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ وَكَأَنَّهُمَا عَسِيبَانِ ثُمَّ قَالَ: هَلِ الدُّنْيَا إِلَا**

(1) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 88، ص 31-32.

**مَا جَرَّبْنَا وَذُقْنَا؟ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُعَمَّرْ فِيكُمْ فَوْقَ ثَلاثةٍ حَتَّى أَلْحَقَ بِرَبِّي. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ عِنْدَهُ: بِمَاذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: بِمَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ لِي، فَقَدْ عَلِمَ أَنِّي لَمْ أَهْوَ مَا كَرِهَ.**[1]

أُعجب معاوية بالتّقوى العميقة (على الرّغم من أنّه يمكن أن يكون ساخراً جدّاً حيال ذلك) لكنّه لم يشارك إعجابه، وكان مهتمّاً بالدّين، لكنّه لم يشارك ذلك أيضاً، لقد كان الإسلام حقيقيّاً وملزماً بلا شكّ، إلّا أنّه لم يشر في تصريحاته عنه إلى وصايا أخلاقيّة أو قانونيّة ملموسة، وقد خصّ الله محمّداً بأنّه رسوله وجعله أفضل الرّجال، لكنّ معاوية لم يناقش طبيعة رسالته مُطلَقاً؛ فبالنّسبة له، كان الإسلام أمراً بدهيّاً، وهي حقيقة لا بدّ من قبولها، ولم يكن التّفكير أو بناء مجتمع جديد أو أسلوب حياة جديد تحدّياً.

تثير علاقة معاوية بالمسيحيّة بعض الأسئلة المثيرة للجدل، إذ اشتهر معاوية بين الكتّاب المسيحيّين السّوريين أوائل القرن الثّامن، (يكاد يكون مُبجّلاً) بالسّلام والأمن اللّذين جلبهما بعد عقود من الحرب والفوضى، وبعدالته وتسامحه تجاه الكنائس المسيحيّة، فهل يعني هذا أنّه كان غير مبالٍ دينيّاً، ومسلماً من أجل مصلحته عوضاً عن القبول الصّادق؟ لقد اعتقد خصومه المسلمون في ذلك، وحذا أكثر المعلّقين المعاصرين حذوهم، لكن يجادل بعض العلماء الآن في أنّه يشير إلى مُحاوَلة لبناء تحالف توحيديّ ضمنيّ

(1) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 136، ص 49.

من «المؤمنين» يعمل فيه المسلمون _ أي أتباع محمّد ووحيه _ عملاً رائداً، لكن سيحتفظ المسيحيّون واليهود (الذين لم يكن حضورهم قويّاً في سوريّا _ فلسطين كما كانت الحال في العراق) بمُنظّماتهم وهياكلهم ومُمارَساتهم من خلاله؛ أم هل يعني ذلك أنّ معاوية كان عنده ما يكفي من المشكلات في إبقاء إخوانه في الدّين تحت السّيطرة، وكان قلقاً من فعل أيّ شيء قد يثير صراعاً وتمرّداً مُحتمَلاً بين رعاياه المسيحيّين في سوريّا؟

تأمّل (فلهاوزن) الذي عادة ما يكون أكثر العلماء انتقاداً في الاتّجاه الذي ربّما اتّخذه معاوية، إذ إنّه لم يذكر أيّ دليل يدعم فكره، ولم يتابع تداعياتها، ويمكننا الافتراض أنّه قصد التّأكيد على مدى سطحيّة جذور الإسلام في سوريّا معاوية، ومدى قوّة التّقاليد المسيحيّة الرّومانيّة في البلاد، ومهما كانت ملحوظات (فلهاوزن) عرضيّة، إلّا أنّها تجبرنا على الاعتراف بأنّ الهويّتين الاجتماعيّة والثقافيّة لعرب سوريّا ما زالتا بعد ثلاثين عاماً من الفتح متقلّبة وغير مستقرّة، ولعلّ التّاريخ الذي نعدّه من المُسلّمات مختلف تماماً. يقول فلهاوزن:

**لم يفشل تأثير الثّقافة الآراميّة اليونانيّة والكنيسة المسيحيّة والمملكة الرّومانيّة التي جاءت [القبائل العربيّة الجنوبيّة من كلب، وقضاعة وأزد السّراة التي هيمنت على وسط سوريّا] في ظلّها في ترك آثاره فيها، ولم تكن حكومة دولة مُنظّمة ونظامٍ عسكريّ وسياسيّ فكراً جديدة بالنسبة**

**هم... لقد اتّبعوا أميرهم حيث قادهم، لأنّهم لم يُبْدُوا في جوهرهم إلّا اهتماماً ضئيلاً بالإسلام مثلما فعل، ولم يعش المسلمون هناك منفصلين في مُستعمَرات أُقيمت خصّيصاً لهم، بل مع أبناء الأرض في البلدات القديمة مثل: دمشق وإميسا «حمص» وقنّسرين، إلخ... كذلك حظيت التّقاليد المسيحيّة في فلسطين وسوريّا ببالغ التّقدير من المسلمين؛ فقد كانت سوريّا بالنّسبة لهم الأرض المُقدّسة أيضاً، ونصّب معاوية نفسه خليفة في القدس، وصلّى بعدئذ في الجلجثة وقبر القدّيسة مريم... ومن المؤسف أنّه عوضاً عن أن يصبح خليفة، لم يكتف بسوريّا ويؤسّس هناك مملكة وطنيّة يمكن أن تكون أكثر رسوخاً من حكم شموليّ «بلا وطن» في الشّرق الذي هلك فيه العرب.** *لعلّه امتلك هذه الفكرة لكنّه وجد أنّ تنفيذها مستحيل؛ لأنه كان عليه في ذلك الوقت التّخلّي عن الإسلام والمجيء إلى الكنيسة، فالإسلام آنذاك لم يتسامح مع أيّ ممالك منفصلة.*[1]

وبناء على المعلوم في عالم الدّين ـ كما هي الحال في العديد من المجالات الأخرى ـ فإنّ مهارة معاوية في إخفاء نفسه تجعله جديراً بالاهتمام، ومع ذلك، لا ينبغي أن نطلب من الأدلّة أن تخبرنا أكثر ممّا تستطيع على نحو واقعيّ، فربّما نظر معاوية، مثله مثل العديد من رجال جيله إلى الإسلام أنّه بصفة أساسيّة شأن عربيّ، دين ممنوح للعرب من خلال نبيّ عربيّ، وعلامة الحدود بينهم وبين الشّعوب المُحتلّة، ورمز التّفوق الذي وهبه الله لهم

(1) فلهاوزن، «Arab Kingdom»، ص 132-135؛ بخطي المائل.

وأهلهم للحكم، وكان هذا أقوى وَثاق (وربّما الوحيد) جمع رجال القبائل المشهورين المثيرين للخلاف معاً، إذ يصعب أن نتخيّل أنّ معاوية قد تعمّد اتّخاذ أيّ خطوات قد تضعف الرّابطة بين الإسلام والهويّة العربيّة، وكان تَرْكُ المسيحيّين واليهود وشأنهم استراتيجيّة لتشجيعهم على البقاء في أمكنتهم وعدم مُحاوَلة الانزلاق إلى الطّبقة الحاكمة العربيّة الإسلاميّة.

تشكّل علاقة معاوية بالقدس جزءاً رائعاً من سياسته وإرثه وهي العلاقة التي لم يبدأ العلماء في استكشافها إلّا مُؤخّراً، ويُحتمل أنّ الدّافع وراء التّوغّل العربيّ الإسلاميّ في سوريّا وفلسطين _ بدءاً من بعثة «مؤتة» الكارثيّة عام (630) كان فرضَ **السّيطرة على الحرم التّوحيديّ العظيم في القدس**، وقد نشبت المعارك الأولى عام (634) في أماكن ذات مواقع استراتيجيّة لمنع أيّ مُساعَدة من القوّات البيزنطيّة عن القدس: غزّة (الطّريق الرّئيسة بين مصر وفلسطين)، بيلا / فحل (على طريق القدس -دمشق) وأجنادين. حتّى إنّ روايات الطّبريّ المنشورة إلى حدّ ما حول حصار القدس واستسلامها؛ تُظهِر أنّ هذه المدينة كانت لها مكانة خاصّة في المخيّلة الإسلاميّة المبكرة. فقد أدّت القدس عملاً مركزيّاً في السّياسة الأمويّة وإبراز صورتها العامّة لأكثر من نصف قرن (660-715) من معاوية إلى الوليد، حين أعلنه جنوده (معاوية) «أميراً للمؤمنين» في القدس عام (660) وتركّزت الاحتفالات المرتبطة بذلك في الأماكن المسيحيّة المُقدّسة، ويحتمل أنّه شيّد مسجداً في الحرم القدسيّ

على الرّغم من أنّ الأدلّة (نصّيّة بالكامل تقريباً) قابلة للجدل! ويذكر الحاج (الفرنكي أركولف) الذي كتب عن زيارته إلى الأراضي المُقدّسة نحو عام (682) أنّه كان يوجد هناك معبد إسلاميّ في ساحة الحرم، وهو هيكل خشبيّ كبير جدّاً ولكنّه مبنيّ بخشونة فوق الأنقاض، ويبدو أنّه (أو سلفه) قد شُيّد بعد مدّة وجيزة من الاحتلال العربيّ للقدس؛ إذ إنّ العديد من النّصوص المسيحيّة، بما في ذلك نصّ مبكر جدّاً، تنسبه إلى عمر أثناء زيارته إلى المدينة عام (638) لعلّ معاوية وسّع الهيكل الأصليّ (ربّما عام 661-662) إلّا أنّه لم يباشر بأيّ بناء كبير، ومع ذلك، يبدو أنّه طهّر الموقع من حطام المعابد الوثنيّة المُدمّرة والتّماثيل التي وضعها الإمبراطور (هادريان) نحو عام (133).

لكن ما الذي كان يريده؟ لعلّه أراد الحفاظ على مكانة مُصلّى المسلمين متواضعاً مثلما كان، وفي المقابل ـ في عهدي عبد الملك والوليد ـ رُوّج بقوّة لقداسة القدس الخاصّة، لكنّهم تجاهلوا بوضوح الآثار المسيحيّة في المدينة، وأعادوا تقديس المعبد اليهوديّ بكلّ تكتّلاته المُعقّدة، لكن هذه القضيّة تحتاج إلى فحص متأنٍّ جدّاً؛ لأنّ القدس، على الرّغم من أنّها مُقدّسة بدون شكّ بالنّسبة لأجيال المسلمين اللّاحقة، ربّما فقدت مكانتها الفريدة في الخيال الإسلاميّ بحلول عهد هشام (724-743) ومع عدم إهمال القدس، أعاد العبّاسيّون تركيز اهتمامهم على مكّة والمدينة، للتّأكيد على ارتباطهم العائليّ والأيديولوجيّ بمؤسّس الإسلام.

إن لم يستطع الكتّاب السّنّة لاحقاً فهم التزامات معاوية الدّينيّة، إن كان عنده أيّ منها في الواقع، فلا أحد يشكّ في حبّه للفولكلور والشّعر في المنطقة العربيّة القديمة، إنّ الأدلّة (كما هي الحال بالنّسبة لأشياء كثيرة عنه) غير مُؤكّدة، ويبدو هذا معقولاً بما يكفي، لأنّه وُلد ونشأ في مجتمع الجاهليّة، زيادة على أنّ ابنه وخليفته يزيد، الذي كان عهده قصيراً جدّاً الشّخصية الوحيدة بين الخلفاء الأوائل الذي يبدو أنّه شعر بهذا الانبهار، ويقال: إنّه كلّف الآثاريّ والفلكلوريّ (عبيداً بن شريعة) بتجميع كتاب عن تاريخ وآثار اليمن، ويُقال: إنّ هذا العمل دُمج في أعمال لاحقة كثيرة، للأسف، ويُرجّح أن تكون هذه القصّة غير صحيحة؛ إذ إنّ عبيداً شخصيّة شبه أسطوريّة، وليس لدينا معلومات موثوقة عنه، ولم يُوثّق عملُه قبلَ أوائل القرن التّاسع، فقد يكون مُجرّد تزوير «قبل الحال النّهائيّة» ومع ذلك، بقيت إحدى قطع البرديّ التي تربط بين مجموعة من القرن الثّامن والعمل الذي كلّف به معاوية[1] دليلاً ضعيفاً لكنّه يضفي بعض المضمون على القصّة، لكن حتّى لو كان عبيد خيّالاً، يمكن القول: إنّ اسمه كان مرتبطاً بمعاوية على وجه التّحديد لأنّ اهتمامه بهذه الأمور كان معروفاً على نطاق واسع، وتُظهر العديد من القصص أنّ معاوية يقيّم مزايا شعراء مختلفين أو يقارن بين مكانة وفضائل القبائل المختلفة،؛ إذ يُحتمَل أنّه لم يستطع أن يحكم إلّا بالطّريقة التي اتّبعها؛ لأنّه امتلك معرفة عميقة بالقبائل ومكانتها بالنّسبة إلى بعضها بعضاً

(1) نبيهة عبود، «Studies in Arabic Literary Papyri»، المجلد. 1، نصوص تاريخية (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، 1957).

وشاركها الثّقافة والقيم التي تعتزّ بها.

**كان حبّ معاوية للثّقافة البدويّة التّقليديّة مسألة ذوق لا أسلوب حياة، فهو أحد سكّان المدن بالولادة والنّشأة وفضّل العيش في المدن (أو منازله الرّيفية) عوضاً عن خيمة،** وهناك مفارقة في الأبيات المأثورة المنسوبة إلى زوجته ميسون بنت بحدل الكلبيّة ابنة الصّحراء الأصيلة التي شعرت بالتّشرّد وعدم الانتماء على نحو يائس بوصفها قرينة الخليفة:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه أَحَبُّ إليّ من قصر مُنيفِ
ولُبْسُ عباءة وتقرَّ عيني أَحَبُّ إليّ مِن لُبْسُ الشُّفوفِ
وأكل كُسَيْرَةٍ مِنْ قعر بيتي أَحَبّ إليّ من أكلّ الرّغيفِ
وأصوات الرّياح بكلّ فجّ أَحَبُّ إليّ مِن نقر الدّفوفِ
وكلب ينبَحُ الطُّرّاقَ دوني أَحَبُّ إليّ مِنْ قِطٍّ أليفِ
وبَكْرٌ يتبع الأظعان صَعْبٌ أَحَبُّ إليّ من بغل زفوفِ
وأخرق من بنِي عمّي نحيل أَحَبُّ إليّ من عِلجٍ عَنوفِ[1]

(1) «Delectus Veterum Carminum Arabicorum»، ثيودور نولدكه، محرر. ص. 25، إن السطر الأخير هو إشارة إلى سمنة زوجها المشهورة. [تعليق المترجم: الأرواح: جمع ريح _ تخفق: تضطرب _ منيف: عال _ الطرّاق: جمع طارق، وهو الذي يأتي بالليل _ بكر: بفتح الباء، الفتى من الإبل _ الأظعان: جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج _ زَفوفُ: مسرع، وهو بفتح الزاي و ضم الفاء الأولى، وهو ضرب من المشي. "شرح شواهد المغني"، جلال الدين السيوطي، الجزء 1، ص 653.]

تصوّر المصادر العربيّة معاوية أحد أكثر الحكّام المسلمين إنسانيّة في العصور الوسطى، وهو رجل لديه هواجس كبيرة حيال الانغماس في شهواته، لكنّها لم تسيطر عليه، لقد كان بعيداً عن كونه شخصيّة صارمة في التّقشّف والانضباط الذّاتيّ الشّديد (مثل عمر بن الخطّاب) ومثل الأخلاقيّين المسلمين الذين أحبّوا التّمجيد، لكن لم يُحْدِثْ تهوّره وتجاوزاته الشّخصيّة الغضبَ الأخلاقيّ، مثلما فعل ابنه يزيد، ويبدو معاوية ودوداً وكريماً وخفيف الظّلّ، إلّا أنّه يتمتّع بجانب حادّ حين تبدو التّهديدات حقيقيّة أو أنّ الإهانات تجاوزت الحدّ! ولم تكن أفعاله عفويّة حقّاً، ولم تكن خيريّة بحتة ولا إنسانيّة بالكامل، فقد احتُسبت في الأساس لتحقيق أهدافه أو إحباط أهداف أخرى، وكان رفيقاً ممتازاً للكثيرين، لكنّه كان صديقاً حقيقيّاً لقلّة قليلة جدّاً، ولا يمكننا معرفة ما إذا كان هذا هو معاوية الحقيقيّ، لكنّني سأجادل في أنّها صورة ترتكز على ذكريات حقيقيّة للرّجل وتأثيره على مَن حوله، إذ مهما كانت القصص مُنمّقة أو مُشوّهة، فقد بقيت النّواةُ الأساسيّةُ للذّاكرة سليمة.

يبدو أنّ معاوية كان يتمتّع بالتّصرّف بذكاء مع أمرائه الذين تحدّثوا إليه بألفة استثنائيّة وعاملهم كما لو كانوا أقرانه (كما فعلوا في كثير من النّواحي).

وينقل البلاذريّ التّالي:

قَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: مَا بَلَغَ مِنْ دَهْيِكَ؟ قَالَ: لَمْ أَدْخُلْ فِي أَمْرٍ

**قَطُّ إلا خَرَجْتُ مِنْهُ، قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكِنِّي لَا أَدْخُلُ فِي أَمْرٍ قَطُّ أَحْتَاجُ الْخُرُوجَ مِنْهُ.**[1] ولم تكن له الكلمة الأخيرة دائمًا في هذه الحوارات.

وقد أمر اثنين من قدامى المحاربين القساة، هما المغيرة بن شعبة من الكوفة وعمرو بن العاص من مصر بالقدوم إلى مجلسه:

**... فَقَالَ عَمْرُو لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: مَا جَمَعَنَا إِلا لِيَعْزِلَنَا، فَإِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِ فَاشْكُ الضَّعْفَ وَاسْتَأْذِنْهُ فِي إِتْيَانِ الْمَدِينَةِ أَوِ الطَّائِفِ، فَإِنِّي سَأَسْأَلُهُ إِتْيَانَ مَكَّةَ أَوِ الْمَدِينَةِ، فَسَيَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَنَّا إِنَّمَا نُرِيدُ إِفْسَادَ النَّاسِ عَلَيْهِ. فَفَعَلَ الْمُغِيرَةُ ذَلِكَ، ثُمَّ دَخَلَ عَمْرُو فَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي إِتْيَانِ مَكَّةَ أَوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: قَدْ تَوَاطَأْتُمَا عَلَى أَمْرٍ وَإِنَّكُمَا لَتُرِيدَانِ شَرًّا فَارْجِعَا إِلَى عَمَلِكُمَا.**[2]

يحتاج أيّ رجل إلى قليل من الرّذائل _ المعايب _ وقد كان الطّعام نقطة ضعف معاوية الكبرى، إذ أصبح في سنيّه الأخيرة بديناً جدّاً، وكما هي الحال مع أكثر الأشياء، وكان راضياً بما كان عليه، ولم يهدر سوى القليل من الطّاقة؛ **وهو يشكو افتقاره إلى ضبط النّفس**، لكنّه كان يعلم جيّداً أنّ مثل هذه الملذّات لها تكلفة، فقد جاء مالك بن هبيرة السّكونيّ من مصر،

(1) البلاذريّ، أنساب _ LDV، الملحوظة 104، ص 37.

(2) البلاذريّ، أنساب - LDV، ملحوظة 116، ص 41.

وهو أحد صحابة النّبيّ وأحد أقوى أنصار الأمويّين للقاء معاوية. وقام خلال المُحادثة بمدّ رِجله عن غير قصد، فعلّق معاوية قائلاً: **يَا أَبَا سَعِيدٍ وَدِدْتُ أَنَّ لِي جَارِيَةً لَهَا مِثْلُ سَاقَيْكَ.** فردّ مالك: **فِي مِثْلِ عَجِيزَتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.** فأجابه معاوية: **حَبْجَةٌ بِلَبْجَةٍ وَالْبَادِئُ أَظْلَمُ.** أي إذا بدأت شيئاً فعليك تحمّل العواقب.[1]

امتلك معاوية رغبة جنسيّة قويّة لم يبذل جهوداً تُذكر لكبحها على الرّغم من أنّه لم يُتّهم بتجاوز الحدّ القرآنيّ لأربع زوجات و «ملك اليمين» وافتخر ببراعته الجنسيّة، وكان يغار خشية أن يتفوّق عليه أحد آخر، ومع ذلك، فحتّى في هذا الأمر الحسّاس، يمكن أن يسخر من نفسه.

يقول البلاذريّ:

**بينما كان معاوية منعزلاً مع جارية إيرانيّة من مُقاطَعة خراسان الحدوديّة الوعرة، اختار شخص ما هذه اللّحظة المحرجة ليقدّم له جاريّة جديدة (فقط مَن هو الذي كان جريئاً بما يكفي للتّطفّل على هذا النّحو، لا نعرف!) لقد مارس الحبّ مع الفتاة الجديدة ثمّ غادرت على نحوٍ مفاجئ مثلما جاءت. فقال لجاريته الخراسانيّة: مَا اسْمُ الأَسَدِ بِالْفَارِسِيَّةِ؟ قَالَتْ: كفتار. فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا الْكفتار. فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَدْرِي مَا الكفتار؟ قَالَ: نَعَمْ الأَسَدُ. قَالُوا: لا،**

(1) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 107، ص 38.

**وَلَكِنَّهُ الضَّبُعُ الْعَرْجَاءُ. فَقَالَ: مَا لَهَا للهِ دَرُّهَا مَا أَسْرَعَ مَا أدركت ثأرها.**[1]

وكان معاوية يستمتع بالموسيقى وقد كان جواز سماعها موضع شكّ عند الأتقياء حتّى في عصره؛ لأنّها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بجلسات شرب الخمور وشهوانيّة الجاهليّة؛ وأمسك ذات مرّة موسيقيّ شهير بحلقة باب بيت معاوية (على الأرجح بدلاً من الدّفّ أو الصّنجات) وبدأ في عزف لحن بها وهو يغنّي باتّجاه معاوية، فبدأ معاوية بأرجحة قدمه لا إراديّاً على نغم الموسيقى، فسأله أحد رجال البلاط وهو متفاجئ إلى حدّ ما عمّا يفعله، فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال معاوية: إنّ الكريم طروب.[2]

ختاماً، وُجدت علاقات لمعاوية مع النّساء في منزله في منطقة لم يكن له اليد العليا فيها على الدّوام، فقد كتب عن حالات مع ابنته رملة وجارية فارسيّة، واتّهمه عمرو بن العاص في مناسبة أخرى (الذي استمتع دوماً بمُضايَقته) بالسّماح لزوجته الأولى فاختة بنت قرظة بالسّيطرة عليه. فَقَالَ عمرُو لِمُعَاوِيَةَ: غلبَتْك امرأتُك. فَقَالَ: **إنّهنّ يغلبن الكرام، ويغلبُهُنّ اللّئام.**[3] لقد كان رجلاً يمكن أن يتقبّل الحياة كما هي، حتّى حين يحوّل

---

(1) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 155، ص 59.

[إضافة المقوّم اللّغويّ: تكنى الضّبع بـ«أمّ عامر» وتشتهر الضّبع إلى جانب سرعة أخذها بالثّأر بغدرها ونكرانها المعروف.]

(2) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 49، ص 19.

(3) البلاذريّ، أنساب- LDV، ملحوظة 83، ص 30.

إهانة على نحوٍ حاذق ضدّ جلاّده.

وقد قيل لنا: إنّه اشتكى بشدّة في سنيّه الأخيرة من أمراضه الجسديّة المتزايدة، وكانت مؤلمة لرجل تلذّذ كثيراً بالأشياء الجيّدة في هذا العالم، لكنّه لم يغرق مطلقاً في المرارة أو النّدم، ولم يتّبع مسار العديد من كبار السّنّ الذين احتفظوا بالسّلطة لمدّة طويلة؛ وأصبحوا حقودين ومتشكّكين، وكان في حالة سلام مع نفسه والحياة التي عاشها، وبقي متيقّظاً حتّى النّهاية، لكن لم يكن لديه قلق كبير إزاء المُستقبَل على ما يبدو.

توفّي معاوية برفقة ابنتيه في قصره في دمشق في نيسان عام (680) بعد مرض أصابه لمدّة وجيزة، وقد عقد جلسات عامّة حين شارف على النّهاية، جالساً باعتدال، رأسه مدهون بالزّيت وعيناه مُخطّطتان بالكحل، ومن ثمّ لا بدّ من أن يعتقد زوّاره في أنّه في أفضل حال صحّيّة. وقد قيل لنا: إنّه روى في مرضه الأخير قصّة قصيرة للأشخاص الملازمين له، تبدو حقيقيّة، ولعلّها تلقي شعاعاً من الضّوء على إدراكه للمُقدّس.

ينقل الطّبريّ على لسان معاوية التّالي:

إِنَّ رَسُولَ اللهَّ (ص) كَسَانِي قَمِيصاً فَرَفَعْتُهُ.[1] وَقَلَّمَ أَظْفَارَهُ يَوْماً،

(1) أي لم يلبسه بل احتفظ به.

**فَأَخَذْتُ قُلامَتَهُ فَجَعَلْتُهَا فِي قَارُورَةٍ، فَإِذَا مِتُّ فَأَلْبِسُونِي ذَلِكَ الْقَمِيصَ، وَقَطِّعُوا تِلْكَ الْقُلامَةَ، وَاسْحَقُوهَا وَذَرُوهَا فِي عَيْنِي وَفِي فِيَّ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَرْحَمَنِي بِبَرَكَتِهَا.**[1]

وحتّى في الموت، يبدو معاوية ساخراً! وكان السّياسيّ الأكثر براعة في عصره، وقد اشتُهر بفطنته، وصبره، وبُعد نظره في التّخطيط؛ لكنّ عاصفة هائلة انفجرت في وجه إمبراطوريّته فور وفاته، ويكاد المرء بعد قراءة بضع قصص؛ يكاد يكون من المُؤكّد أنّها مُلفّقة بعد عقود، نسمعه ينصح ابنه ووريثه، يزيد بالحذر من بعض الرّجال، سيّما الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير، مستشرفاً المأساة القادمة باستبصار شبه كامل، ويشير معاوية بهذا إلى أنّ الحسين ندّ غير مؤذٍ، وقد يضلّله العراقيّون بالثّورة، لكن لا بد من الصّفح عنه. أمّا ابن الزّبير فهو: «**يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثّعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزُّبَيْر، فإن هُوَ فَعَلَها بك فقدرت عَلَيْهِ فقطّعه إرباً إرباً.**»[2]

وإذ توقّع معاوية بالفعل هذه الاحتمالات، فإنّه لم يعمل على منعها! وقد نجح في كسب زعماء القبائل العِظام إلى جانبه، فَهُمْ أساس نظامه وفي عقله، إنّهم من يرفع أو يدمّر حاكماً، ولم يرَ أيّ سبب للقلق على نحو

(1) الطّبريّ، الثامن عشر، 212.

(2) الطّبريّ، الثامن عشر، 208-210.

غير ملائم بشأن عدد قليل من السّاخطين في مكّة والمدينة، المعزولين والبعيدين عن مركز القوّتين السّياسيّة والعسكريّة، **وكان هذا فشلاً غريباً للبصيرة لشخص واقعيّ مثله**؛ فقد كان الحسين وابن الزّبير أبناء صحابة مُوقّرين يعملان بمنزلة مغناطيس طبيعيّ يجتذب مُعارضةً لاستمرار الحكم الأمويّ، وزيادة على ذلك؛ مات آباؤهم مِيتةً عنيفة خلال النّضال لتأكيد مطالبهم بالخلافة، وكان من المعقول تصوُّرُ أنّ الأبناء سيحاولون حماية آبائهم.

وقد بدأ كلّ شيء في غضون أشهر من وفاة معاوية بالانهيار، وبدا أنّ فوضى خمسينيّات القرن السّادس تعود، حتّى إنّها أسوأ من حيث الحجم والشّدّة، ويمكن أن يعتمد يزيد على ولاء الجيش السّوريّ وحكّامه، سيّما عبيد الله بن زياد في العراق، لكن كلّ ما فعله، أو بدقّة أكبر، كلّ ما فعله عملاؤه نيابة عنه لمُواجَهة تحدّيات الحسين وابن الزّبير زاد الطّين بلّة، فقد كان يتعامل مع خصوم لا يستطيع التّوفيق بينهم أو رشوتهم، لأنّهم لا يكنّون له سوى الاحتقار بوصفه مسلماً وإنساناً، ورأى كلّ من الكوفيّين والحجازيّين فرصة لاستعادة المكانة التي فقدوها في ظلّ حكم معاوية.

كانت تحدّياتهم كارثيّة مثلما كانت في عهد معاوية، ولقي الحسين وأتباعه حتوفهم في كربلاء عام (680) بينما حوصر عبد الله بن الزّبير في

مكّة، وكان على وشك الهزيمة عام (683) ومع ذلك، أصبح الحسين ـ بقدر يفوق حتّى والده ـ شهيداً لعائلة الرّسول وقضيّة الإسلام؛ **إذ أدّى استشهاده إلى إثارة كراهية دائمة لـ«الأمويّين الكَفَرَة» والحركة الدّينيّة المستمرّة**، ولم يستطع ابن الزّبير أن يطالب بالمكانة ذاتها، لكن أثناء حصار مكّة، تعرّضت الكعبة ذاتها للرّمي بالمنجنيق والحرق، وقد أظهر هذا بالنّسبة إلى أصحاب التّفكير الدّينيّ طبيعة النّظام الفاسدة تماماً، وقد كان يزيد على وشك تحقيق نصر عسكريّ حاسم لحظة وفاته، إلّا أنّنا لا نعرف ما إذا كان بإمكانه استبدال الطّريقة التي انتصر بها.

وقد تجدد طلب ابن الزّبير للحصول على الخلافة بأعجوبة بعد وفاة يزيد غير المُتوقّعة (لم يكن تجاوز الأربعين من عمره) وقد تلقّى دعماً مهمّاً، حتّى من أنصار معاوية الذين خدموا معه لمدّة طويلة، **ولم ينقذ النّظامَ الأمويَّ إلّا زعماءُ قبيلة كلب والقبائلِ المتحالفة معهم الذين استدعوا نسيب معاوية، مروان بن الحكم من التّقاعد وأقسموا الولاء له أميراً للمؤمنين**، إذ على الرّغم من أنّه كان في الثّمانين من عمره، إلّا أنّ مرواناً سرعان ما أظهر أنّه لم يفقد أيّاً من حكمته السّياسيّة وشجاعته الشّخصيّة، لقد انتصر يوم الأمويّين (والكلب) في معركة مرج راهط الكبرى بالقرب من دمشق عام (684) ومع أنّه تُوفّي في العام التّالي، إلّا أنّه أسّس في ذلك الوقت قاعدة محدودة القوّة، لكنّها متينة، لقد ناضل ابنه وخليفته عبد الملك (685-705) بقوّة ونجاح لإعادة تأسيس النّظام الأمويّ على أساس جديد أكثر

أماناً، واستمرّت إنجازاته، ولم تنتقل إلى الأمويّين الّلاحقين فحسب، بل إلى خلفائهم العبّاسيّين الجاحدين أيضاً.

**وقد سعى عبد الملك ـ كما لم يفعل معاوية ـ إلى بناء أساس أيديولوجيّ واضح للحكم الأمويّ**، إنّه بيان مقنعٌ بحقّهم في قيادة المجتمع الإسلاميّ، ولعلّ فشل جهوده وجهود خلفائه، كان خطأهم بقدر أقلّ من النّتيجة الحتميّة للطّريقة التي انهار بها نظام معاوية السّياسيّ دقيقُ التّوازن بعد عام (680).

ويمكن القول: إنّه حتّى عبقريّة معاوية السّياسيّة لم تشترِ إلّا مهلة لمدّة عشرين عاماً من الانقسام والحرب الأهليّة، لكن، حتّى لو قبلنا هذه الحجّة، فإنّ تلك المهلة ليست أمراً هيّناً، وقد كانت حاسمة لبقاء وازدهار مشروع الإسلام بأكمله في نهاية المطاف.

# BIBLIOGRAPHY

## MEDIEVAL SOURCES

al-Baladhuri, Ahmad ibnYahya. *Ansab al-Ashraf.* Vol. 4, Part 1, ed. Ihsan 'Abbas.Wiesbaden: Franz Steiner, 1979. Vol. 4A, ed. M. Schloessinger and M. J. Kister. Jerusa- lem: Hebrew University Press, 1971.

'Il califfato di 'Ali secondo il Kitab Ansab al-Asraf di al- Baladuri'. Transl. G. Levi della Vida. *RSO*, 6 (1914–15), pp.427–507, 923–927.

*Il Califfo Mu'awiya I secondo il 'Kitab Ansab al-As-raf' di Ahmad ibnYahya al-Baladuri.* Transl. Olga Pinto and G. Levi della Vida. Rome: Libreria di Scienze e Lettere, 1938.

al-Baladhuri, *Futuh al-Buldan.* Ed. M. J. de Goeje. Leiden: E. J. Brill, 1866. Trans. P. K. Hitti and Francis Murgot- ten as *The Origins of the Islamic State.* 2 vols. Columbia University Studies in History, Economics, and Public Law,Vol. 68, nos. 163, 163a. NewYork: Columbia Uni- versity Press, 1916–24.

Brock, S. P. "North Mesopotamia in the Late Seventh Cen- tury: Book XV of John Bar Penkaye's *Ris Melle.*" *JSAI*, 9 (1987), 51–75.

Ibn 'Asakir, 'Ali ibn al-Hasan. *Ta'rikh madinat Dimashq*. Ed. Muhibb al-Din al-'Amrawi. 70 vols. Beirut: Dar al-Fikr, 1995–98. (Complete but not critical edition. A better text is provided by the edition still in progress issued by the Arab Academy ofDamascus.)

Ibn Manzur, *Mukhtasar ta'rikh madinat Dimashq*. Ed. Ruhi- yya al-Nahhas et al. 29 vols. Damascus: Dar al-Fikr, 1984–90.

Khalifa ibn Khayyat al-'Usfuri. *Ta'rikh*. Ed. Akram Diya al- 'Umari. 2 vols. Najaf: Matba'at al-Adab, 1967.

al-Mas'udi, 'Ali ibn al-Husayn. *Muruj al-dhahab wa-ma'adin al-jawhar*. Ed. Charles Pellat. 7 vols. Beirut: Al-Jami'a al-Lubnaniyya, 1965–79. Transl. Pellat as *Les prairies d'or.* 5 vols. Paris: Société Asiatique, 1965–74.

al-Mas'udi. *Kitab al-tanbih wa'l-ishraf.* Ed. M. J. de Goeje, *Bibliotheca Geographorum Arabicorum*,Vol. 8. Leiden: E. J. Brill, 1894. Transl. B. Carra da Vaux as *Livre del'avertissement et de la revision.* Paris: Imprimerie nation- ale, 1896.

al-Minqari, Nasr ibn Muzahim. *Waq'at Siffin*. Ed. A.-S. M. Harun. Cairo, 1962.

Nikephoros, Patriarch of Constantinople. *Short History.* Ed. and transl., Cyril Mango.Washington, D. C.: Dum- barton Oaks, 1990.

*The Seventh Century in the West-Syrian Chronicles.* Anno- tated translations by Andrew Palmer, Sebastian Brock, Robert Hoyland. Liverpool: University of Liverpool Press, 1993.

Sebeos (Pseudo-). *The Armenian History attributed to Sebeos.* Transl. R.W. Thomson. Liverpool: University of Liver- pool Press, 1999.

al-Tabari, Abu Ja'far. *Ta'rikh al-Rusul wa'l-muluk.* Ed. M. J. de Goeje et al. 15 vols. Leiden: E. J. Brill, 1879–1901. Transl. as *The History of al-Tabari.* Gen. ed., Ehsan Yarshater. 39 vols. Albany, NY: State University of New York Press, 1985–2000.

Theophanes. *The Chronicle of Theophanes Confessor. Byzantine and Near Eastern History, A.D. 284–813.* Transl. Cyril Mango and Roger Scott. Oxford: Clarendon Press, 1997.

al-Ya'qubi, Ahmad ibn AbiYa'qub. *Al-Ta'rikh.* Ed. M. T. Houtsma. 2 vols. Leiden: E. J. Brill, 1883.

## MODERN SCHOLARSHIP

Canivet, Pierre and J.-P. Rey-Coquais, eds. *La Syrie de Byzance à l'Islam, VIIe-VIIIe siècles.* Damascus: Institut Français de Damas, 1992.

Crone, Patricia. *Slaves on Horses: The Evolution of the Islamic Polity.* New York: Cambridge University Press, 1980.

Crone, Patricia and Fritz Zimmerman, *The Epistle*

*of Salim ibn Dhakwan*. Oxford: Oxford University Press, 2001.

Djait, Hichem. *Al-Kufa: Naissance de la ville islamique*. Paris: Maisonneuve et Larose, 1986.

Djait, Hichem. *La grande discorde: religion et politique dans l'Islam des origines*. Paris: Maisonneuve et Larose, 1989.

Donner, Fred M. *The Early Islamic Conquests*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981.

Donner, Fred M. "The Formation of the Islamic State." *JAOS*, 106, no. 2 (1986), pp. 283–296.

Donner, Fred M. *Narratives of Islamic Origins: The Begin- nings of Islamic Historical Writing*. Studies in Late Antiq- uity and Early Islam, no. 14. Princeton, NJ: Darwin Press, 1998.

Flood, Finbarr Barry. *The Great Mosque of Damascus: Studies on the Makings of an Umayyad Visual Culture*. Leiden: E. J. Brill, 2000.

Foss, Clive. "The Coinage of Syria in the Seventh Century. The Evidence of Excavations." *Israel Numismatic Journal*, 13 (1994–99), 119–132.

Foss, Clive. "A Syrian Coinage of Mu'awiya?" *Revue Numis- matique*, 158 (2002), pp. 353–365.

Foss, Clive. "The Coinage of the First Century of Islam."

*Journal of Roman Archaeology*, 16 (2003), pp. 748–

760. Hasson, Isaac. "Remarques sur l'inscription de Mu'awiya a

Hammat Gader." *Israel Exploration Journal*, 32 (1982), pp. 97–101.

Hasson, Isaac. "La Conversion de Mu'awiya ibn Abi Sufyan." *JSAI*, 22 (1998), pp. 214–242.

Hasson, Isaac. "Ziyad b. Abihi." *EI2*, vol. 11, pp. 519–522.

Hawting, Gerald R. *The First Dynasty of Islam.* Beckenham, Kent: Croom Helm, 1987.

Hawting, Gerald R. "Yazid (I) b. Mu'awiya." *EI2, vol. 11, pp. 309–311.*

Hinds, Martin. "Mu'awiya I." *EI2*, vol. 7, pp. 263–268.

Hinds, Martin. "The Siffin Arbitration Agreement." *JSS*, 17 (1972), pp. 93–113.

Hoyland, Robert G. *Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writ- ings on Early Islam.* Studies in Late Antiquity and Early Islam, 13. Princeton, NJ: Darwin Press, 1997.

Humphreys, R. Stephen. *Islamic History: A Frame-work for Inquiry.* Rev. ed. Princeton, NJ: Princ-eton University Press, 1991.

Johns, Jeremy. "Archaeology and the History of Is-lam: The First Seventy Years." *JESHO*, 46 (2003),

pp. 411–436.

Kaegi, Walter. *Byzantium and the Early Islamic Conquests*. Cambridge: Cambridge University Press, 1992.

Kaegi, Walter. *Heraclius, Emperor of Byzantium*. Cambridge: Cambridge University Press, 2003.

Keshk, Khaled Mohammed. "The Depiction of Mu'awiya in the Early Islamic Sources." Ph.D. dissertation, University of Chicago, 2002.

Kraemer, Caspar J. *Excavations at Nessana*. Vol. 3, *Non-Lit- erary Papyri*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958.

Lammens, Henri. Études *sur le règne du Calife Omaiyade Mu'awiya Ier*. Paris, 1908.

Lammens, Henri. *Le califat de Yezid Ier*. Beirut: Imprimerie Catholique, 1921.

Lammens, Henri. Études *sur le siècle des Omeyyades*. Beirut: Imprimerie Catholique, 1930.

Lindsay, James E. "Caliphal and Moral Exemplar? 'Ali ibn 'Asakir's Portrait of Yazid b. Mu'awiya." *Der Islam*, 74 (1997), pp. 250–78.

Madelung, Wilferd. *The Succession to Muhammad: A Study of the Early Caliphate*. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

Morony, Michael G. *Iraq after the Muslim Conquest*. Princ- eton, NJ: Princeton University Press, 1984.

Pellat, Charles. "Le culte de Mu'awiya au IIIe siècle." *SI*, 7 (1956), pp. 53–66.

Petersen, Erling L. *'Ali and Mu'awiya in Early Arabic Tradi- tion*. Copenhagen: Munksgaard, 1964.

Robinson, Chase F. *Islamic Historiography*. Cambridge: Cam- bridge University Press, 2003.

Veccia Vaglieri, Laura. "Ali ibn Abi Talib." *EI2*, vol. 1, 381–386.

Wellhausen, Julius. *Das arabische Reich und sein Sturz*. Berlin, 1902. *The Arab Kingdom and its Fall*. Transl. Mar- garet Weir. Calcutta, 1927.

Wellhausen, Julius. "Die Kämpfe der Araber mit der Romäern in der Zeit der Umaijaden." *Nachtrichten der königlichen Gesellschaft des Wissenschaften*. Gottingen, 1901.

Wellhausen, Julius. *Die Religiös-politischen Oppositionsparte- ien im alten Islam*. Berlin, 1901. *The Religio-Political Fac- tions in Early Islam*. Transl. R. C. Ostle and S. M. Walzer. Amsterdam: North Holland, 1975.

Whitcomb, Donald. "Khirbat al-Karak Identified with Sinna- bra." *Al-'Usur al-Wusta: Bulletin of Middle East Medieval- ists*, 14, no. 1 (April 2002), pp. 1–6.

# فهرس الأعلام وأسماء الأماكن

## فهرس الجداول

# فهرس المحتويات

